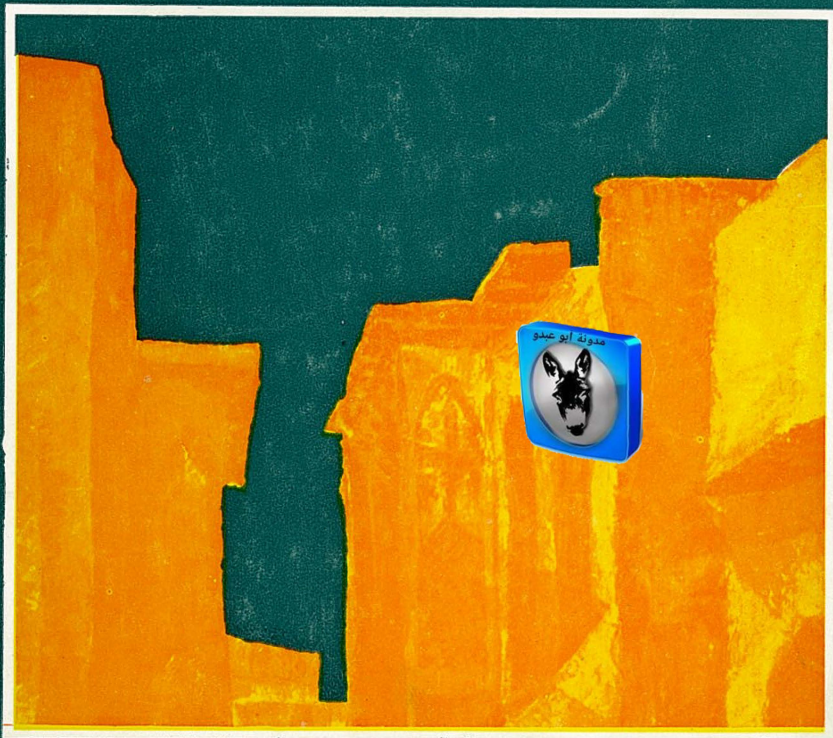


غائب طعمه فرمان



ظلال

دار الاداب - بيروت

على النافذة

غائب طعمة فرمان

ظلال على النافذة

وهداية

منشورات دار الآداب - بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى
آب (أغسطس) ١٩٧٩

الى ايننا فرمان

في حياتنا نمر بتجارب يورق لنا بعضها أجبات من
الذكريات تصحبنا في طريق حياتنا ردحا من الزمن ثم نخلفها
وراعنا في سير القافلة الذي لا ينو ونحسب اننا قد نسيناها،
وأن رياح العمر قد ذرتها . ولكننا نفاجأ بها أحيانا تطل
علينا ، مع تقدم العمر ، كظلال على نافذة ذاكرتنا . وقد
تعذبنا هذه الظلال ، وتجرح أحاسيس عزيزة علينا
اكتسبناها بالتمود وبالتزود بتجارب جديدة ، ولكننا لا
نستطيع منها فرارا ، فقد صارت جزءا من ضميرنا
وذاكرتنا ، ولا مهرب منها ولا منجى . وعزاؤنا هو أن من
لا ذكريات له لا ذاكرة له ، ولا نافذة يطل منها على التاريخ
... عندئذ يصير كل شيء سواء لديه .

ظل ...

عبد الواحد الحاج حسين نجار مرموق ، ورث التجارة من سابع ظهر ، وتدرج من صنع المهود والتوابيع الى صنع موبيليات العرائس التي كان يسميها « مال بيئات » . والعم عبد الواحد ، ابو ماجد الوردية ، حاضر البديهة ، ومخوف بأخبار الناس .

ما مرّ شخص من دكانه الا وحظي بتحية ، او استفسار عن الصحة ، او تعليق أردفه بنكتة خفيفة على القلب . ولكن العم عبد الواحد صامت اليوم سادر ، مبحر في سبعة بحور . يقبع على كرسي قديم مهترئ لا يعرف أحد لماذا يحتفظ به طوال هذه المدة في دكانه المملوء بالاخشاب الصقيلة ، والفواح برائحة السبيرتو والدملوك . العم عبد الواحد مهوم يجابه مشكلة لم يجابهها طوال حياته ، ولم يجابهها أحد من آباءه واجداده ، ولا من اقاربه الاقربين والابعدين ، ولا أحد من حيه القديم ، ولا عائلة واحدة في حيه الجديد ، في اغلب الظن . بل لم يذكر انه سمع بمثلا ، او روى احد له شيئا من هذا القبيل . . . وهذه المشكلة الفريدة العويصة ، المدوخة للرأس والمندية للجبين هي ان زوجة ابنه المتوسط الجاهلة الرعناء قد خرجت من البيت البارحة . . . ولم تعد حتى الان . لا أحد يعرف الى اين اتجهت ووارت وجهها ، ولا اين قضت ليلتها . . . وهل

ذاك هروب ام زعل واختفاء عن الانظار ، هل هو تمرد وعصيان ، ام خفة وتصرف ارعن ؟ ثم كيف تستطيع بنت مستورة ان تغادر بيت زوجها دون ان تستأذن اهله ؟

اليس ذلك عارا ، فضيحة للعائلة كلها ؟ وماذا سيقول الناس اذا سمعوا ؟ سيكون عبد الواحد المستور مضغة في افواههم ، اضحوة لمجالسهم ، تهامسا خبيثا ، اذا اجتمع اثنان في مجلس او طريق . ولهذا فهو معتكف في كرسيه الكسيح كأنه يخفي عن الانظار ، يغيب عن هذه الدنيا البتي تبدو ، في لحظة واحدة ، دربا مستقيما تسير فيه مغمض العينين ، واذا بك تفاجأ بحفرة عميقة ، وحجر عثرة كاسر الظهر والرقبة .

سحق عبد الواحد عقب سيكارته كالحشرة في طرف خشبة مهمل ، وتأرجح بين الفيظ والاساءة . لن يغفر لها لن يغفر ... عسى ان تسحقها سيارة ، عسى ان تغطس في بالوعة ، عسى ان تغرق في النهر ... عسى ... عسى ... ثلمت عرضه . وهتكت ستره . جعلته يوارى نفسه عن الناس ، وينزوي في هذا الركن لا يفكر الا بالمصيبة التي حلت به ، ويتوقى رؤية الناس خشية ان يسألوه ، وكان خبر هروبها قد شاع وعم وطبق الدرابين . ويقول عبد الواحد لنفسه : هذا ممكن ! لان الناس شغوفون باذاعة الاخبار السيئة اكثر بألف مرة من استعدادهم لنقل خبر مفرح واحد !

... الفضيحة تنتشر مثل رائحة كريهة ، مثل دخان حريق في بيت مكشوف ... بينما اذا فعلت خيرا ، لا تجد الا القليلين ممن يذكرونه .

تأفف العم عبد الواحد ، ومدّ يده وتناول علبة
السيكائر من على الارض ، واشعل سيكارة ، وملا صدره
بدخانها الجاف . تنحّض ونظف صدره ، واحس بأنه ينفث
مع الدخان هما ملبدا في صدره ، وسما كان يسري في روحه ،
حتى احس براحة خاطفة ، عندما خفف الثقل الذي يجثم
عليه ، وغاب عن الدنيا وهمومها في لحظة من السهوم
والنسيان ، فتصور ان حسية ما تزال في البيت لم تغادره ،
وان ذلك مجرد وهم ، وسوء ظن ، كما امتلا قلبه منها في
الاسابيع القليلة الماضية من رعونة وعدم اكتراث وتجاهل
للمصيبة التي هي فيها ... او ربها خرجت حقا ، وقد
عادت الان ، ووقعت على رأس عمتها لثما وتقبيلا ، مبتلة
اياها بدموع الندم والحسرة ، قائلة : « عمه ! كنت متضايقا
فخرجت اشم الهواء وتهدت في الدروب . بغداد القديمة
تهدمت ، ولم يبق منها غير خرائب . وبغداد الجديدة شوارع
يتيه فيها الناس . وداخ رأسي ، وشعرت وكأنني في ولاية
أخرى » . وللحظة يصدق عبد الواحد بهذا الهاجس ،
ويعطيها العذر . صحيح ! يقول لنفسه . بغداد العتيقة
صارت منخلا ، خرائب بابل . وانا ، في هذا العمر احس
أحيانا بأن رأسي يدور مثل البروانة !

ويتخذ تفكير عبد الواحد مسارا آخر . لعلها حنّت الى
بيتها القديم حقا . كم مرة حنّ هو الآخر الى بيته القديم ،
البيت الذي تربى فيه ، وتزوج ، وانجب ، وزرع سني
عمره في أرضه المتربة . رغم انه يقضي سحابة نهاره في
حي لا يختلف شخطة واحدة عن حبه السابق . فكيف هي
التي لم تخرج مرة واحدة خلال ثلاثة أعوام ؟ ثم يعود فيقول

لنفسه : ولكن الى اي شيء تحن ؟ الى خرابة ؟ حتى الخرابة يمكن ان تحن اليها ، اذا تركت عزيزا فيها . ولكن اي عزيز تركت حسيبة ؟ تركت ... تركت مهمتها .. او تلك التي تسميها عمه . كل شيء جائز في هذه الدنيا . ربما رغرت روحها بعد هذه السنين الطويلة ، ركبها الشوق الى حياتها الاولى مثلما يركب جني انسانا ، وخرجت لشمة هوا . كل انسان تهر فيه اوقات يريد ان يتخلى فيها عن كل شيء ، يهجر كل شيء ، يهرب حتى من جلده ، ليبقى هو ونفسه ، وجها لوجه . خرجت حسيبة من بيت عمها ، وعبرت الشارع المقابل للبيت ، وسارت في شارع مجاور . ودمجت مع نفسها ، واخذتها العرامة والضيق او تنفست رائحة زمان ، ونسيت البيت والزوج ، العم والعمه ، ونفسها ايضا . تاهت في شوارع بغداد ، كل شارع بعرض النهر . تاهت من صحيح . وخشيت ان تسأل ، ممنية نفسها ان تجد بيتها في العطفة الثانية . وبيتها يبتعد وبيتها ، ويتغلف بالطرق والمنعطفات . ربما لم تأخذ فلسا واحدا حين خرجت . حين يستبد الضيق بانسان ينسى حتى ملابسه ، ويفرّ عريان . وعندما جنّ الليل خشيت ان تعود وانهارت من المشي والتعب والجوع ، ونامت حيث هي ، كالكلبة او القطعة الشاردة . نامت تحت سياج بيت غريب كالمسولة ... كل شيء جائز في هذه الدنيا . ويحس عبد الواحد باشفاق ابوي عليها . ويزداد يقينه بانها ستعود . ربما ستعود اليه بالذات ، رغم انها لا تعرف موقع دكانه بالضبط . ستسأل وسيدلها الناس . ستأتي قاصدة اليه ، تطلب غفرانه اولا ، فهو رب العائلة . ستأتي اليه مبللة

الوجه بالدموع ، ناعسة العينين من السهر ، مغبرة
الملابس من النوم على الأرض ، خائرة القوى من الجوع .
ستأتي اليه اليوم ، بعد قليل ، الآن . وستقع على قدميه
تقبلهما ... استغفر الله ... استغفر الله .. سيقول
لها ، وامام الناس ؟ اذهبي الى البيت . وهناك سنرى .
هل يوصلك صبحي ؟ ويكتسي وجهه جهامة ، وتلتصع
عيناه بالشرر ، ويتحاشى النظر اليها .. الى كل شيء .
ينكمش على نفسه . يريد ان يخلو الدرب من الناس ، ليتم
المشهد المؤثر بينه وبين حسيبة بدون رقيب ولا حسيب .
نهى ، على أية حال ، زوجة ابنه ، عرضه . ويتأوه ،
وتأخذه شفقة جريحة . الاصبع التي تؤلك لا بد ان
تداويها . اصبعك منك ، لحبك ودمك وعظمك . ويتصورها
قريبة منه ، في هذا الزقاق او ذاك . تسير مترددة ، مذلولة
مدحورة ، خائفة واجفة ، تقدم وتحجم . تنتظر خلوة الدرب
من السابلة . والدرب لا تنقطع عنه رجل . ولكن صبرك ،
ستأتي اليك . ستأتي لا محالة . المسافة تقصر ، الدروب
تضيق . خطواتها تقودها اليك . ذنبها كالدم يصرخ طالبا
الغفران . وكان احدا اجبرها على ان تفعل ذلك . ذنبها
على جنبها . أوه ، الشباب . يقدم ويندم . وكم ارتكب من
حمقات ايام زمان حين كان شابا . كم مرة ترك دكان ابيه
والمسامير قد خرمت باطن قدميه . وقال لنفسه : لن أعود .
ولكنه عاد ، وهو رجل ، وهي بنت تحتاج الى ستر ، سقف
يؤويها . ينتظر عبد الواحد الحاج حسين في مخبئه ، على
كرسيه الكسيح متحاشيا الناس مترقبا قدومها . ويغير
النهار اثوابه ، ويتناوب الضوء والظل المساحات ، ويهتز
الهواء بالحركة والضجيج وتماوج الأصوات والروائح .

تنبه عبد الواحد على صوت :

— ابو ماجد ، هل اذهب لأجلب غداك من البيت ؟

رفع رأسه . صبيح الصانع ينظر اليه .

— غدائي ؟ ... من البيت ؟ لا ، لا ... لا اشتهي

اليوم .

وبعد دقيقة ينطن :

— خذ هذه فلوس . وتغدّ لوحذك .

لم يرد أن يعرف احد بغياب حسية . وكأن صبيح سيدخل
البيت ، ويكتشف سر العائلة . كان يريد أن يبقى ألبيت
خارج منطقة يقينه ، ليتسلى بالامل اطول وقت ممكن .
البيت اخر مرحلة من مراحل جولته بين الظنون والامال ،
لا يريد أن يكتشفها الا هو ... سيبيتها الى اخر النهار
حين يقفل الدكان ويعود الى البيت . او ربما ستأتي فضيلة ،
وتهمس له : وصلت العروسة ؟

وخلا الدكان به حين ذهب صبيح ليتغدى . وشعر
بانقشاع سحابة كانت تمتد بظلها على الدكان كله ، وتطل
عليه . صار الان مستعدا لمواجهة .. سينفذ الى اغوار
عينها ، وينتزع منها سر غيابها ، ويعرف اين كانت .
وسيجابها بوجه يتفجر غضبا ، وعينين تتوقدان نارا .
ويقول لها : ارجعي الى البيت وهناك سنتحاسب . ولا
يشفق عليها في أية هيئة جاءت . كل شيء الا الخروج من
البيت . كل شيء الا ثلب العرض . ويخذ عبد الواحد في
كرسيه وكأنه بذل بالفعل الجهد الذي ستقتضيه هذه

للواجهة وحدهما ، وجها لوجه . ويشمل سيكارة اخرى
قبل ان يفلن الى انه لم ينته من تدخين سيكارتة السابقة .
ويقول لنفسه : من الخير ان يعود الى البيت ، ويراهـ
هناك . من الخير ان تاتي الى البيت قبله . ذلك اضمن
لكتمان الفضيحة . الرجال يعقدون المسألة والنساء يتفاهمن
بسرعة . النسوان كلام وعتاب وصياح ودموع ، وقبل
وعناق ، وتسوى المسألة .

ثلوت معدة عبد الواحد من تسرب الدخان اليها ،
وهي خاوية نعصرته عصرا موجعا . اسسك بطنه بيده
البسرى ، وحاول ان يضغط على العضلات ليخمد الوجع في
الاعماق المتقرحة . ولم يوفق كثيرا . ومن خلال جرح الالم
تواردت على ذهنه افكار مؤلة أيضا . من يدري ! ربما
قابلها شاب ارعن ، واختطفها . اعوذ بالله ، اختطفها ...
سألته ليدلها على بيتها ، فدلها على بيته . اوه ، اعوذ بالله
من الشيطان الرجيم ! يا للعار ! يقتضي وطره منها ، ويلقيها
للكلاب . لا يهمه ان عائلة بكاملها تتمتع بسببها ، وشرفها
معلق بخيط رفيع . ويتصور عبد الواحد تصورات رهيبة .
وتطبق غصة على حلقومه فيحس بضيق نفسه ، وخشونة
الاصوات الطالعة من أنفه . لعن الساعة التي وافق فيها
على الزواج . كان يريد الخير . يتيمة مقطوعة يستجيرها
بيت مستور ، وعائلة منطوية على نفسها . عندما قالت له
زوجته : « فاضل شاف له زوجه بنفسه » بهت عبد
الواحد . تدلى فكه الاسفل . « اين وجدها ؟ » « في عرس
احد اصدقائه » ، « وبهذه السرعة ؟ ومن اول نظرة ،
دون ان يسأل عن اصلها وفصلها ؟ » وضحك عبد الواحد

آنذاك ، وهز رأسه من مرج حقيقي . هذا أول ابن يعلن
عن انفصاله عنه ... والان ، وعبد الواحد يتذكر تلك
المجلة التي تمت فيها الخطبة ، وذلك اللهاث الذي كان
يتردد في صدر فاضل ، وكأنه جاثع مقبل على وليمة دسمة ،
يتعجب كيف كان سلسا مطواعا ، مدفوعا بقوة أنستسلام
غريبة ، أو مرج لا يعرف مبعثه ، وكيف قال جملة النكراء
اللامبالية :

— « انت الذي ستتزوج ام انا ؟ » اعترض فقط ان
ماجد لم يتزوج قبله . ولكن ماجد كان يكمل دراسته في
الخارج ، ولا أحد يعرف متى سيعود . وهل اذا عاد تزوج
في الحال ام انتظر الوظيفة ، والزوجة اللائقة وما الى ذلك .
بينما العمال الذين يكدحون يملكون عادة رؤوسا خارة ،
وقلوبا ملتهبة . وبية الخير ومبروك والف بركة . ومن
يستر يفز بالستر ... الستر .. الله اكبر ! ويختنق
عبد الواحد ، تنقطع انفاسه في صدره ويتحشرج دخان
المسيكارة . ويلهث وكأنه حامل طنا من الخشب .

— ابو ماجد !

انتفض جسمه كله على هذا النداء . وللحظة قصيرة
تصور ان شخصا غريبا جلب حسيبة معه الى الدكان .
رفع رأسه وفتح عينيه واسعتين وكأنه يريد ان يستوعب
المشهد كله دفعة واحدة وبلا مفاجآت كثيرة . الطامة الكبرى
تهبط دفعة واحدة . لم ير حسيبة ، بل رأى شخصا يعرفه
يسد الدكان بظله الاسود ، وصبيح وراءه .

— ابو ماجد ، اراك مخطوف الوجه ، هل انت مريض؟

— لا ، لا ، أبدا

نفى ذلك بحركة قوية مرعوسة من جسده كله .

— لملي قطمت عليك افكارك .

— لا ... غفوت قليلا .

عادت اليه حواسه شيئا فشيئا . نهض من كرسيه متثاقلا موجع المفاصل ، وخرج من الدكان ، ونظر عن يمين وشمال . ثم وقف امام الرجل صامتا زائغ البصر .
بادره الرجل :

— ابو ماجد ، هل تريد خشبا ؟

— أي خشب ؟

— معاكس .. اليوم رايته في السوق .

— والله انا محتاج اليه .

— اذهب الان ، قبل ان ينفد . هذه الايام لا تبقى
الحاجة في السوق اكثر من ساعة واحدة .

ودء لو يذهب الى السوق حقا . سرت فيه خفقة من
حيوية ، سرعان ما همدت . وعاد اليه شلله ، واستسلامه
الى الانتظار ، ووجهه .

فتحت له ابنته باب الحديقة حين سمعت حركة
سيارته . ادخل « البيك اب » في الممر المسقف بالسواح
جديدة صنعها هذه السنة ، ولم يصبغها بعد لتتسلق عليها
في الصيف اغراس العنب الفتية . سمع دقات قلبه حين
اطفا المحرك مثل مطرقة مكتومة الرنين تدق في الصدر .
جلس لحظات ينتظر ان تغوص المطرقة في اعماق الصدر ،
ليفرغ بكليته الى ما يجري داخل الجدران التي بدا جوفها
اسود غريبا عليه . وقفت ابنته تنتظره . أحس بأنها

تراقبه . نظراتها تتشبث به متسائلة مستغربة هذا الهمود
الغريب عليه . لم يرد ان يبدي خورا امامها .

فتح باب السيارة ، وقال :

— فضيلة ، تعالي خذي الخس من السيارة .

ونزل بتؤدة رصينا باردا ، كان الزعازع لم تعصف في
نفسه اليوم . رمق الحديقة بأزهارها النامية ، وشجرة
النارينج المستنبطة . وقال في نفسه : تحتاج الى رعاية .
كنت اتصور ان ماجد ، عندما سيمود ، سيهتم بها ،
ويرعاها . هو الوحيد الذي يحب الزهور والرياض ،
ويهم برائحة القداح ، ويشتهي النوى الحامض ،
وهو اخضر . ولكنه عاد وكأنه لم يعد الى اهله . اشعل
عبد الواحد سيكارة ودخن محدقا في اركان الحديقة
الصغيرة ، قاطعا بقسوة شرائط الصور التي كانت تتابع
على ذهنه ، مطيلا اهد ما ينتظره من مفاجأة في بيته . هل
عادت ام لم تعد ؟ عادت . لم تعد . عادت . لم تعد . وقذف
بالسيكارة دون ان يطفئها حائقا على نفسه ، وعلى تشبث
الوساوس فيها .

ودخل البيت . لمح زوجته جالسة وحدها على الاركة
في غرفة الجلوس الى اليمين . التقى عليها : « ها ! » عابرة
قصيرة لا ابالية كمن لا يريد ان يقول شيئا على وجه التعيين
سوى انه قد حضر . وتردد بين الجلوس ، والاعتسال ثم
اتجه الى المفصلة تحت الدرج المؤدي الى الطابق الثاني
حيث ... وغسل يديه ببطء ممل ، محاولا ان يلتقط جوابا
لما يدور في خلد الان ، يخربش في صدره كالقار الحبيس .
وارهف سمعه الى حد التوتر . لا شيء غير طقطقة خفيفة

في المطبخ . فرك عبد الواحد يديه ، وسكب الماء على وجهه ،
وشمله صوت الماء المسكوب ، واخفى عنه العالم المتوجس
الصامت لحظات . نشف وجهه ويديه واتجه الى غرفة
الجلوس ، دون ان يعرج الى المطبخ على عادته ليداعب
فضيلة بسؤاله المعهود : « ماذا ستطمهيننا مما رزقك الله؟ »
راى زوجته جالسة جلستها المعهودة . عندها راته انزلت
ساقها من على الاريكة . كانت هذه الحركة اكراما له ، لانه
كان يعمرها بانها ما تزال تحن الى الجلوس على الارض ،
وزوجها صانع موبليات ممتاز . جلس صامتا على الاريكة
قبالتها . ورمقها بنظرة خاطفة في الضوء الشاحب ليعرف
ما تنبىء به قسماتها . لا شيء غير التوجس الحذر ، والتكتم
الوجل .

ربما لا تريد ان تقول له بنفسها شيئا ، بل تنتظر ان
تدخل الشريدة العائدة ، وتعلن عن ذنبها ، وتطلب الغفران .
تقع على ركبته بالتقبيل ، وعلى رأسه باللمس . ولم يفتح
عبد الواحد فمه بكلمة ، منتظرا تلك اللحظة ، مبنيا نفسه
بها ، ستأتي الان ، من المطبخ . او يسمع وقع اقدامها ،
وهي تهبط الدرج قادمة من غرفتها في الطابق الثاني .. ام
لعلها تخلف ؟

ماذا ستقول له ، وكيف ستواجهه ؟ ويطول الصمت ،
ولا تأتي المفاجأة . والبيت يخيم عليه صمت القبور . صمت
ينخر القلب ، ويشل المفاصل ، ويذهل الفكر .

دخلت ابنته وقالت :

— هل اصيب العشاء ؟

لم يرفع اليها عينيه ، بل قال باسترخاء .

— انتظري ... اريد ان استريح .

وكأنه يتوسل اليهم ان يشفقوا عليه ، وينبئوه بالخبر
اليقين ، ولا يتركوه يتأرجح في فراغ الظنون . ثم قالت
زوجته بلهجتها الناعسة الباردة :

— اليوم لم يأت صبيح ليأخذ غداك .

— ذهبت الى السوق وتغذيت هناك

— بقينا بالوسواس .

— على أي شيء ؟

— كل شيء يجري في هذه الدنيا .

— الذي يجري يجري . فضيلة ، اعطيني ماء لاشرب .

قال ذلك مجاريا اياهم بلا مباليتهم المفتعلة هذه ،
بصمتهم الموسوس . لا شيء جديد ، اذن . البيت كما
تركه في الصباح . لم تعد الزوجة الهاربة ، البنت الشقية
انتي رفضت الدفء العائلي ، والسقف المأمون ، وهامت في
الشوارع مع القطط والكلاب السائبة . وأحس عبد الواحد
براحة حزينة . واطلق نفسه من اثار الصمت الابله الذي
وضع نفسه فيه خائبة مدحورة . راح يتحدث مع زوجته
عن غلاء اسعار الخشب ، وتقلبات السوق ، وانعدام
المراد .

— لا يلحق النجار ان يأخذ شغلة بسمر معين حتى

يرفع التجار سعر الخشب مرتين ، ويخسر الصفقة .

— ماكو حكومة تحاسبهم ؟

— يا موسى انت وربك .

وأسته بكلمات مبهمه فارغة لا تساوي الجهد الذي
أنفقته عليها . فأحس هو الآخر بأن كلماته أفرغ من كلماتها ،
وأنه ، بذلك ، يلعب لعبة خائبة لا يستدر بها أي تجاوب ،
ولا ينفذ الى ما في القلوب . نادى ابنته لتجلب له العشاء
كأية الهية يستعيز بها عن زم الشفاه . ألا أن فاضل جاء
بعد اللقمة الثالثة . جاء رث الهيئة ، مسود الوجه ،
متعثرا ، متخلخل الحركة ، مهزوز الذراعين كأنها فقد
السيطرة على اعضائه . وسلم سلاما باردا رخوا ، وطاف
في الوجوه بنظرة زائفة لهفى ، وفي ملامح وجهه المغيرة
خزع وانقطاع وتيبس . كأنه يسأل : ها ؟ هل جاءت ؟
تجمدت نظراته المتسائلة في الجو مثل قطرات دموع ،
واشعره ذلك بالوحشة وفراغ القلوب ، فابتعد عن الغرفة
والجالسين فيها ، وصعد السلم بخطوات مسرعة ، واختفى
في العالم المعلق هناك . شعر عبد الواحد بأن فمه يجف ،
واللقمة تفقد عصارتها . كانت نظرات ابنه الجليدية تحمل
تحديا قتالا ، استهانة ، عدم اكتراث كافرا ، كأن البيت خلا
من اهله ، ولم يبق الا الشيطان المتمثل في الاب ، فيه ،
قابعا مكسور القرنين .

نبعت من أعماق عبد الواحد نقمة شديدة توترت
كالقوس ، ظلت تتوتر في أعماقه دون أن يعرف الى من يوجه
سهما ، حتى استقر على حسيبة ، الشريدة الكافرة
بالنعمة . قال مثلوم الصوت من الاساءة البالغة :

— حسيبة نغصت علينا عيشتنا .

والقى الملمعة من يده ، وعاف طعامة باحثا في جيبه
عن علبة السيكاثر . رفعت زوجته اليه عينيها مكلومتين

خاليتين من البريق ، ولم تقل شيئا بل غرت من وضع
ساقيهما المتدليتين على الاركة ، وكأنها تعلن بذلك عن
طواغيتها له . عاد عبد الواحد يقول :

— لا اعرف ماذا فعلنا لها حتى تكفر بالنعمة .

وجوبه بصمت ايضا . كان البيت كله ، بيته هو ،
انقلب الى مؤامرة صمت ضده . صار ينفث الدخان بأنفاس
متتالية وكأنه يطرد أشباح السكون المخيم على البيت
المنجوع . ثم سمع ددمة من اقصى البيت ، من الطابق
الثاني ، من أعلى الدرج ، ثم طبطبة نعال على الدرج
مصحوبة بولولة مخنوقة . صاحت الام :

— فضيلة ، ماذا جرى ؟

— فاضل لا يريد ان ياكل ، ولا يريد ان يبادلني كلمة
واحدة . كأنني انا التي طردتها . ما دخلي في الموضوع ؟
واجهشت فضيلة تبكي في الصلاة ، وطاق صوت البكاء
في ارجاء البيت حتى استقر في المطبخ ملاذها الدائم . ومن
هناك تواردت الكلمات الناجبة كالتوسلات :

— كنت اطعمها واغسل ملابسها ، كنت ..

وترامت جهشات متقطعة شجية . ذهبت الام
لتواسيها .

ولولة وبكاء . استرضاء ونشيج . همهمة حشرات .
عجيب ان هذا البيت انقسم الى عوالم صغيرة ، مفصولة
عنه ، عن عبد الواحد . كان كجرة ماء عذب المذاق ، فاذا
بها تتشم قطعاً ، وقحوفا تتناثر في الاركان . ويحس عبد
الواحد بأنه « قحف » مرمى في غرفة الجلوس ، مهمل لا
يعبأ به احد ، وأنه قد سلب اعز ما لديه ، بيته الذي بناه ،

العائلة التي انشأها ، الابناء الذين رباهم ، الزوجة التي
خدمها مثلما خدمته . كلهم ابتعدوا عنه ، وتركوه وحيدا
معزولا . ضاق صدر عبد الواحد ، وضرب ذراع الاريكة
حنقا . ونهض دون ان يمر فماذا يفعل ، ولا كيف يتصرف .
هل يغادر البيت مدحورا مشردا ؟ هل يذهب بنفسه الى
النسوان يختلس السمع اليهن ، ويتراضهن ؟ هل ...
وفجأة رأى فاضلا امامه . لا يعرف كيف هبط ، وانشتل
امامه . كان يواجهه بنظرة خاوية نكراء وكأنها يئس من
أبوته كليا ، أو كان هذا الواقف امامه عدو متكرر له .

قال عبد الواحد في عتاب جريح :

— بابا ، ماذا فعلنا لك ولزوجتك ؟

صمت فاضل ، وكأنها فرغ فكره من كل شيء . جمود .
ذهول . لا ابالية . وعاد الاب يقول :

— قل لي ، ماذا فعلنا لك لتمتنع عن الطعام ،
وتحاطعنا كالجرب ؟

— بصوت أجوف لا حرارة فيه :

— لا ، لم تفلعوا شيئا .

— ماذا إذن ؟

— مجرد انكم جعلتموها تهرب

صاح عبد الواحد :

— ماذا ؟ جعلناها تهرب ؟

اكتسب صوت فاضل شيئا من الحرارة :

— نعم . غادرت البيت بسبيكم .

— يا عالم ، يا ناس ... بسببنا ؟

— نعم ، بسببكم .

- ماذا فعلنا لها ؟
- كان بإمكانكم ان تكفوا عن مناكفتها .
- ناكفتناها !
- أنا راض ، فلماذا تتضايقون انتم ؟
- تقصد تلك المسألة ؟
- نعم .
- ولكن هذا يخلصنا بقدر ما يخلصكم .
- انا قنعت بنصيبي .
- والناس ماذا تقول ؟ فاضل عبد الواحد ...
- انا تزوجت حسيبة ، وليس الناس .
- وراء هذا الإصرار البارد ثقة لحنة تلتوي ولا تنكسر .
 من اين يأتي الشباب بعناد الخروف هذا ؟ كظم عبد الواحد
 الغيظ في نفسه . ونظر الى الشاب الطويل القامة الوديع
 على كل ما فيه من عناد ، يستدر العطف دون ان يستجديه .
 ام هي الابوة توحى له بذلك ؟ كان وجه فاضل هادئا ناضبا ،
 كأنه فرغ لتوه من نوبة بكاء . وكان يقف امامه متهينا لكل
 شيء ، فاقدا كل شيء ، عرضة للاذى والانكسار . جاءت
 الام ووقفت وراءه . الاصل والصورة . الرحم والنفطة .
 وكلاهما خارج ارادة عبد الواحد .
- قالت الام :
- ستاتي . انا واثقة من انها ستاتي . ياما زعلت ،
 للممت حاجاتي ، وذهبت الى اهلي .

— وهي ، من عندها لتذهب اليه ؟

— لهذا يجب ان تطمئن اكثر .

— لا اظنّها ستعود .

— سأقص شعري ، اذا لا تعود .

قالت امه ، وهي تحاول ان تتلمسه . نظر اليها ،
وكانه ليصرف مبلغ جديتها . عادت امه تقول :

— لن تجد احدا يؤويها فستعود .

وللحظة استوعب فاضل عمق الهوة التي القت حسية
نفسها فيها ، وهي بلا بيت ، ولا اهل ، ولا صديقات . ولانه
تصورها تهيم في الشوارع الان ، هفا هو الاخر الى الشارع .
التي نظرات شاردة الى امه وابيه ، وصينية العشاء
المتركة ، وباب البيت المغلق ، واطلق زفرة حبسية ،
واتجه نحو الباب .

توسلت امه اليه :

— تعش .

— لا احس بجوع . اريد ان اخرج .

— تعش واخرج .

— البيت الذي لا يضمني معها موحش كالتبر .

وغادر البيت بخطى مرتبكة .

ظل عبد الواحد معتكفا في غرفة الجلوس المظلمة
وقتا طويلا منفردا بنفسه ، مقطوعا عن اهله ، حتى تعب
من جلسته الضائعة المتخدره ، وكأنها سجدة غير مريحة
كان يمني نفسه بانه اذا رفع رأسه منها رأى معجزة . غادر
بفكره بيته الى بيوت ودروب واناس ظلوا يبرزون من شباك
مخيلته الرمادي ، ويتبادلون معه جملة او نظرة او ابتسامة ،

ثم يتركونه حجرا ملقى على قارعة الطريق . كانوا يأتون
بلا ترابط وبلا معنى من أماكن مختلفة ، وأوقات متباعدة ،
بأصواتهم وروائحهم وهيئاتهم التي لا تخطر على باب :
متزاحمين متداخلين عجالي مهزوزين ، يشيرون إشارات
مبهمة الى وقائع واحداث حقيقية او محوِّرة ، ثم يتلاشون
كالاطياف ، يتلعمهم ظلام الغرفة الهش .

تنحنع عبد الواحد ، وهز رأسه ونادى :

— رباب !

خرج صوته متحشرجا قبيحا في الصمت البارد . ولم
ترد عليه زوجته . الغرفة خالية . ومن جهة المطبخ كان
يتسلل ضوء شاحب ، لا بد انه ضوء المصباح الاضائي
فوق مفصلة الاواني في المطبخ . نهض عبد الواحد ، وحاول
ان يتجاوز المطبخ ، حيث تكدح ابنته كدحها الابدي ، لكنها
سبة لوجوده كله ، كفران بهاله وجاهه وشرفه . خشي ان
تبادره بكلمات جريئة . فان كلماتها اخذت تكتسب معاني
العتاب والعذاب . انعطف ليدخل حجرته . كان مصباح
النوم الهزيل مضاء فوق الباب . يعني ان زوجته نائمة ،
او توشك ان تنام . رآها مكورة على السرير سائدة رأسها
على يدها المعكوفة .

— تصورتك نائمة ، فخفت ان اوقظك .

— لم اتم ، بل تهت في درابين الدنيا .

راح يخلع ملابسه بفتور ، شاعرا بالالم الذي تتركه
الحركة في مفاصله ، بعد تلك الجلسة الطويلة غير المريحة
في وضع واحد . ادخل جسمه في « دشداشة » مقلية زرقاء
فضفاضة ، وانسل الى السرير جنب زوجته . واستلقى
على ظهره . وسمر بصره في السقف . كان مظللا بخطوط

مسوداء دقيقة في بداياتها ، عريضة في نهاياتها . تشكلها
الغمامات ظليلة الصباح المكسورة . تذكر عبد الواحد سقف
التخجرة التي كان يسكن فيها مع زوجته في بيته القديم ،
في حي من احياء الرصافة العريقة ، أيام كان يضع يديه
تحت راسه كما يضعهما الان ، ويفكر في شيء وقع له في
أنتهار البارح ، ويخطط للنهار المقبل . كانت روافد سمراء
مسودة بعضها معكوف ، وبعضها ذو عقد ، ترفع الحصران
والتراب والطين ، الملقاة فوقها ، وتلوح له في صور شتى
تنبها للفكرة التي كانت تراود ذهنه . مرة يتصورها قضبان
قفص لحيوان محصور فيها ، ومرة يرى فيها أضلاع شيخ
مجنون انهكه اللغب في الركض وراء اللقمة ، ومرة قصبات
« كلبدون » وحلة ضخمة لصاحب جاه ، او حتى خطوط
« عرقجين » على رأس ضخيم يستوعب الدنيا وما فيها .
ذلك سقف بيته القديم . اما هذا السقف ، فان طبقة الجص
الصقيلة تخفي اضلاعه الحديدية المستقيمة التي تثبت الاجر
الحقيقي المفخور ، اضلاع مخفية خلف طبقة من السمنت
والجص الابيض ، ولكنها اضلاع لا تتنفس صها بكماء ،
مثل اية قطعة من الاثاث تحويها هذه الغرفة ، الاثاث الذي
صنعه بيديه من خشب جيد ، وفق احدث طرق صنع « مال
بيات » ، اذ ليس له بعد الان « بيته » اخرى !

السريـر العريـض الذي يسع لاربعة اشخاص يحس
به وكأنه غارق بعيد حتى عن انفاس زوجته التي تعود عليها
اكثر من ثلث قرن ، والدولاب العالي اللامع ذو المراآتين في
قفا البابين ، ونصف طقم جيد ومهمل كانت زوجته تخاف ان
تجلس على اريكته فتدعك قماشته السمينة الزرقاء المحببة .

كل شيء في هذه الحجرة جديد ومتين وفاخر وبلا ذاكرة .
لا يذكر عبد الواحد الا بالتعب الذي انفقته في صنعه ، الا
باللهات الذي لهته ، وكأنا حمله على ظهره ، عبر جسر
الاحرار الى هذه المنطقة الجديدة من الوشاش . ربما
سينكره في هذه الليلة التي سيقضيها مسهدا .

ادار رأسه عن السقف . رأى زوجته ما تزال تسند
رأسها على يدها المعكوفة تراقبه . كانت تراقبه بصمت .
تتابع توثبات فكره ، تتسمع الى همس افكاره .

— لا أراك ستنام الليلة . ماذا حصل ؟ انقلبت الدنيا ؟
امسكته من موضع موجه .

— هل تتصورين انني افكر فيها ؟ لا ، بل تذكرت
بيتنا القديم .

— بيتنا القديم ؟ نعم ، كنا في وسط الدنيا .

— أما تزالين تحنّين الى بيتك القديم ؟

— وكيف لا أحن ؟ على الاقل وضعت فيه اولادي .

تأفف عبد الواحد ، وقال براحة ضمير :

— عملنا الذي علينا . هذا هو المهم .

انجذبت معه زوجته :

— كل ولد عمر .

— تاريخ ! ألم تكوني تؤرخين كل بطن لك بتاريخ ؟
نسيت بم أرخت الذين رحلوا ، وهم صغار او رضع .
ولكنني ما ازال اذكر انك ارخت لماجد بوفاة الملك غازي ،
وفاضل بحركة رشيد عالي ، وفضيلة بالسنة التي انكسفت
فيها الشمس . ختمت عليهم بختم التاريخ .

تفلسفت زوجته :

— الله الذي ختم ام انا ؟

— سواء هو او انت او انا . المهم ختم .

تاوهت الام وقالت :

— انا لا آسف الا على فضيلة . جرح قلبي . كم

مبار عمرها !

— ماذا بيدي ؟ لو كان ...

واطبق فيه على الجملة التي همّ بأن يقولها . اليس

عائرا ان يتحسر والد على ابنة له لم تتزوج بعد ؟ عاد فقال

بسخرية حزينة :

— شمس مكسوغة .

— تظل تربية البنات اسهل من الولد — قالت زوجته

بحكمة رصينة — الولد ما ان يشبوا حتى ينسوا الاول

والثاني . ولا تقدر عليهم .

كان بوده ان يوافقها ، تسرية لها على الاقل ، فهي

ترى في فضيلة عقد القلادة . ولكن الكلام سيجره الى التفكير

في فاضل ، وهذا ما يؤله . فصمت ، الا ان شبوح فاضل

ترأى في خياله في وقفته المتردة تلك ، حين كان يرمق باب

البيت كالطائر الحبيس . ووجد نفسه يفكر في فاضل .

امن المعقول ان زوجته احب اليه من امه وابيه ؟ امن المعقول

انه عاشق الى هذا الحد ؟ لا يعرف عبد الواحد من ابن

سمع : المرء يعشق امرأة ويتزوج اخرى . فهل من المعقول

ان يعشق المرء زوجته ؟ ووجد نفسه ينظر الى زوجته .

هل من المعقول انه يعشقها ؟

— ها ؟ اراك تنظر الي ؟

ابتسم في الظلام .

— هل تريدان الصدق ؟ فكرت في فاضل .

— وهل تتصورني لم افكر فيه ؟

— فاضل يختلف عن اخوته .

— اخاف شامم قنفذ مرة اخرى ؟ هل تذكر يوم شم قنفذا وهو طفل ؟ كل الاطباء قالوا لي : ارميه بالشط . لا فائدة ترجى منه . كان يذوب بين يدي ، ويتحول الى عظام . ذهبت الى الكاظم انخوه . رأنتي عربية احمله في اقمطه . فقالت : هذا الجاهل شامم قنفذ . اسقيه ماء قنفذ وسيمعيش . نزلت من « الكاريات » في « الايل » ، ورجوت ان يصاد قنفذ . وبالفعل اصطادوا قنفذا ، وذبحوه ، وسلقوه ، واشربته ماءه . وعند المغرب دبت الحياة فسي فاضل ... ومنذ ذلك اليوم ، وهو عايش .

— انا لا افكر في هذا . افكر في شيء آخر .

— ما هو ؟

— اعتقد انه عاشق .

— كل شيء يصير . لا يوجد مرض لم يتهرض فيه .

هل تذكر ؟ ذات الجنب ؟ مرتين تحملها .

جاراها في تفكيرها :

— لا يشبه اخوته على الاطلاق . خارج على النظام دائما . في المدرسة لم يتعلم غير سنتين او ثلاث ، في النجارة تركني واشتغل في مكان اخر ... وهذا زواجه ..!

وتلاشت نفحة المرح التي هبت على قلب عبد الواحد

لجظة ان فكر في العشق . وعادت المشكلة تجثم على صدره
بكل ثقلها .

قالت زوجته وكأنها تتابع تفكيرها الصامت :

— لا تغتم ! اين سيذهب فاضل ؟ سيعود آخر الامر .
وسفسري عنه . واذا كان يريد حسبية ، فانا وانقة من
انها طلعت زعلانة وستعود ... لنفكر في اولادنا الاخرين .

— لم يتعبنا واحد من ابنائنا مثلما اتعبنا هو ، لان
المسألة اذا كانت تتعلق بالفلوس تنقضي ... اما بالهوس
فلا احد يعرف نتيجه الا الله ... خذي ، عندك شامل ؟

— رجعنا على شامل .

— انت التي فتحت الموضوع .

— شامل ذكي .

— اعرف انه ذكي . ولكن ماذا سيطلع ؟ جعفر لقلق
زاده ؟ مالنا والمسرح والتثيل ؟ نحن اناس مستورون . ولكن
الهوس ، اذا ركب انسانا ، فاغسلي يدك منه .

— وماذا حصل ماجد ؟ حياته كلها قضاه بالدراسة ،
هنا وبأوروبا . والان شايل أوراقه ، ويدور على وظيفة ...
عرضحال وراء عرضحال !

— لا نتحدثي عن ماجد ، انه شاب جدي ، صاحب
مبدأ . عندما تخرج من الثانوية ، وسقط بفحص العيون ،
قلت : يا ولدي ، تعال نعمل واسطة . قال : لا ، والشهادة
هذه لاي شيء ؟ امسح بها الشيطان ؟ ومثلما قلت لك :
اذا كانت القضية قضية فلوس تتدبر . ودبرت الفلوس ،
وارسلته الى الخارج ... وها هو قد عاد يحيل شهادة على

اية حال . اما الهوس سواء اكان على امرأة او حتى على
حصان بالريسز فاعوذ بالله منه .

— هل تتصور انه عاد ؟ ومظما كان في الاول ؟ لعلك
لا تراه كيف يلهم نفسه منا ، كان البيت غير بيته . ربما
ترك عقله هناك ؟

— انا لا اخاف على ماجد . ماجد لا يخيب ظني .

— الله يسمع منك . ولكني اراه كالمخطوف .

— سيعود . الانسان يروح للحج ، ويغيب شهرا ،
وعندما يعود يرى الدنيا غير الدنيا . فكيف اذا غاب خمس
سنين ؟

— وهذا الذي يكتبه ؟

— ماذا يكتب ؟

— وهل انا اعرف اقرا ؟ كلها اصعد الى غرفته اراه
يكتب بأوراق ، وليس بدفتر . اخاف ان يكتب رسائل
للمحبين ؟

— لا تخافي على ماجد .

— الله يسمع منك .

— نامي .

— راح انام .

— تتصورين راح يطولها فاضل ؟

— سيتعب من المشي ويعود . ؟

— اخاف عليه .

— لا تخف عليه .

— نامي .

- ٢٠ - راح انام . انت لم تسأل عن شامل .
- ٢١ - وادار ظهره لها .
- ٢٢ - لا تخافي عليه .

وقال لنفسه : لا أظنها تحب ابناءها على قدر واحد ،
 ويحل اسنان المشط . مع انهم خرجوا من رحم واحد . انها
 تحب شامل الصغير اكثر ، يزر القعدة ، ويزر الشيب .
 تخايبه وتدله وتدافع عن تصرفاته ، وتقول هو الذي
 سيقى عند رأسي على فراش الموت ، بينما هو ، عبد
 الواحد ، لم يجد اشارة واحدة على أن شامل يحبها ،
 وسيفعل ما تحلم به . شامل لا يحب أحدا ولا يهتم شيء
 مما يجري في البيت ، وكأنه لا يحس بوجود احد الى
 جانبه ، هائم شائع فيها ، كلما أراد عبد الواحد أن يتقرب
 اليه ، ويجد مدخلا الى قلبه زأغ أو تقوقع . وهذا ما يغيظه
 منه . يمكن ان يستغني عن اهله بسهولة ، وينفرد لنفسه .
 بعكس ماجد . بلغ الثلاثين او اكثر ، وهو ما يزال مرتبطا
 بابيه ، يعامله بالحسنى ، ويجد الكلمة الحلوة على لسانه
 ليقولها له . وماذا يريد الاباء من ابنائهم غير ذلك ؟ لا اظنه
 سينسانا في شيخوختنا ، لا اظن ! ماجد حنون ومؤدب لم
 يقطع رسائله اسبوعا واحدا ، عندما كان في اوروبا ، ولن
 يقطع بنا اذا صار في وظيفة . ماجد رأس القلادة ...
 ابو ماجد !

ماجد قامة مشوقة ، وعينان ذكيتان ، وجبهة صافية .
 تراعت له خلف جفنيه المطبقين . فقط ان لا يعيد سيرته
 الاولى ، ويجنب نفسه وايانا المتاعب .. هذا الذي أريده
 منه . والا فهو ذكي وصاحب معرفة . ونخوة وعرفان

بالجميل . لا يركب رأسه مثل اخوته . لا يخاف عليه ! يعني
مأمون الجانب مستقيم . وشامل أيضا لا يخاف عليه ، يعني
شيطان ، يعرف كيف يطلع رأسه ... اما فاضل ؟ ويلي ،
فاضل ! فاضل مظلوم . وكان عبد الواحد يشفق عليه
اشفاقا لا يعرف كنهه او لا يريد ان يعرف كنهه ... كلما
مضى يفكر فيه ارتد واحجم عن التغفل ، مخافة ان يمس
جرحا موجعا . والان ، كان يقول لنفسه ، لأول مرة ، في
لحظة من تلك اللحظات التي يقترب فيها الانسان من التوحد
مع الشخص الذي يحبه : « فاضل صورة مني » . كنت
ساكون مثله لو ركبت رأسي مثله ، وتركت دكان أبي ،
واشتغلت صائعا عند خضر عباس ... كنت ساكون
مثله لو ركبت هواي وجاريت قلبي ... وتزوجت « نعيمة »
... اي ، نعم ... فاضل جزء مني ، من الاشياء التي
اردت ان اقدم عليها ... من شبابي ، من الاغلاط التي
همت من ارتكبتها .

سمع تمنة وراء ظهره . اذار جسمه قليلا ، وهاء
منسائلا . همت زوجته :

— هذا شامل . جاء .

— وماجد ؟

— جاء قبل شوية ... سمعت صوته من المطبخ .

— نامي .

وحاول هو ان ينام . كان تعباً يثقل قلبه شعور
غايض بالذنب ، وبمسؤولية جديدة ، وعباء جديد . وكأنها
ارتد سنين طويلة الى الوراء ، أيام كان عليه ان يحمي
اولاده ، ويذود عنهم الاذى . وكان يود أن يفرق في لجة النوم

لينسى وليستريح ، ويستقبل صباحا جديداً حلالاً للعقد .
ولكن النوم لم يراوده . ظلت تتابع عليه موجات وموجات
من الافكار الطيفية المجسمة ، اشباح تتراكم امام ذهنه ،
رؤى غامضة عجلى ، ظلت تتجدد ، وتكتسب ألوانا
غامقة ، وتحرك بانسياب ، وتؤدي حركات وهمهمات
واشارات . صور وراء صور . فيتخيل انه يجلس جلسته
الاولى في دكانه ، والرجل يخبره بوجود خشب في السوق ،
وحين يرفع بصره اليه ، يلمح حسية تختفي وراءه ... رفت
عباءتها سوداء مثل جناح غراب ضخم ، ولملت عينان غير
مريحتين . ورأى فاضلا يحمل كيسا كبيرا اشبه بالخرج ،
وماجد يخلع سنا له على مقعد طبيب أسنان . ومرقت
« نعيمة » هذه المرة ، وانزوت على بعد خطوات من دكانه .
وكان يحس بثقل وجودها ، ويريدها ان تذهب ... كانت
تشتبك بشجار عارم مع اشخاص في الجانب غير المرئي له
من الشارع . ودّ لو يتحرك ويرى ، ألا انه كان كالمقيد في
كرسيه ، لا يستطيع عنه فكاكا . والاصوات تتوارد عليه
مبحوحة مكتومة ، تضطرب مثل خفقات اجنحة ، وكركة
اقدام تريد الفرار . وشوشة حارة حقيقية قريبة منه ،
تضايقه . تصارع مع جسمه الثقيل . حرره من اسار
النوم . فتح عينيه ، رفع جسمه على ذراعه . رأى زوجته
تدخل الغرفة ، وتغلق بابها .

— ماذا حصل ؟

— لا شيء .. نم !

توقفت اليوم عند البقال في بداية الشارع الموصل الى بيت ابي ، وشربت زجاجة « سيفن » ، ثم عن لي ان اشترى بعض الاوراق ، وظروفا لاكتب رسائل الى اصدقائي في المدينة التي درست فيها . ولما خلوت الى القلم والورق حزت لمن اعنون الرسائل . ولما استقر رأيي على الزميل الذي كان يشاركني الغرفة ، واشرعت القلم لاكتب ، تحيرت ماذا اكتب له . بعد التحيات والاشواق توقف القلم ، ولم يجر بكلمة واحدة . مزقت الورقة ، وبدأت اكتب ، لا على التحديد ، كلمات غير معنونة لاحد . ثم مزقت هذه الورقة ايضا ، وبدأت بداية جديدة ، لنفسى هذه المرة .

لم يحدث شيء طيلة الاشهر الثلاثة التي قضيتها في بغداد . ما زلت عاطلا عن العمل ، اتلمس سبيلي عبر شوارع ودروب تبدو غريبة عليّ ، آتعث في ارضفتها المحفرة ، وغير المستوية ، واخجل من النظرات اذا صوبت اليّ ، واخشى ان يبادرنى احد بسؤال او استفسار ، فيظهر جهلي واغترابي عن المدينة . عدت فرايت أهلي قد انتقلوا من بيتهم القديم الى بيت جديد ، في منطقة جديدة عليّ . انا اذكر الوشائس كم منطقة نائية كنت الجأ اليها ايام كنت اهرب من مدرستي الابتدائية ، فأتية بين السكك

الحديدية واتسكع بين الباعة في ساحة السكك . اما الان
فهي منطقة خطت فيها شوارع ، وبنيت دور . الا ان
عربات النفط ما زالت تسير هناك توزع النفط على البيوت ،
وما زال باعة السمك الميت والعربات المحملة بالخس ،
وعربات البرتقال المغلف بطبقة رقيقة من الغبار ، والشمس
تملا الرحاب بوهجها المستعر ، والسيارات منطلقة على
الشارع الاسفلتي تثير الغبار ، والصبية يتراكمون على
الارصفة الترابية ، ويثيرون الغبار أيضا ، والسماء صافية
ومسنة عميقة الزرقة ، والخضرة مغبرة متهافئة كسول .
يموز طفولتي الماضية رايتها منتشرة على بقعة إنظف
وأوسع ، مثل معروضات متبقية من متجر كان عامرا بالتحف
والتذكارات . لم تبادرني بالحوار حتى الان . كانت تحيا
حياتها الخاصة في غيابي ، وما تزال تحيا حياتها الخاصة في
عودتي . ولم تحدث نقطة تماس .

اشعر بالخواء رغم كل مظاهر المحبة والعطف . يبدو
ان العطش العاطفي القديم ما زال يلazمني . لقد حملته
معي في الغربة ، وجئت به كاملا غير منقوص . في السنة
التي سافرت فيها الى الخارج وما قبلها وما بعدها بقليل
تقدر العراق عدد لا يستهان به من الناس ، لم يكن التزود
بالعلم واكمال الدراسة الهدف الوحيد في تركهم الوطن .
لقد حملوا ، مثلي ، جوعهم العاطفي معهم الى الغرب
والشمال ، وابانوا عنه بكل خلجة من خلجات انفسهم ،
بل لازم بعضهم ملازمة المرض العضال ، وفتك بهم فتكا
ثريما . اعرف شخصا في المدينة التي درست فيها ، وهو
رجل تجاوز الثلاثين ، ركع امام الفتاة التي تعرف عليها ،

وقال بلهجة نادرة : « فدى لك كل سني عمري الماضية .
سيدتي ، انا اولد من جديد على يدك . فاراني بهذا الرضيع
انجائع الى حناك . مري افدك بنفسي وما املك » . ولم
يكن يملك شيئا كثيرا يقايس به ، فعكف على الخمرة .
واعرف شخصا اخر كان ينفق كل دراهمه على لقاءات عابرة
مع فتيات ، ويظل صائما عن الطعام في اغلب الاحيان ،
متصورا انه شعبان الى حد التخمة ! واعرف شخصا
ثالثا احب مدرسة اللغة ، وهي امرأة متزوجة ولها اولاد ،
وعرض عليها ان تترك زوجها ، وتعيش معه . وهدد
بالانتحار . وبالفعل سار في طريق الانتحار البطيء . اعرف
اشخاصا خلقوا من جديد ، واشخاصا جفوا قلبا ومكرا ،
واخرين خدروا جوعهم بتوجيهات قذرة من الجنس ، والخمرة ،
تذكروا لكل ما كانوا يحلون به حياتهم . ان الانسان يحتاج
الى اعصاب قوية ليحافظ على صفاء روحه ، وسلامة عقله .
انا لا انكر انني مررت بتجارب حزينة ، ولكنها لم تترك
ندوبا في روحي . تعرفت على فتاة كانت تحب الغابة والنهر ،
وتكره المدينة والناس . وكانت لا تكف عن التغني بالغابة ،
وما فيها من اشجار ونبات وطيور وحشرات وزواحف ،
والحت في ادخال حب الغابة الى قلبي . ولما كان لفح
الصحراء ينبع من دمي ، لم امل لها ، ولم اجد لغة مشتركة
بيننا ، فافترقنا . وفيما بعد ، حين عديت بحب الغابة تعرفت
على فتاة تهوى الاسواق ، وتهيم بالزحام ، ولم توفر لحظة
سكون لروحي ، وهكذا انقضت السنوات الخمس في قلق
عاطفي مستديم ، ولم اخلف هناك جزءا من قلبي كما
يقولون ، بل جلبته كل معي بقضه وقضيضه .

عدت فوجدت كل شيء مهيا لي . لم اشترك في شيء مما وجدته حاضرا جاهزا لايوائي . البيت بغرفته الخمس لا يحمل رائحة ايامي الماضية ، ولا ينطوي على واحدة من ذكرياتي . يخيّل الي أنني اعيش فيه مؤقتا ، ريثما استأنف حياتي الخاصة بي ، في ركن لا ادري اين هو . هنا كل شيء مكشوف ومراقب . العيون تتلصص علي . امي تصعد الدرج لتقول « قاعد وحدك » ؟ وابي يستفسر كثيرا عن حياتي في الخارج ، واختي تحيطني برعاية مبالغ فيها: « اكلك قليل » ، « تعلم علي اكل الغربة » . واخواي لا يبادلانني غير كلمات قليلة . شامل مشغول في المسرح الى الانقار . كبر وصار يناصرني العداء ، كما يبدو . وفاضل يأتي متعبا . وبعد ان يتناول عشاءه يصعد مع زوجته الى غرفتهما . يبدو ان حياته ممثلة ، وهذا لا يعجب الاخرين . من هذه الفتاة ؟ يقال انها بلا ابوين ، ولا اقارب . تثير دمدمة بين اهل البيت . لا احب ان اسمع . اشفق عليها واتحاشاها . صوتها وكأنه صوت اخر من الماضي . ممثلة قصيرة ، كذلك الاخرى . لا احب ان افكر فيها . تثير في تذكري دفينة . لماذا لم اشتر ورقا اكثر ؟

مرة اخرى مع الورق .

وقع ما كنت اتوقعه . لم اكن اتوقعه بهذا الشكل ، ولكن كنت اتوقع محذورا ، سيقع بهذه الطريقة او بأخرى . لا احد يجد في نفسه الرغبة في ايقافه ، ولا التنبؤ بما سيؤول اليه . كل واحد منهمك بأن يفصح عن عواطفه بالشكل الذي تتشكل فيه بلا موارد ولا تغطية ، وعلى النحو الذي يمدد بالراحة النفسية . يلعب لعبته بوعي او غير وعي . اما

انا لمكنت لا املك حولا ، ولا ابت بأمر . كنت اراقب كل ذلك ، واجمع فتاته المتساقط من الافواه والنظرات والحركات والايماءات واللمسات ، وارسم صورة قريبة لما يمكن ان يحدث .

وكننت المح بعض الاستغراب من تصرفاتي وبرودي . وكأنهم يريدونني ان اشترك بكل كياني فيما يعتبرونه مأساة العائلة ، وتساؤلاتها المشروعة . كنت احس انهم يضيقون عليها الخناق ، ويسلبونها شيئا فشيئا الامتار القليلة التي كانت تتحرك فيها . كان يخيل الي انها تزداد حيرة ، من يوم الى يوم ، فلا تدري ماذا تفعل . اذا استقرت في حجرتها صرخوا عليها « العروسة لا تريد ان ترى أحدا . تستنكف ، ولا يعجبها العجب ولا الصيام في رجب » فتضطر حسيية الى النزول . كنت اسمع وقع اقدامها من غرفتي وهي تهبط الدرج مستسلمة مخفولة ، وكأنها تنزل درجات سلم تعذيب . وما ان تبقى وقتا قصيرا حتى يضيقوا بها ، ويشعروا بثقلها . فتعود ادراجها خفاقة النملين الى غرفتها في الطابق الثاني . كانت اذا صمتت استغربوا اين تاه فكرها ، واذا تكلمت قالوا : لا تتدخل في كل شيء ، واذا ضحكت قالوا : فطيرة ! يبدو لي ان حسيية مسكينة ، غريبة ومغلوبة على امرها .

وكننت اعرف ان الطرق سيفل اللحيم . كما يقول انبغاديون . ولما همست لي فضيلة بأن حسيية قد خرجت ولم تعد حتى الان لم افاجأ . كنت اعرف ان شيئا من هذا القبيل سيحدث . ولكنني لم اكن اعرف ان الامر سيتخذ هذا الطابع المأساوي . ويثير الشجون في النفوس ، ويعصف بالمواطن ، ويخيم على البيت وساكنيه ظل الفجيعة

الاسود . كنت اراهم في وجوم الانتظار ، يتحركون بألية .
وتقطعت بيننا الروابط الهزيلة للاتصال اليومي . وفي الليلة
التي جاء فاضل فيها سكران ظل جميع اهل البيت مسهدين
في الغالب ، ما عدا ابي الذي لم يشهد المنظر ، وما عدا
شاملا الذي بانث الشماتة على وجهه بسبب غريب .
سيمعرف ابي لا محالة ويشقى ، وستسكب امي دموعا
خرساء ، ليس الامر هينا بالشكل الذي كانوا يتصورونه :
ان تخرج حسية من البيت ، ولا يكثر لخروجها احد
ويبتلمها النسيان . وسيتالم فاضل اياما ، وربما ساعات ،
وسينسى ويفرغ قلبه من ذكرها .

في الصباح تحاشيت ان التقي بأبي . ربما تفضح
عيوننا ما يعتل في دواخلنا . تركته يخرج . واعتكفت
امي في غرفة الجلوس في جلستها الابدية الصامتة . وكنت
انصور ان شامل قد خرج الى معهده . ولكنني سمعته ينددن
في المطبخ وكان اي شيء لم يحدث البارحة . يدهشني
انفصاله العجيب عن البيت ، الحرية التي يبيحها لنفسه .
انزويت تحت الدرج لأغتسل ، فاذا بفضيلة تناديني « الاكل
راح يبرد » . اضطررت الى دخول المطبخ لتناول فطوري .
رمقني شامل بنظرة فضول . وسأل سؤالا استفزازيا
باردا :

— كيف نمت ؟

— مثلك .

— انا نمت نوما مريحا .

وضحك ضحكة مثيرة ، بدت في صمت البيت مثل
نهيق برنزون . ورفعت بصري اليه . كانت على وجهه
شماتة ! قلت :

- لست أدري متى تضحك ومتى تبكي .
- أبكي ؟ ولماذا أبكي ؟
- أصمت ، على الاقل .
- ولماذا أصمت ؟
- ترى الناس حولك يتعذبون .
- لست أنا السبب في عذابهم .
- هل يرضيك ما حدث البارحة ؟
- يستاهل .
- كلنا رفع الكأس الى فمه .
- ما عداي ! انا لم اشترك في عملية زواجه البغيضة .
- وتتشفى ؟
- لم استبشر منها خيرا .
- كانها صفقة عائلية .
- هو الذي قرر ، وهو الذي سيتحمل التبعة .
- ولكننا يجب ان نساعد .
- لا اجد في نفسي الرغبة .
- ولاول مرة قلت له :
- انت تاخذ لنفسك اكثر من حجبك .
- اذن ، لا حاجة الى ان تتحدث معي في هذا الموضوع .
- وعاد الى افطاره مستقلا خامد العاطفة ، قلت وكانني اتحدث مع فضيلة التي كانت تحوم حولنا :
- سنقدم ، سنقدم جميعا على ذلك .

عاد يرد بلهجته الباردة كالشفرة :

— على أي شيء نندم ؟

— كان الأفضل ان نعاملها بالحنى ... فتاة
مسيكة مقطوعة تحت حمايتنا .

— أوه ، عدت تدافع عنها ؟ ما سبب هذا الاهتمام
الزائد بها ؟

— أي سبب تتصور ؟

— لا اعرف ... انت أدري به .

ونهض من وراء المائدة كحاكم يصدر حكما ، وينفض
الجلسة . فار الغيظ في داخلي . وارتدت ان اصغعه .
رفعت صوتي :

— ماذا تقصد ؟

اشار بيده اشارة لادرية توحى بمختلف الشكوك .
وحمل كتبه ، وانصرف . شعرت بركبتي ترتجفان ، وبذهول
يشل حركتي . وعندما خرجت ، رايت أمي عند الباب ،
وفضيلة تنشج في ركن من المطبخ .

— ماجد ، اذا كنت تريد خاطري ..

— هل سمعت كيف يعتدي علي ؟

— انت اخوه الاكبر ، فسامحه .

— أوه ، أوه ... ما اشد غربتي بينكم !

تقدمت أمي ، ووقفت على رأسي .

— انا التي أرضعتك من هذين الثديين ، وتعتبر
نفسك غريبا !

— لست ادري ، لست ادري ، ربما هي ...

وتكونت في ذهني اشياء كثيرة اردت ان انظف صدري منها . ولكن كل الذي تقوله لايلاام نفسك بحضور مخلوقتين تحبانك تحس بانها موجه لايذاثهما اكثر من ايذاء نفسك ، فكففت . كانت فضيلة تنظر الي بوجه معباً بالعبرات ، وحين تلاقت نظرانا ارتخت قسماثها عن ابتسامة حيية .

عرضت عليّ قدح شاي اخر . وقدمته لي بابتسامة منصالحة . جلست امني قبالي ، وقالت :

— طلع لنا هم من تحت الارض .

وجدت نفسي اقول لها :

— الا تتصورين انكم اوجدتموه لانفسكم ؟

— نحن ؟ انكسرت رقبتي لو كنت اعرف .

الناس في المحنة ضعاف متهافتون ، يتبرأون بسرعة مما شاركوا فيه ، يتسقطون الحنان والشفقة . لو قلت لامي هذا الكلام قبل خروج حسية لصرخت في وجهي ، ونهرتني قائلة : نحن نريد صالحه ! ولكنهم ، في الواقع ، كانوا يريدون صالحهم . كان يؤذنيهم وجود غريبة في البيت . لقد وافقوا على مضض ، وهونوا الامر بينهم وبين انفسهم ، وتصوروه غير ذي وزن .

وحيث جاءت حسية ، واصبحت حقيقة واقعة ، شخصا يروح ويجيء في البيت ، يطلب مكانه على المائدة ، او الصينية ، وفي المطبخ وغرفة النوم ، تنبهوا الى هذه الغريبة المتطفلة على قدورهم ، ولو كانت زوجة ابنهم . هذا تصوري للامر .

قدمت لي فضيلة منديل جيب نظيفا ، وعدلت ياقة

مسترتي ، ورجعتني ان اتغدى في البيت : « الاكل لمن اطبخه » ؟
وضعت المنديل في جيبى ، ووعدت بالمجيء ، وخرجت .

مرة اخرى هواء بلادي المفخور بشمس ربيعية ثرة ،
مذهب بغبار صحراوي مفتون ، والخضرة مسترخية بكسل
جرائي داخل كلتها الغبارية . وقفت سيارة صاحبة المحرك
بالقرب مني ، واطل وجه اسمر محروق زاعقا « المتحف ،
المتحف ! » ركبته . الركاب جامدون متسهمون في جلسات
غير مريحة . بلعوا السننهم ، وتخلوا عن كل حرية لهم ،
وراهوا ينتظرون فرج الخروج من القبو المتنقل . انحشرت
بين اثنين منهم . فلم اعرف كيف امد يدي في جيبى . واخرج
الفلوس ، حاولت . جاهدت . توترت . كنت جالسا بين
كلتين غير قابلتين للزحزحة . واخيرا لمست « الخردة »
باطراف اصابعي ، وسحبته بحركة سريعة ، فتناثرت
شذر مذر . واذا بتلك الاصنام تتحرك ويتجرا احدها باحناء
قامته ليلتقط قطعة نقدية ، ثم فعل اخر مثله . وبعد دقيقة
كان الحوض كله تقريبا في حركة بحث دائب لجمع ما تناثر
من نقودي . شكرتهم . وحين جلسنا وقورين متسهمين
كالمسابق ، فكرت في ان هؤلاء لا يختلفون عن اهلي في قضية
حسية .

بدأت العملية التي اقوم بها كل يوم تقريبا : الطواف
على دوائر الحكومة . في الدائرة الاولى التي راجعتها قالوا :
اوراتك ضائعة . بحثنا عنها ، ولم نجدها . وفي الدائرة
الثانية قالوا : كل ما نستطيع ان نفعله — من اجل
خاطرك — ان نضعك في قائمة الانتظار . عندنا ثلاثمائة
مهندس مثلك ! وفي الدائرة الثالثة رفضوا مقابلتي قبل التفوه

بكلمة . قال ملاحظ الذاتية المعجوز : عجزنا من الطلبات .
ما اكثر الخريجين ذوي الشهادات العالية في هذه البلاد !
لطيف انني لست منهم . وفي الدائرة الرابعة وكانت هي
آخر مطافي ، في هذا اليوم ، مؤملا بعض الفرج ، لان فيها
احد المعارف ، اجلسوني على كرسي ، واستضافوني على
قديح شاي . وحاص صاحبي وباص ليسر الي ان هناك
وسيلة شريفة لحسم الموضوع لصالحه ، وهي — وفرك
سبابته بابهامه . قلت :

— اتعتبرها شريفة ؟

— اليسبث اشرف من ان تريق ماء وجهك في المراجعات
غير المجدية ، والوقوف امام ابواب الدوائر ؟
قلت كالمخاطب نفسي :

— كائنني لم اذهب وادرس واتحمل الغربة ...

لم يفهمني صاحبي . قال :

— ولكنك رجعت بشهادة ...

— ولكن الوسطة ما زالت ضرورية .

قال بحكمة سليمة :

— لاوسط من غير واسطة .

— اؤدي الاتاوة للصنم القديم ...

نظر الي كمن ينظر الى معتوه ، وقال :

— الامر راجع لك . اردت صالحك .

استقبلني وهج الشمس مرة اخرى . بغداد فارغة
اذا كنت فارغا وبلا عمل . والبطالة لا تمنع عنك رغيف
الخبز ، فقط ، بل وتوفر لك الضيق والسأم والضياع

ولم اومي الانتحار الاخرى ، على الاخص اذا كنت تتعرف على وجه المدينة من جديد . تحيرت ماذا افعل ، والنهار ما يزال في ضحاها ، والضرب في الشوارع عملية مملة اسوا من تلك الكلمات المتقاطعة . وكانت في نفسي رغبة خفية في مقابلة اخي فاضل على انفراد . فقد كنت احس بانني يجب ان اساعده . كانت حسية قريبة الى نفسي ، تثير لواعج الشجن ، وكانني مشترك في مصيرها . كأنني عدت ووجدت الماضي منظرها امامي يطالبني برد دين سلف .

كنت اعرف ان فاضل يشتغل في محل لصنع الصناديق الخشبية قرب حمام مشهور في احد أزقة بغداد . فقد أسرّ والذي بذلك لي اثناء معاتبة صريحة بأن فاضل يفضل احقر الاشتغال على العمل معه . كان الحمام علامة فارقة ، وجدت طريقي اليه بسهولة . بعد بضع عطفات شممت بخار الحمام ، وسمعت اصوات مطارق . ورايت امامي خرابة مسورة بصفائح من « الجينكو » معوجة مخناة بالصدا . قابلني جدار متفوخ مهدم تكمله هذه الصفائح . وعرفت في الحال انني امام المكان الذي يعمل فيه اخي ، وعرفت السر في كتمانها . كان المكان بائسا خربا لا يصلح حتى لتجميع الفضلات . ولكن حين دفعت الباب الصديء انفتح لي عن خوش مربع الشكل ، حافل بالناس ، تنتثر فيه الصناديق الخشبية والالواح والنشارة . ووراء كل صندوق لم يكمل بعد شخص قابع على الارض يقص خشبة، او يدق مسبارا . وفوق البشر والاختشاب وسائر المواد الاخرى يقف رجل قصر بدين مسود الوجه من شعر اللحية النامي ، يضع

مظارة سميكة ، والمرء لا يحتاج الى حاسة سادسة ليدرك انه صاحب العمل . نظر الي بريبة بادىء الامر ، ثم انفرج فيه عن بسمة اسنان متباعدة . فملطه ادرك شيها بعيدا باخي فاضل . بعد استفسار ناداه بصوت مفلوج . نهض فاضل من وراء صندوق لم يكمل بعد . ولاح بكل قامته انفارعة الهزيلة امامي . لم ار اخي بملابس العمل الرثة من قبل . لو رأيته في الشارع لما عرفته . سحنته متسخة ، شعره منفوش ، رقبته طويلة هزيلة . طلع علي مثل فار من مزيلة (ارجو المَعذرة ، يا فاضل !) كانت نشارة الخشب عالقة بملابسه الكالحة المهترئة . كان ضاوي الجسم مخسوف البطن والصدر ، صورة للبوؤس المجسم . وكان وجهه غير الحليق مدلهما مسودا مبتعما ، ربما بزنجار المسامير التي يستخدمها وعيناه وحدهما تلزلزان ببياضهما الناصع ، نقيتين من بين جسمه كله . نظر الي نظرة مستفسرة متوجسة ، وكأنها وجدته في بيت داعر ، نظرة لا الفة فيها ولا تسامح وكأنها ارتكبت خطأ فاحشا بحقته . وقبل ان يصل الي بذراعين اخرج علبة سكاثره من جيب تبيصه ، ووضع سيكارة في فيه ، وقال :

— لنخرج !

طلبت منه سيكارة لاعيد الالفة المفقودة بيننا .

في الخارج ، وعند بقايا الجدار المكمل بصفائح « الجينكو » وضع فاضل رجلا على بطن الحائط المنتفخ ، وراح يدخن بشراهة ودون ان ينطق بكلمة .

— لملك تظن انني جئت بك بأخبارها ؟

— لا ، انا اعرف . لا اخبار .

— على اية حال ، ستمود في اخر المطاف .

— لا اظنها ستعود .

— ولم هذا الظن ؟

نفث سحابة دخان كثيفة ، وقال :

— اكلوا رأسها . ستفضل الموت على الرجوع .
ستقتل نفسها .

— معقول ؟

— ستفعل ذلك . انا اعرفها . كانت تقول لي :
سأرمي نفسي تحت سيارة ، سأرمي نفسي من على الجسر .
— لا تأخذك هذه الافكار . ستعود بالتأكيد .

— تعود الي جهنم ؟ قلبوا حياتها الى جحيم .
كانت تصبح وتمسي على مناكدتهم . تاكل اللقمة مغموسة
بتعيرهم . فهربت ولن تعود .

كان يدخن بنهم ، وبيتلع الدخان ، ويخرجه فبائل
هزيلة من أنفه . نظرت اليه بحيرة . كنت اريد ان اخفف
المصاب عنه ، ولكن لا اعرف بأية طريقة . سألقه سؤالا
ارعن ، تساءلت مثلما كانوا يتساءلون :

— ألم تفكر ، يا فاضل ، تفكيرا جديا في مسألة العقم
هذه ؟

نظر الي ، وكأنه يريد ان يتأكد هل جاء اليه اخوه
أم شخص اخر . توقف ثواني ، خلّت اثناءها انه لن يبادلني
بعد الان كلمة واحدة . ولكنه تحدث ، بتأن وبلا اكتراث :

— فعلت الذي علي . فحصت نفسي عند الاطباء .
تعرضت لاذلال النفس . وكل ذلك بسببهم ، والا ...

- ألا تريد ان تكون لك ذرية ؟
- وماذا افعل ؟ هل احارب القسمة والنصيب ؟ هذا نصيبي . رضيت به ، فلماذا لا ترضون انتم ؟
- نحن نريد رضاك .
- ألمني ان يحسبني منهم .
- يبدو انكم تريدون ان تقتلوني .
- نقتلك ؟ أتدري اي عزاء نصبت في البيت حين جئت انبارجة بتلك الحال ؟
- سأفعلها كل يوم .
- هل تحبها هذا الحب ؟
- صبت . واختلى الى سيكارتة يمصها بالشره نفسه حتى رمى العقب ، بعد ان احرق شفته .
- انحطفت منعطفا اخر لاثير الجانب الحلو من ذكرياته .
- قلت :
- كيف عرفتها ، يا فاضل ؟
- لم اثر في نفسه غير الاسى . قال :
- هذا ايضا يعترض عليه اهلي ... تعرفت عليها في حفلة عرس .
- هكذا ؟ في حفلة عرس ، ولم تعرفها من قبل ؟
- الاعتراض على هذا ، على انني عرفتها في حفلة عرس . كانوا يريدون ان تخرج خطيبتي من يدي أمي ، دون ان أراها . ولما رايت حسية في العرس ، وطلبت ان يزوجوني اياها ، اعتبرت عاقا وخارجا على ملة الاسلام .

— ليس لهم حق .

— أتعرف ان شامل كان ينهرها ، ويكثها كما يكش
القطعة السائبة ، وكأنها ليست زوجة أخيه ؟

— شامل لعين .

— وأبي كان يعيّرُها . لا ما شاء الله ، بطنها منفوخ ،
ويتهمها بأنها مصابة بمرض لا يرجى شفاؤه . أختي وحدها
كانت لا تحبها ولا تكرهها . هم ، انعم الله !

واخرج سيكارة اخرى واشعلها من سيكارتني التي لم
ادخن منها غير انفاس قليلة . واستبشرت بهذا الفعل
النودي . قلت :

— اين ذهبت ، حسب تصورك ؟

— اين تذهب ؟ ليس لها من تستجير به . ربما القت
نفسها في النهر حقا .

— لا ، اخرج هذه التصورات من رأسك . لو حصل
لها شيء لعلنا بالتأكد ، خلال الايام الثلاثة هذه ... لا ،
لا ... لا بد أنها لجأت الى من تعرفه من الناس . فمن
هي ، يا ترى ؟

رايت وجه فاضل يتقلص ، وردد بفتور :

— لمن تذهب ؟ ليس لها غير عمّة لا يعرف لها مستقر .

— ربما نبحث عن عمّتها .

— عمّتها كانت ضد الزواج ، لانها كانت تستغلها في
غسل الملابس ، فلا اظن أنها تلجأ اليها .

— ربما لجأت في ايام ضيقها .

وضع سبابته وابهام يده اليمنى الحاملة للسيكارة
على طرفي فمه ، واطرق الى الارض ، وقال بخفوت وهو
منكس البصر :

— لا ، ليست هي هناك .

— هل ذهبت ، واستفسرت ؟

هز راسه بالايجاب . وغرق في صمت . عرفت انه
يخفي عني اشياء . واعتبرت ذلك من حقه ، ولو أنني
احسست بالضيق ، لاني لا اعرف ماذا فعل على وجه
التحديد ، واية معلومات يطوي في صدره . احسست بأنني
زائد ، ادخل طرفا في عملية خاصة ، عملية بحث سرية .
لم يحقق مجيئي شيئا مما كنت أبتغيه واطمح إليه ، حتى
التخفيف عن بلواه . ما زال منغلقا على جرحه ، بعيدا
عني . لم تنشأ الالفة التي كنت ارجوها . لم اثر في نفسه
الا لواجع الشجن . اخذت اعانقه بكلمات عاجزة :

— فاضل ، يمكنك ان تعتمد علي .

— اشكرك .

— أنا أخوك .

— شكرا .

— دعنا نفعل شيئا .

صمت ، وجهه يتقلص ، ويبتعد الى اغوار سحيقة .
وأصبت بخيبة قاتلة ، قلت :

— سنشترك في جهد موحد للعثور عليها .

— بلا ثمرة .

تقطر كقطارة ناضبة .

— كيف بلا ثمرة .

— هل تعتقد انها ستعيش عندنا ، بعد كل الذي حصل ؟

— يمكنك ان تخرج من بيت الاب .

وشعرت بأثني اتامر . كنت اريد ان استرضيه ،
أقربه مني . ذلك اخي الذي كنت ألعب معه في الطفولة .

ومرة سرقوا منه ملابسه ، وهو يسبح في الشط ،
فذهبت الى البيت ، وجلبت له دشداشة أخرى ، انقذ عريه .
مرة حملته على ظهري ، حين التوت قدمه ، اثناء الركض .
مرات كثيرة كنت انقذه من مأزق ، ايام كنا نتراكض في زقاق
واحد . نظر الي الان نظرة يائس مغلوب على امره .
كان التشكك في عينيه ، وفي تيبس قسمات وجهه ، وحركات
يده المضطربة ، وهي قريبة من فمه ممسكة بالسيكارة .
نظرت باشفاق الى رقبته المعروقة يجلس عليها رأسه الكبير
الاشعث الرأس ، تفحصت ملامحه التي كان القنوط وربما
التعب ينحتها نحنا ، ويجفف ماء الشباب منها ، فيبدو
الانف اكبر من حجمه الحقيقي ، والفم فتقا عديم الشكل ،
والخدان غورين تحت عظم الوجنتين ، العينان الكبيرتان
مهمومتين في فراغ اليأس والنضوب . وبدا لي وكأنه ليس
اخي الذي يصغرني بسنتين ، هذه الحقيقة القاتلة فتكت
بي ، ابعده عني . كنت أراه من خلل الغربة النفسية التي
يلوذ بها ، ويفصح عنها بهذا الجمود ، بهذا التخلي عن تلمس
اية مشاركة عاطفية ، حتى بدت كلماتي مفرغة من معناها ،
جافة لا قيمة لها . وانقذنا من فراغنا المشلول حلول فترة

الغداء . خرج العمال واحدا اثر الاخر ، من الباب الضيق المطوق بـ « الجينكو » الخشخاش . نظر الي بعض العمال باستغراب من وجودي . جاء عامل ممثلىء الجسم على نحو غير مألوف في الجو الضاوي المحول فيما حوله . ولكنه يشترك مع الجميع برثاءة الهيئة ، وسقم النظرة ، واتساع الوجه . وبادل فاضل الحديث . احسست بالحيوية تعود انى اخي الذي كان مصفونا على الحائط امامي ، يتخلى عني كليا . استاذنت بالانصراف قائلا : « سنكمل حديثنا فيما بعد » .

عاد الفراغ يلتف حول روحي كحبل من شوك . ايقنت ان اليوم سيكون مجموعة من الاخفاقات المتكررة ، فقد استفتحته بنكد في تلك المحادثة المريرة الطعم مع شامل . وهذا انا ، كلما استقبلت صباحا بخير أو بؤس جر اذباله على اليوم كله . لم اعرف اين اذهب . بغداد صماء بكماء رغم كل ضجيجها وغبارها . كان جفاف الصحراء في فمي ، وتوهجها في رأسي . ايامي ساعات انتظار بائسة ، ريثما اجد لي جحرا في دائرة اقضم فيها ايام حياتي . كنست الشوارع بقدمي المتخدرتين . تجمعت في أنفي روائح متنافرة حتى جاشت نفسي ، وتلوت معدتي الخاوية . احسست بالجوع يعصرها عصر خرقة ناشفة . تقاعست ان ادخل مطعما فالتهمها بثقل الطعام ، كما لم احس برغبة في الذهاب الى البيت ، حيث اجد الوجوم وجو الفجيعة . هذه الاوراق لها الليل . في هدوئه تسطر ، وفي سريته تحاك سريتها . لو نشرتها في النهار لدخلت علي امي ، وقالت : ماذا تفعل ؟ تكتب رسالة لاصحابك في « سبعة بحور » ؟

بالأوراق لليل ، والنهار للتسكع الجسدي والذهني والخيالي .
كيف ستنتهي قضية فاضل ؟ هل سيجد حبيبة حقا ؟ طبعاً ،
قد يجدها . او ربما لا ! ستكون مثل تلك ، سرا في ضمير
الضبيب . سيعذبه مصرها المجهول مثلما عذب اخاه . أي
مصر مشترك بينهما ! يا لغرابة الأقدار . تتوارد على
ذهني صور شتى . الذكرى تختلط بالواقع ، والليل يمد
رواقا الى التصور والحلم ، فتتصور ان ذلك وقع بالامس
كما يقول كتاب القصص والروايات ، وتعبق في الحاضر
روائح الماضي . لماذا لا تقولها صراحة ، يا ماجد ؟ جئت
مشميت شيئا من روائحه ، وكأنها كانت في انتظارك تطالبك
بالتصاوص . وعيناك عيناها ، وجيدك جيدها ولكن ...
ماذا يقول هذا البيت من الشعر العربي ؟ أنسيت قراءاتك
الأولى ؟ ايام كنت تنكت ساعات على كتاب سميك والبيت
يبدو شبيها بذلك البيت ، غريبا عليك مثل ذاك ، من طابقي
ايضا . وكانت تلك غرفة عليا . والتوجس والحذر
يلازمانك ، هنا وهناك على حد سواء .

اذا هبطت الدرج ، في غيابهم ، رايتها تغسل الملابس
تحت الدرج ، والصحون في المطبخ . الرجفة تعتريك
والرغبة ، والخوف من قفل يدار في ألباب ، والصورة التي
تراها فيها تظل عالقة في ذهنك طوال الليل ، تتجسد في
احلامك . للممت أذبالها ، وعدلت من جلستها باحتشام ،
وراء الطشت . شعرها الاسود ينسبك ضفيرتين تهتان
على ظهرها ، وهي تفرك الثياب ، وكأنها تتعارك معها :
« زعلانة ؟ » لم تجب . وقفت قبالتها مخنولا ، واذني على
الباب ، تعلمت رجلاي كيف تلتهمان الدرج . مفرق الشعر

انسبط ، والخصلة الناتئة ، وخط الحاجبين الاسود ،
تحتة خفقان رموش ، الانف والشفة السفلى الندية ،
والصدر برمانتي ثديين فتيين ، ووادي العقيق ، كلها
مكشوفة امامي تصارعني بأسلحتها الفتاكة . قفزت فقاعة
صابون على خدها ، ففركتها ، واغمضت عينيها . احمر
وجهها .

وقرع الجرس ، والتهمت رجلاي الدرج .

« غرفة محاضرات في احد المعاهد الفنية . بعض الطلبة والطالبات متفرقون على المقاعد . بعضهم يقلب كتابا ، والاخر يتحدث . في زاوية جلس طالب يعزف على عود . فجأة يلوح طالب بكتابه ، وينهض وثبا . ويهتف متمهلا :

الطالب : وجدتها ، وجدتها .

طالب ثان : ماذا وجدت ؟

الطالب : التمثيلية . هذه تمثيلية تصلح للتعريب او للتعريق .

طالبة : كان « جبار » وجد بيضة الرخ . يا اخي ، ضجرنا من المسرحيات المعربة والمعركة .

جبار : ماذا تريدان اذن ؟

الطالبة : مسرحية من واقع حياتنا ، من هذه الارض .

جبار : (مغلوبا على امره) يبدو أن هذه الارض تنجب كل شيء الا المسرحيات الجيدة .

طالب ثالث : خطأ . هذه الارض انجبت عباقرة . وليس من المفروض ان يكون الكاتب المسرحي عبقريا ، او

على الاقل ، نحن طلبة المعهد ، لا نشترط عليه
ذلك . المهم الحاجة ، والحاجة أم الاختراع .

الطالبة : وهل تتصور اننا لا نحتاج الى مسرح ؟
الطالب الثالث : يبدو ذلك . او على الاقل هذا ما يتصوره
كتابنا في الوقت الحاضر .

طالب رابع : (بصوت تمثيلي مضخخ) اعطني نصا ،
اعطك مسرحا .

الطالب الثاني : لماذا لا نخلقه نحن ؟
جبار : تفضل ، اخلقه .

الطالب الثالث : ربما يستطيع حسن ؟
حسن : اتعزأ بي ، يا خالد ؟

خالد : لا ، والله انك مصدر الثقافة .

طالب رابع : لنترك المزاح جانبا . هيا ، يا حسن .
حسن : خذوا هذه المعادلة الانسانية ، على سبيل المثال ،
وصوغوا منها مسرحية .

خالد : ما هي ؟

حسن : البيت الشهير القائل :

علقتها عرضا ، وعلقت رجلا غيري

وعلق اخرى غيرها الرجل

عازف العود : (يضرب على عوده ضربتين رتيبتين) طبخة
جاهزة .

جبار : ستكون قصة حب .

- حسن : دلني على قصة خالية من الحب .
- جبار : وحب مشريك .
- حسن : الحب غير المشريك لا يستحق ان يروى .
- الطالب الرابع : يعني قصة شامل عبد الواحد لا تستحق ان تروى ؟
- خالد : علوان يثير قضايا مسرحية دائما .
- طالب خامس : شامل لم يحضر حتى الان .
- الطالبة : ولا سناء .
- حسن : بدأت اميرة تفكر في مستقبل صديقتها .
- اميرة : كل انسان مسؤول عن نفسه ، ولكن لا تغترب .
- خالد : سترين بنفسك ، يا اميرة .
- الطالب الثالث : ماذا سترى بنفسها ؟
- خالد : جزءا من معادلة حسن الانسانية .
- (عازف العود يوقع ضربات حزينة) .
- علوان : لطيف يعزف على كل الالحان .
- لطيف : (يترنم مقلدا صوت عبد الوهاب) العود ملك يمينه .
- جبار : خسارة ، بعد ثلاث سنوات من العشرة الطيبة .
- علوان : ماذا سيكون وقع ذلك على سناء ؟
- اميرة : لا تتعجل الامور ، يا علوان .
- خالد : ها انذا ارى شمايلا قادما عبر الساحة .
- (الجميع يصمتون . شامل يدخل بادي الوقار ، ويتلفت في الوجوه) .

شامل : مالي اراكم مشدوهين ، وكان على رؤوسكم اللقالق ؟

علوان : لقالق الحيرة تاكل ادمغتنا .

شامل : والسبب ؟

الطالب الخامس (يسرع في القول) كنا نجادل في معادلة انسانية .

شامل : (يهز راسه بثقة) المعادلات الانسانية لا وجود لها .

حسن : ماذا يوجد ، اذن ؟

شامل : يوجد واقع لا يخضع لقوانين .

خالد : ولكن حسن اعطانا معادلة انسانية جيدة يمكن ان نقيم عليها مسرحية .

شامل : اذا دخلتم في معادلات فلن تجدوا غير شخصيات محنطة .

حسن : وماذا تجد انت ؟

شامل : تخبطا في غابة العلاقات الانسانية او في متاهتها بتعبير ادق . وكل انسان ملزم بشق طريقه في هذه المتاهة ليضع مؤشرات ، حسب موقعه من التيه .

علوان : لا تدخلنا في ايراد ومصرف . نحن بحاجة الى مسرحية .

لطيف : انا بشكل عام ضد المتاهات والتخبط . الحياة نفهم (يعزف على عوده) .

شامل : النغم شيء مصنوع .

لطيف: هذا استخفاف بالطبيعة التي كلها انعام .
 للطالب الخامس : بالمناسبة ، قرأت في كتاب سايكولوجي ان
 الاستخفاف دفاع سلبي ضد جريمة خفية .
 علوان : اوافئك . لهذا نحن نستخف بالتمثيلات ، لنُدافع
 عن جريمتنا ازاء المسرح .
 جبار : اعفونا من هذا الجدل . سنغفر لشامل أستخفافه
 بالعلاقات الانسانية ، اذا اقترح علينا موضوعا
 مسرحية . مسرحنا يشكو من غياب المسرحيات .
 للطالب الخامس : ونغفر كل خطايا الاخرى .
 حسن : كفى المرء نبلا ان تعد خطاياها .
 جبار : هيا ، يا شامل ، شغل عقلك .
 خالد : اذا كان معنا الان .
 الطالب الخامس : لن يتخلى عنا مهما تكن الظروف .
 جبار : شامل صاحب المشاريع والاحلام العظام .
 علوان : حاضر البديهة ابدا .
 شامل : يعني ، ماذا تريدون ؟
 جبار : مسرحية .
 شامل : (بعد تفكير) اية مسرحية تريدون ؟
 اميرة : من واقع الحياة : من اعماق واتعنا الزاخرة
 بالحمم .
 لطيف : الله اكبر .
 شامل : وبدون معادلة ؟ .
 علوان : لتذهب المعادلات الى الشيطان ، وحسن
 بصحتها .

(فترة صمت . الانظار تتجه نحو شامل) .

شامل : (بتآن) تريدون مسرحية عراقية ؟

اصوات : نريد ، نريد .

شامل : حسنا . (ثم يتريث) خذوا هذه العائلة .

الطالب الخامس : ماذا فيها ؟

علوان : جلال دائما يريد أن يعرف ماذا في الداخل .

جلال : الداخل زاخر دائما .

شامل : ماذا فيها ؟ اب وأم وثلاثة أبناء وابنة .

لطيف : توليف كلاسيكي .

خالد : اسكت .

علوان : لا تقطعوا عليه جبل افكاره .

حسن : الرقيق .

(سكوت)

شامل : ولكنها كانت تعيش تمزقا حادا .

حسن : كلنا ممزقون ، يا اولاد .

جبار : ارجوك ، لا تقاطعه .

خالد : والاسباب الموجبة لتمزقها ؟

جبار : يا اخي ، بلا اسباب موجبة . ممزقة ، وانتهى

الامر ! (سكوت) .

شامل : (يطرق برأسه وسط الصمت ، ثم يرفعه ،

وكأنه لم يسمع الاعتراض) لان زوجة احد

الابناء قد هربت .

علوان : (دقائق على عوده) يا خيط المساة الاسود .

جلال : ولكن لماذا هربت ؟
جبار : اسكت ، يا جلال . اعجبها ان تهرب ، فهربت ،
وهل نحن نعرف ما يدور في رؤوس النساء ؟
أميرة : لا ، المرأة لا تقدم على شيء مصري دون سبب
معقول .

حسن : كلام معقول . معادلة ؟
شامل : حسنا ، هربت ، لانها كانت تريد ان تنجب ،
والرجل لا يريد .

خالد : وهل هناك مثل هذه المرأة في العالم ، أقصد في
العراق . ساخنقها ، ساجعلها تهرب .
أميرة : (بجدية) حقا ، وهل بلغنا من الحرية بحيث نتحكم
في بطوننا ؟

شامل : حسنا ، هربت ، لانها ... حسنا ، لانها عاقر .
هل يرضيك ذلك ؟ والعائلة تريد ان تنجب .
علوان : (بتمثيل مسرحي مؤشرا بذراعه) وهنا تدخل
القدر ليلعب لعبته .

جبار : هنا عنصر الصراع . لا بد من تضحية .
جلال : من يتحمل الوزر ؟
حسن : لا بد ان يتخلى احد الطرفين عن بقلته .

جلال : الفرد ام الجماعة .
حسن : معادلة انسانية .
أميرة : ستحكمون عليها بالطبع ، ستتخلون عنها . انا
اعرف ذلك ، مثلها يتخلى صاحب مصنع من
عامل لا ينتج .

لطيف : كفاك ، يا أميرة . نحن لم نتخل بعد .
حسن : الحكم لشامل .
شامل : (في وقار حاكم بارد) اتركوا مسألة التضحية
جانبا ، وخفوا الامر برمته . هذا الزواج
المجاني ، الزواج على قارعة الطريق .
لطيف : (يدق على عوده) ضربة استاذ !
جبار : لقد قلت لكم : شامل صاحب المشاريع والاحلام
العظام .
علوان : يعني الفكرة واضحة عندك ؟
شامل : نعم . هذه العائلة المنكودة ادخلت الى بيتها فتاة
لا تعرف لها أصلا ولا فصلا . مجرد نزوة من
نزوات الابن الاوسط ، على طريقة الحب من
النظرة الاولى كما يقولون .
جبار : الله يستر من هذا الحب .
علوان : فاذا بالحقيقة تتكشف مفزعة مروعة ! هنا تأتي
الادانة .
أميرة : العقم ليس سلوكا لتحكموا عليه وتدينوه ، بل
هو مثل علة قلبية قد تولد مع الوليد .
شامل : لنترك الادانة الان جانبا ، وننظر الى الواقع .
جلال : ولكن من هو الموم ؟
شامل : الموم سوء الاختيار ، ضعف شخصية الزوج ،
سلبية الوالدين ، الى اخره .
جبار : يبدو انك قد فكرت في الموضوع منذ زمن طويل .
شامل : يعيش في ذهني ، حتى يمكنني ان اوزع الادوار
عليكم .

- جبار :** هيا ، نحن على استعداد .
- شامل :** حسنا ، لننظر من يصلح لدور الاب .
- حسن :** خالد ، بالطبع .
- شامل :** حقا ، فيه بعض صفاته . انه خشن وواثق من نفسه ، يريد ان يصوغ ابنائه الصياغة الغبية التي في ذهنه ، ليكون الدوحة التي تمد ظلها عليهم . اما الام فهي غبية ككتاب للتعاويد ، تعودت على الذهاب الى علي الغربي لانه يسجل اكبر نقاط من المعجزات .
- حسن :** الامام الذي لا يشئور ماذا يسمونه ؟
- علوان :** اصل الايمان .
- جلال :** حين فقد الشباب ايمانه ، أصيب بانهيارات .
- خالد :** ما زلنا ثابتين ، يا جلال . جيفارا شعلتنا المتقدة . كلنا على النهج .
- لطيف :** الثورة اغنية عصرنا .
- حسن :** المصاب بالكدمات .
- جلال :** الكدمات دليل على انك تعيش . اما ذوو الابراج العاجية فلا بد ان بشرتهم ملساء رخوة من مادة لدائنية .
- جبار :** اتركونا من ذلك . لقد أضعنا المسرحية .
- جلال :** اشترطوا على مسرحية شامل ان تثير مثل هذا الجدل .
- شامل :** انتظر ، تر .
- علوان :** كل املنا في شامل .

خالد : لا تضع املك كله فتفقدته كله .
حسن : وزع املك في عقول كثيرة .
خالد : سيضيع الداس ، يا عباس .
جبار : يا جماعة ، ستشرد هذه الضجة عصافير الابتكار
من رأس شامل .
علوان : الصمت .
خالد : من ستمثل شريكة حياتي ؟
لطيف : نعم ، من ؟
(سكوت . شامل يفكر)
شامل : (بعد برهة) اظن اميرة تصلح للدور .
اصوات : عظيم ، عظيم .
اميرة : وهل أنا غيبية ؟
شامل : لا ، ولكن حين يتيسر لك الاقتناع بشيء لا ترين
غيره .
خالد : تقصد انها احادية التفكير .
لطيف : مثل هذا النمط موجود عندنا بين النساء والرجال
على حد سواء . لا يستطيع ان يفكر الا في هذا
الاتجاه .
جلال : هذه سمة الشرق .
حسن : لا تحكم على الشرق بهذه السرعة .
جلال : والله العظيم ، هذه سمة الشرق .
خالد : انتهى . اقتنعنا بقسمك هذا . اقبلي ، يا اميرة ،
اقبلي بنصيبك .

لميرة : قبلت .

جبار : الحمد لله . المهم العنصر النسائي في المسرح .
أفرغ ، يا شامل ، من الادوار النسائية اولاً ،
فهذا ضروري .

شامل : بقى عندنا دوران نسائيان : دور الاخت الكبيرة
وستمثله سناء .

لطيف : (يتطلع من النافذة) ها انا اراها قادمة عبر
الفناء .

شامل : (بعد لحظات ، وكأنه ينتظر ، وقد لاح عليه
بعض الارتباك) ودور الزوجة الهاربة ستمثله ..
(يتوقف متردداً) .

جبار : اسندوه الى التفتات .

خالد : نعم ، ستلفت التفتات بدورها الانظار .

علوان : الفتها الله علينا .

جلال : يا جماعة ، هل فكرتم مرة بالردود الذي تخلفه
الاسماء في حياة اصحابها ؟

خالد : ذلك يتعلق بعلم الفراسة .

جبار : كفانا بعلم المسرح الان .

(تدخل سناء ، ومعها فتاة اخرى) .

لطيف : يا سناء ، تسلمي دورك .

سناء : هل اتفقتم على المسرحية المعركة ؟

خالد ، لا ، بل مسرحية عراقية من صميم الواقع ، تأليف
شامل عبد الواحد .

سناء : لا عجب في الامر ، فشامل صاحب امال عريضة .

حسن : لنا في العيش آمال عراض نرجيها ، واعمار قصار
سناء : ماذا سيكون دوري في مسرحية شامل ؟

خالد : دور الاخت الكبرى .

سناء : هذا لطف كبير منه .

علوان : انتهى الاشكال اذن ، تابع قصتك ، يا شامل .

شامل : (يتريث قبل أن يبدأ بداية جديدة . بصوت
مختلف ، متأنيا بنطق الكلمات ، وكأنه يخشى
الزلل) القصة غاية في البساطة والتعقيد .
الاب رجل عصامي ، من حي بغدادي ، قديم ،
انشأ نفسه من مهنة بسيطة ، وتدرج حتى
اصبح من سكان احياء بغداد الجديدة ، ولكنه
اخذ معه كل تقاليد وعادات الاحياء القديمة ،
ولزمه شعور بضعة المنشأ ، والضياع في البيت
الجديد ، فكان يراقب اهله ، وكانهم في غابة .
وكان الابن الاكبر قد سافر الى اوروبا ،
وابتعد عن سيطرته ، كما أن الابن المتوسط تنكر
له ، وتزوج فتاة غير معروفة الاصل ، انتشلها
من احد الاعراس ، ونشأ الصغير غريبا على
اهله ، مصابا بالقهر والاحباط ، لا يشعر الا
بضغوطهم المهينة ، ولا يتحمل ضعفهم وهزال
حياتهم .

جبار : دراما هائلة .

لطيف : فيها نكران لتواصل الاجيال .

جلال : الابن الاصغر سيكون المنقذ ، رغم القهر الذي
يخس به والاحباط .

ملوان : تمزق مسرحي من الدرجة الاولى .
 هانسد : هيا ، يا شامل ، عجل .
 حسن : اني لامل منك خيرا عاجلا
 والنفس مولعة بحب العاجل .
 اميرة : والابنة ، ماذا سيكون دورها ؟
 شامل : سيأتي دورها فيما بعد .
 سناء : بدأت اتمثل دورها منذ الان . انها تحاول ان تجد
 نفسها بين تلك التمزقات العائلية ، ولكن لا
 صوت لها .
 شامل : بالضبط . لا صوت لها ، ولا سلطة . المطبخ
 عالمها الخاص . ترعى هذا وتحذب على ذاك .
 ولكن المطبخ ليس صالونا ، ولهذا عندما تضيق
 تجد نفسها عاتسا لا احد يرغب فيها .
 سناء : اهذا هو المصير الذي رسمته لها ؟
 شامل : لم ارسمه لها ، ولكن هي التي خططته لها .
 سناء : اهذا نصيب من يبذل نفسه للآخرين ؟
 اميرة : نصيب الانزواء في المطبخ . ما كان لك ان تسرفي
 في ذلك . شبعوا ، واتخموا ، ونسوك .
 سناء : ولكن ، لا بأس ... الغدارون !
 حسن : نفسي تحدثني بانك غادر
 وهواي فيك على ذنوبك سائر
 سناء : ربما كانت هي المذنبه . كانت راضخة لاغلالها .
 شامل : لك ان تفسري ما شاء لك التفسير .
 جبار : بدانا نفسير قبل ان نؤدي ادوارنا .

علوان : شامل ، ادخل في الموضوع رجاء .
شامل : حسنا . هل تستطيع ان تمثل الابن الاوسط ،
يا جبار ؟
جبار : مستعد ، ولكن على شرط ان ارسم أنا موقفي من
زوجتي الهاربة .

شامل : ممكن . ولكن لا تستعجل ! لا تضع العربية امام
الحصان . دعني اتمثله في ذهني . انه شاب
نحيل طويل مثلك ، لهوف على نحو ، مثلك فيها
يخص قضايا المسرح ، بالطبع . كان من الممكن
ان يموت ميتة الحسن بن علي مخنوقا بوسادة ،
لشبقه ومحموميته . لا يعرف من لذات الدنيا
غير لذة الفراش ، وارجو المعذرة . ولكن
زوجته هربت قبل ان تؤدي دورها حتى النهاية .
وكان ، كما قلت ، قد التقطها من احد
الاعراس ، فتاة غامضة الاصل ، مثل نبتة
مهملة نمت شعفاء في حرش المجتمع ، فأراد ان
يفرسها في حديقة بيته الجديد ، أقصد بيت
ابيه ، وقد فعل ذلك بطريقة لصوعية لا حاجة
الى التوغل فيها . ولما شبت في الحديقة
الجديدة تضوعت شذى شيطانيا ، شمخت
وتكبرت ، ولم تشعر بحسرة حين مرت الشهور
والاعوام ولم تحمل .

علوان : ربما العقيم هو زوجها .
جبار : ارجوك ، الزم حدودك .
اميرة : نعم ، لماذا ترمون اللوم على النساء دائما ؟

هليل : النساء سبب الداء .

هسن : قال معاوية « المرأة غل ، ولا بد للعنق منه ، فانظر من تضعه في عنقك » .

هنامل : عقمها فرضية مني لتكوين العقدة المسرحية .

هبار : تعيش العقدة المسرحية ، وليكن العقم من نصيبها ، اي من نصيب زوجتي التفات .

لطيف : بدأ جبار يلتفت .

شامل : اذن ، فلنقل انها نبتة عقيم ، وقد رآها الابن الاكبر ، وكان قد جاء من أوروبا ، حيث العقد النفسية والتفسخ ، والعار لا يحسب عارا ، فرآها زهرة متفتحة تتوهج وهجا يخطف الابصار ، وزوجها يخرج في الصباح ، ولا يأتي الا في المساء اشعث اغبر مثل فأر خارج من نخالة ، فنسي الابن الاكبر العرف والشرعية وراح يرمقها رمقات رجسة .

سناء : وهي ، ماذا كان موقفها ، الخزي والخيانة ؟

شامل : من اين لها الاحساس بالفضيلة والرزيلة ، وهي الغبية التي لم تعرف لها اخا ولا اختا ، ولا تفقه شيئا من العلاقات بين النساء ؟

لطيف : التفات سترفض تمثيل هذا الدور .

علوان : في سبيل المسرح يضحي بكل شيء .

جبار : مع حبي الشديد للمسرح لا استطيع ان اتزوج مثل هذه الزوجة ، لا ، لا ، قطعاً .

اميرة : لا تحسبونها بهيمة . ربما كان هروبها موقفا اجتماعيا يسجل لها .

شامل : اذا اشفتك عليها ، وضعت لها التبرير . ولكنها
اشعلت الفتيلة في البيت ، وولت هاربة . اليس
ذلك ادانة لها ؟

اميرة : لا اظن . لا بد انها كانت مسلوية مقهورة ، فرأت
ان تلهلم نفسها ، وتمضي مضحية بسمعتها
ومستقبلها وحياتها .

علوان : يا اختي ، لولا هروبها لما كانت المسرحية .
هروبها عمل درامي رائع . دعها تهرب ، من
فضلك .

خالد : انا ، كآب ، لن اغفر لها خروجها من البيت خلصة .
جبار : لا تستعجل . دع المؤلف يصوغ لك دورك .

شامل : في البداية ، سأترك الممثلين يرسلون انفسهم
على سجيتها . لي التوجيه ، ورسم الخطوط
العريضة ، انت ، يا خالد ، تجيد دور الاب .
وانت ، يا اميرة ، فيك تسامح الام وضعفها .
ليكن موقفك الانصهار في الاولاد ، ولا سيما
كبيرهم .

اميرة : الكبير رأس القلادة .

علوان : بدأت نتقمص دورها .

خالد : سأمنعها من الاشتطاط . انا الجبار ، انا رأس
العائلة ، أنا ...

شامل : هذه هي البداية لكنك ستنتهار .

خالد : لا ولن . سأمسك العائلة بيد من حديد .

شامل : لو كنت امسكتها لما جعلت ابنك يتزوج بدون
ارادتك .

خالد : قد تكون هذه غلطة العمر . لك لانسان مثل هذه الغلطة .

شاميل : غلطة ستجر وبالا على الجميع .

خالد : سأعرف كيف اداريه .

شاميل : سبق السيف العذل .

خالد : اسمع ، اسمع . التمثيل تمثيل ، والجد جد ..

لا تحملني مسؤولية شيء لم ارتكبه حتى الان .

اياك ان تتماذى في انتقادي ، حتى في التمثيل .

شاميل : اريد ان ادخلك في صميم المسرحية .

ليبرة : كفى ، دعنا ندخل باب جنتك الضيق .

شاميل : هيا ، تحدثا عن مناقب الابن الاكبر .

اميرة : قلت انه رأس القلادة . (تمهل وتحدث بصوت

ملء الصدر) لقد استجاب الله لدعائي

وصلواتي .

جلال : هل انت تصلين ؟

علوان : اسكت ، يا جلال ، دعها تنفخر في الدور .

اميرة : جاء يحمل شهادة .

خالد : بلغة لا تعرفينها .

اميرة : انه ذكي على ابيه .

خالد : ووسيم على عمته .

اميرة : شكرا ، ايها الاب المتجبر .

خالد : لا شكر على قول الحق .

جبار : يا اخوان ، اجعلوا الحوار أكثر حرارة .

- اميرة : من هذا الصدر ارضعته .
- خالد : ومن هذا الجيب امطرته بالفلوس .
- اميرة : سيتزوج امرأة ثرية .
- خالد : ساختارها انا لا انت . مضى زمن الخطابات ،
وجاء وقت عقد الصفقات بالتلفون .
- شامل : لا ، يا خالد ، ما كان ينبغي ان تقول ذلك .
- خالد : ولماذا ؟
- لطيف : هذه عصرية من جانبك اكثر من اللازم .
- شامل : هذا لا يناسب انحدارك من حي بغدادى قديم .
- خالد : ستلاحقنا لعنة بغداد القديمة الى القبر ... يا
اخى ، ترقيت . اعجبني ان اترقى فترقيت .
- شامل : اريد لبطلي ان يحن لنداء حبه القديم .
- حسن : حيث الطناطل والسعالي .
- جلال : ورائحة الدهن الحر المحروق والثلث العنبر تتجول
في الازقة .
- حسن : والقدر الشائط والعطاب والكافور يذكر بالموتى
وبالبخور .
- لطيف : وبائع الفجل الكركري والطرش حامض .
- علوان : والمكادي يرتلون القرآن بأصوات موحشة .
- شامل : هذا ما اقصد به بغداد القديمة .
- جلال : بغداد المبقورة البطن ، والمصابة بالتفلطح .
- شامل : المفروض ان الاب يحس في حيه الجديد بالضياع .
- حسن : ولا يالف رائحة القذاح .

- ملوان : ويكره السنطه .
- حسن : السنوط في اللغة من لا لحيه له .
- جلال : لو فتشت احياء بغداد الجديدة كلها لما وجدت واحدا صاحب لحيه .
- شامل : اريد لبطلي ان يحس بالعزلة في حيه الجديد .
- جلال : حيث لا تتخلص من الوحول ، الا اذا كنت في شارع واحد مع حكومي كبير .
- شامل : اريده موزع النفس بين ماضيه وحاضره .
- خالد : اسمع ، يا شامل ، لماذا لا تكتب انت الحوار ؟
- شامل : ساكتبه . هذا مجرد اختبار للقوى .

ظالمٌ ...

المسافة بين ألوشاش واحياء الرصافة القديمة لا تزيد على خمسة كيلومترات ، ولكن عبد الواحد ، كلما خلف الصالحية وراءه احس بأنه يدخل في أمعاء خروف قضى أكثر من نصف قرن في داخله ، دون أن يشم رائحة كريهة ، أو يشعر بأشمزاز . أنعمدت أواصر الالفه والمحبة بينه وبين امعاء بغداد هذه ، وتطورت تطورا فيزيولوجيا حتى انه ، في بعض الاحيان وكلمة الصدق تقال — يحس بأن هواء ألوشاش أخف من ان يملأ صدره ، ويفعم قلبه ، ويطرغ رأسه . في احياء الرصافة القديمة يشعر بأنه ركين على الارض ، نابت فيها ، لا يتزعزع عنها الا بمقدار ما تقتضيه الضرورة ، تماما مثلما يفعل بعد اكلة « باجه » مع البصل والمخللات ، او رغيفين منقوعين بماء الباقلاء مع الدهن والبطيخ وسائر المشهيات الاخرى . كان عبد الواحد ، في احياء الرصافة ، يشعر بأنه سلطان ، يتبخر فيزاحم ، ويؤخذ له حساب ، ويرفع صوته فيرن في الارعاء ، ويسمع كل كلمة يقولها الناس ، ويرسل النكتة ، فتتلفت وجوه ، وتضحك افواه ، وتلمع عيون بالدمعة أحيانا ، اما في منطقته الجديدة ، في حيه الجديد ، حي ألوشاش ،

فيبدو ضائعا ، معزولا ، طائرا في الهواء ، يتطلع الفراغ
كلماته ، ولا يفوه فيه بنكتة . ولكن الانتقال كان ضروريا ،
لان الناس فعلوا ذلك من قبله ، وسيفعلونه من بعده ...
امعاء بغداد القديمة تقذف وبغداد الجديدة تستقبل ،
والخسارة للتاريخ ، كما يقول هو أحيانا . ولكن سنة
الحياة سائرة لا مناص منها ، ولا مهرب . هناك من العوائل
من لحقت بأبنائها الموظفين المرموقين ، وهناك عوائل
طورت نفسها باتجاهين : من ناحية الابناء الذين تسلقوا
سلم الرتب ، والاباء الذين طوروا تجارتهم ، وتسلقوا سلالم
خفية ، ولا سلالم المعراج — استغفر الله ! أغتنوا ،
وتحبجوا ، وعمروا البيوت والقصور ، واشتروا الاراضي
باسعار زهيدة — المتر بمئة فلس اذا كنت من اهل الخطوة
والكلمة المسموعة عند الحكومات المتعاقبة ، وادخروها كما
يدخر المال في بنك ولكن بفوائد خيالية ، حتى صار المتر
الواحد بخمسين دينارا . وهناك عوائل — مثل عائلته —
اتكلت على وليها الأواحد الذي ظل يكدح في دكانه الصغير ،
وينحت النقود نحتا بفأس ثقيلة ، وقلم طراش مثلوم ، حتى
جمع لعائلته ، في اخر العمر ، مالا قليلا ، واشترى به
قطعة أرض بسعر ربع دينار للمتر الواحد ، وتركها
مهيلة عشر سنين ، ثم اخذ قرضا من مصرف الرهون ،
وبدا عملية البناء التي استمرت سنتين ، بين حركة وتوقف ،
بين سلفة ودين ، وحسب تسهيلات الصرف وشراء المواد
حتى استقام له بيت من خمس غرف ، والحمد لله ، يضم
شمل اولاده ، دون اية مساعدة منهم .

ولكن ليت الزمان يصفو ، ليتة ينجيته من متاعبه
ومنغصاته ، ويبعد عنه شره واذيته . ولكن هيهات ! ها هو
يجابه مشكلة جعلت رأسه يدور ، وفكره يشرد ، ومزاجه
يتعكر ، ويتخلى عن تلك الخصلة التي كان معروفا بها :
ولعه بمحادثة الناس . ولكنه اليوم استقبل بتحية مبالغ
بها ، ذكرته بأيامه الصافية :

— اهلا بالورد ، بالجملار ، اهلا ، ابو ماجد ، شوفتك
ترد الروح .

التفت ، فرأى عبود المسطول يطل من دكان ودود
اللحم ، وعلى فمه العريض تكشيرة بدت وكأنها تصل بين
اذنيه . عاد الى عبد الواحد شيء من بشاشته القديمة ،
ووجد نفسه يقول :

— اهلا ، عبود ، هل كسرت الجرة ؟

— لا ، ابو ماجد . بعدها سليمة .. بس الخميس
سأجعلها فدوة لك .

— أي ، نعم ، أنت متعلم على كسر الجرار .

— ولماذا خلقت الجرار ؟ هل هناك جرة ظلت سليمة
طول العمر ؟

و « كسر الجرة » معناه العودة الى معاترة الخمرة .
وكان عبود يقسم بجرة امه على أنه قد ترك الخمرة ...
مضت ثلاثة ايام ، دون ان يذوقها ، وألله ، بالشرف . ولكن
الجرة تكسر في اليوم الرابع على اكثر تقدير . وأحس عبد
الواحد بأنه يدخل عالم الرموز القديم ، ويعود إليه حينه
الى مناكفة الناس بالدعابة الحلوة ، واللمز غير الجارح .

راى مهدي الجراح مثلثا امام مجرخته . فكان
كالبدوي ، وهو يهم بامتطاء ناقة . بادره عبد الواحد على
عادته القديمة :

— اين الكرغان ، يا مهدي ؟

كان عبد الواحد يستخف بأرجل الموبيليات التي
يعطيها للجراح ليصنعها له ، فكان يسمى الرجل « بالكراع »
احتقاراً وتصغيراً . دافع مهدي عن شرف مهنته :

— لم اضح بعد بخروف ، لا قدم لك كرغانه .

— ساذبح ناقتك ، اذا لم تقدمها اليوم .

وابتعد متبخترا ميمما صوب دكانه رامقا الزوايسا
والمنعطفات والناس والابواب والشبابيك ، وكل ما يقع
عنيه بصره الحديد .

— حسنه ! اما زلت تسقين السلطانة ماء زلالا ؟

والسلطانة هي بقرة حسنة الحلابة . وانشائع في
المحلة انها تسقى بقرتها جردل ماء ، قبل أن تخرج بها الى
الناس لتحبها امامهم ، حلييا من الأزرع . وكانت حسنة
قد تعلمت كلمة « دعاية » من الذين يأتون لشراء الحليب ،
ولكنها كانت تضيف لها ألفا فخرجت من لسانها على هذا
النحو :

— هذي ادعاية ابليس .

— ظل ابليس بالدنيا ؟ الناس صارت تعطي لابليس
الدروس . لا يهم ، سنصبر .

واستمرت هذه المناكدة بين عبد الواحد والناس حتى
اُطل عليه دكانه ، أو بالأحرى ، اُطلت عليه موبيلياته

المتناثرة قرب الحيطان ، فان عبد الواحد كان يوكل فتح دكانه للصانع صبيح ، ويأتي ، ويرى كل شيء جاهزا . على بعد مترين التقى عبد الواحد بجعفر الاشرم ، فتوقف وكأنما قفزت في ذهنه فكرة ، ولم يقل لازمته .

الا ان الاشرم كشف عن كامل لثته ، وصاح « سأطلقها ، سأطلقها » وكان عبد الواحد كلما لقي الاشرم بادره بهذا السؤال « ماذا تفعل زوجتك حين تتزوج ؟ » اثار مرأى الاشرم تداعيات غريبة في ذهنه ، فتبيس امامه ، وكأنما التقى بشيء كان ضائعا عليه .

الاشرم ابن حبه القديم « نعيمة » حلاله العقد ، الخشائشة في كل بيت ، المدبرة لكل شيء ، فلماذا لا يستعين بها لتبحث عن الضائعة ؟ ولو من باب التلميح لا التصريح . وكان عبد الواحد ، في واقع الحال ، قلقا اشد القلق . كان يرى فاضل يذبل ، ويشحب لونه ، وتتغير اطواره ، وينفصل عن أهله ، ولا يكلم احدهم الا نادرا . لا يأتي الا في ساعة متأخرة من الليل ، بعد ان يطرق الباب طرقا خفيفا لنهب فضيلة من نومها ، وتفتح له الباب . وذات مرة غافلها عبد الواحد ، وقفز من مكمنه ، وسبقها في فتح الباب . ولما فتحه شم رائحة عرق كريهة . لقد كان فاضل يعاني ، ولكن ليس معاناة رجل ، بل معاناة طفل ، وهذا ما يعذب عبد الواحد اكثر ، ويجعله يحس بأنه ما يزال مسؤولا عن طفله . ولكن اللجوء الى نعيمة صعب ، فيه ذل السؤال ، ونبش الماضي المقبور ، وهوان الضعف في اوج الرجولة ، واكتمال العمر رغم ان هذا الماضي كان يراه يتمشى في

الطرقات رواحا وغدوا ، وبيادله كلمات حيادية ، لان الحياة قد جرت مجراها ، وكل شيء قسمة ونصيب ، وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم والمهم ان تكون طيبا (يعني خوش ولد) وتكتحل العين بمرآك . وكانت تدعوه « ابو ماجد » ويناديه « أم جعفر » وليؤكد ان القدر قال كلمته ، ولا مرد لها ، ولا بد من الرضوخ له ، والتصافي . وكل ذلك قد دار في ذهنه حين رأى أبنها الأشرم قبالة ينتظر منه ان يفوه بشيء ، ويتواصل معه على عادته القديمة . فسأله فجأة ، وكأنها احس بحراجة الموقف :

— اين امك ؟

— اين امي ؟ في البيت ، او في السوق ، او عند الصاحبات .

— قل لها ان تمر علي .

وجاءت « ام جعفر » في اليوم التالي . امرأة ربعة القامة ، مفتولة الجسم ، حلوة التقاطيع ، في عينيها نظرة تواطؤ ، تتقلب وتدور كالمفزل ، وتحس بها طبقات وأغوارا ومسابر ، منها ما ينفذ إليك ، وما يحيطك ، وما يتخطاك الى ما يضر المستقبل لك كأنها تعيد تفكيرك حياتك الى اجزاء . كان لها صوت جارج ، وحركات يدها اليمنى عصبية ، واليسرى ملفوفة بالعباءة وكأنها مجبرة بها . كلما امعن عبد الواحد النظر فيها يسائل نفسه بعتاب واستغراب : اهذه هي المرأة التي كان يحبها ؟ ولكنه اليوم بحاجة اليها . صاحت قبل ان تصل الى باب الدكان :

— ابو ماجد ، بعثت علي ؟

لـ جفل عبد الواحد ، وترك ما بين يديه من عمل ، وانزوى
بها خارج الدكان ، وقال مؤنبا :

— اتظلين كل عمرك بهذا الشكل ؟

— ماذا في شكلي ؟

— عالية الصوت لا تكتمين سرا .

— انا ؟ كل الاسرار هنا — ودقت على صدرها — ما

يدخل فيه لا يخرج .

لـ ابتعد بها خطوتين اخريين :

— اسمعي ، العروسة طلعت زعلانة .

— أي عروسة ؟

— امرأة فاضل .

— خلّ تطلع ... ستعود ذاعنة مدحورة .

— لو كان الامر بيدي لتركنتها تذهب الى الابد .

— اذن ؟

— فاضل .

— يحبها ، اللهم عاف وثاف ؟

— رفعت صوتها بلوعة :

— الحب يخرب البيوت ...

— لا ترفعي صوتك .

— انا اعرف الاعيب الحب . هل تذكر لما ربي جعفر

شواربه ؟

— اذكر .

— العشق جعله يستر على شرمته . وما دخلي به ؟

دعه يتزوج ، ولكن على سنة الله ورسوله . ربما
سحرت له ؟

— من ؟

— العروسة .

— حسية ؟ لست ادري . ولكنها كانت لا تخرج من
البيت .

— ومن يدريك ؟ ربما جاءت وهي تعرف فنون السحر .
ربما وضعت له في ليلة الدخلة شعرة واحدة من شعرها
مبخرة ومعذولة في طاسة الماء الذي يشربه . أنت ، ماذا
تعرف عنها قبل الزواج ؟

احس عبد ألواحد بأول طعنة منها توجه الى صدره .
بلغ غصته ، وقال :

— انا اريد ابني ، كما كان .

— لازم نبطل السحر .

— ابطليه .

— لازم اعرف ماذا فعلت . للسحر مائة شكل وشكل
... عيني ، فاضل مخطوف ؟

— جدا .

— وعيونه طايره في السما ؟

— اكيد .

— ولا يكلم انسانا ؟

— بالضبط .

— روحه مرفرفه ؟

— كل ما قلته صحيح .

— هذا هو اذن .

— ماذا ؟

— مسحور ، شامم عطاب . اللهم عاف . ويلي على

خديجه !

نظر اليها . كان وجهها رصينا فيه حمرة خفيفة من
حرارة الموقف . وجه حلو بلا شك . ما زالت فيه نضارة
وطلاوة ، مثل صورة من صور الماضي تحتفظ بسحرها
مهما احاطتها من اشياء مؤسفة . ما زال خذاها ناتئين ذلك
التنوء المحبب الذي كان يجعل انفها في منخفض خفيف ،
فيلوح صغيرا مثل أنف دمية ... الانف الذي تغزل به
فتيان المحلة ، واغرم به هو الآخر . ونظرتها ؟ اواه ! نظرتها
التي تسبيك ، تلتف من حولك ، تحاصرك . وتذكر عبد
الواحد تلك النظرة التي مرقت كالشهاب في عيني ابنها
جعفر ، حين سألته عن امه ، نظرة تأمل في اغوار حقيقة ،
وسأل نفسه : ربما قصت له في احاديثها آلهافرة قصتها
معه ، وكيف انه خاصم اباه وعائلته كلها ليتزوجها . ها
هي الان تغزل نظراتها لتلتف حوله كالشرنقة ، ويجد نفسه
اسيرها مرة أخرى . قال متمللا محاولا ان يفك الاسار :

— يعني ؟

— لازم يبطل السحر .

— يعني يمكن ان يرجع ابني الي ؟

كان في شك في قدرتها على ابطال السحر او عقده ،
فلو كانت لها مثل هذه القدرة لجذبته كالصنارة ، حين
ذلك ، في عفوان حبها وعرامتها ، ولأنتسته كل شيء في

الدنيا ، ولما جعلته يرضخ للاحاح ابيه واهله . ولكنه ، وهو في حالة ألبحت عن مخرج من أزمتيه ، مستعد لان يتشبث بكل شيء ، ثم ان السحر لا يطال ألا بتقدم السن . فالسحر في شبابك ينبع من ذاتك ، وحين يتقدم بك العمر تحاول ان تشتريه من العطار . وهذا ما يفعله عبد الواحد الان مضطرا ، رغم انه لا يؤمن بالسحر ، مثلما لا يؤمن بدوران السنة على حوت او قرن ثور او حية ... ولكن هناك ظواهر لا يستطيع تفسيرها ، مثل الحب حين يجن الانسان جنونه ، يتبرأ حتى من ابيه وامه ... الحب عطش ، عى فجائي ، وذهل مؤقت مثل ذلك الذي حصل له ايام زمان ، واستطاع ان يفيق منه ، لان الانسان يحب امرأة ، ويتزوج أخرى . اما أن يبقى متعلقا بذيل امرأة احبها من اول نظرة فذلك السحر بعينه ، شيء لا يجوز .

— ما ممكن !

— ما هو الما ممكن ؟

تنبه عبد الواحد الى المرأة التي كانت ترمقه عن كثر ، طوال هذا السرحان ، وتتمعن في ذلك الذي احبته يوما ، وجنت به جنونا . حاولت بخيالها ان تزيل اللغد المتدلي تحت حنكه ، والكيسين الامرطين المتهدلين تحت عينيه ، وتعيد البريق اللاهب في عينيه العسليتين .

— من اين جاء بهاتين العينين العسليتين هذا الارعن ؟ — وتسوى ، وهي التي مارست الحفاة ، ضمن ما مارست من اعمال ، كل الثنيات والشعرات ليرز له

وجه فتاها القديم الذي جنت به جنونا ، الفتى المغتول
العضل ، الممشوق القوام ، أركين الرصين ، المتفجر
قوة ، التياه على الدنيا ومن فيها ، واحست وكأنها في آخر
خلوة معه .

— ان يحب الانسان بهذا الشكل !

— قلت لك انه سحر .

— وتقدرين ان تبطلينه ؟

— لا شيء في الدنيا الا وله شيء ضده .

— افعلني الذي تقدرين عليه ...

— سأفعل ، سأفعل ... ولكن يجب ان تطيعني .

— انا لله وانا اليه راجعون .

في المساء كان فاضل منفردا بصديقه الحميم عباس
وهو العامل الممتلئ نفسه الذي رآه ماجد يقبل على فاضل،
حين كانا يتحدثان معا قرب حائط محل صنع الصناديق .

بعد انتهاء العمل دخل فاضل وعباس مدخل سينما
صيفية مهلهة تجمعت في اعماقه رفات مقاعد السينما القديمة
ومنصة كتب عليها « سينالكو » لا بد أنها كانت تستخدم في
البوفيه ، واجزاء من لوحة الاعلانات وعاديات أخرى
مجهولة الاصل . وقد جاء من هناك بصندوقين من تلك
انصناديق التي تعبأ فيها المرطبات ، واقتعدها ، واخفيا
القدحين والربعيتين قرب الحائط . ووضعوا صحن « اللبلي »
على ركبتيهما ، وجلسا متقابلين . وراحا يعيدان ويصقلان
في الموضوع نفسه .

— لا اعرف كيف ستتطور الامور .

— سأجدها حتما . اين تضيع ؟ وسنؤجر حجرة
ونسكن فيها .

— وابوك ما موقفه ؟

— كان يريد ان يتخلص منها بطريقة من الطرق .
هو وامي سبب خروجها . سأغادر اهلي الى غير رجعة .

— الى هذا الحد تحبها ؟

— اعبدها . لا انام الليل بدونها . اوف ، عباس .
انا لا اعرف لماذا افتح لك قلبي اكثر مما افتحه لاهي الذي
جاء الي قبل ايام ، فوجدت لساني يطاوعني لاقول له ما
ما في قلبي . جاء وتسمرت انا على الحائط . وكان يجرنني الى
الحديث جرا . كان هناك مانع يمنعني . ربما لانه افندي
درس في الخارج ، وسيضحك حين يسمع ان اخاه العامل
يحب كما يحب الناس في السينما . ولكنني اقول لك بصراحة
انني احبها ، والقرآن الكريم احبها ، والكعبة الشريفة
احبها . لا استطيع ان انام وحدي في فراشي لان كل شيء
يذكرني فيها . في الليل أتصور أنني اسمع أنفاسها ، وهي
نائمة جنبي ، احس بدفئها ، وبنعومتها ، حين كانت تتقلب
الى جانبي ، وتحشر رجلها بين رجلي ، أو تلقي ذراعها
علي ، تحتضنني ، أو تقرب وجهها من وجهي ، وتغطيني
برائحتها ، رائحة ترد الروح للليل .

وتوقف ، وامسك ماعون اللبلي ، ومال قليلا ، ومد
اليده الاخرى ليلتقط كأسه من الارض ، ويشرب جرعة .
تهشمت تقاطيع وجهه ، وتمطت شفته السفلى وتدلّت .

مسح فمه ، والتقط بعض حبات الحمص المنقوع . راقبه عباس من خلال كل هذه الحركات ، واحس بشفقة كسيرة عليها . سألته :

— قل لي ، يا فاضل ، كيف تعرفت عليها ؟

— قصة طويلة — ومد فاضل ذراعه اليميني المسكة بالسيكارة — دعانا احمد . انت تعرف احمد ، ابن عم الاسطه ؟ دعانا الى حفلة عرس . شجرنا من الجلوس في المقهى او الذهاب الى السينما . فقررنا أن نذهب . راشد واحسان وانا . حفلة عرس في الكريمات — وسكت متوقفا وقفه طويلة مبهمه — نعم ، في الكريمات . كان البيت مزدحما . لم نستطع ان ندخل . ودعونا الى بيت مجاور . كان مزدحما ايضا بالنساء والاطفال ، وبعض الرجال . هوسه يا ريمه . ادخلونا الى غرفة صغيرة . وبعد قليل سمعنا اصواتا نسائية :

— هذا الشريت لمن ؟

— لهم ، للشبان . ادخلهم جاسم ولم يعد .

— ادخلي وقدميه لهم .

— استحي . ادخلي انت .

— وانا ، لا استحي ؟

وسكتت الاصوات ولم تدخل واحدة علينا . وبعد دقائق أعيد الاخذ والرد . واحدة تستحث الاخرى . والممانعة مستمرة ، والحياء يجعل المستور حلوا كالشهد . انصتنا الى حديث النساء وضحكنا في سرنا كان يدا ناعمة

تدغدغنا . اي ، والله العظيم ، اذكر النشوة التي احسست
بها ، اللهفة ، العطش ، لا الى الشرب ، بل الى وجه
حلو ، يد رقيقة تقدم الينا اقداح الشرب .

واخذنا نتبادل الحديث همسا ، ونتمازح . قلت في
شوق : والله العظيم ، التي ستدخل علينا سأخطبها .
قالوا : واذا كانت قبيحه ، عورة ؟ لا يهم . واذا كانت
متزوجة سيكون ذلك من سوء حظي . سأخطبها ،
وستشوفون . ورحت أنتظر دخولها بفارغ الصبر ، مثلما
يقولون . انتظرها ، وكأننا انتظر نصيبي ، خبزتي ، ولم
نعد نسمع حوار النسوان . سكتن . فقلت لنفسي : الله
لا يريدني ان اتزوج . او ربما سمع النساء حوارنا
الهامس ، فلم يردن توريطي ، او لم تكن لواحدة الشجاعة
لتدخل علينا . وحزنت كثيراً . وفجأة سمعنا قلقة في
الباب . ودخلت فتاة ، تؤطر العباءة وجهها المحمر . ويدها
الحاملة الصينية محمرة ايضا .

— وبعدين ؟

— قلت لنفسي ستقذف الاقداح وتهرب ، لان كل واحد
منا فتح عينيه ، ووجهه عليها . ولكن الفتاة سارت عبر
الغرفة بخطى واثقة ، والابتسامة الخجول على شفرتها ،
وتهد الاقداح لنا دون ان نسمع للاقداح ارتجاجا .

— وكيف كانت هي ؟

— اويلي ، عباس ! — واحس بدفقة من العاطفة
تجتاج صدره ، ومد ذراعه مرة اخرى ليمسك بصحن

اللبلي ، ويتناول كأسه من الارض — فص الماس . أوه ،
يمكن فص الماس بارد ، لا اعرف . اما هي فقد دخلت
وادخلت معها منقلة فحم . هذا ما صورته ! توهجت .
حكنتي عليائي . أحسست بابر العرق تلسع جسدي .
فتاة قصيرة القامة ممثلة قليلا ، مثل تلميذة مدرسة .
عينها تنظران نظرات تسبي القلوب ، وفيها يسبح بحمد
الخالق . وردة ... اش اقول لك ، اش اوصف ؟

ولعله خجل في اخر الامر . فالفتاة أصبحت زوجته
على اية حال . والعرض عزيز . ولكن الخمرة جعلت للفكر
اجنحة ، وجعلته يهيم في رياض الذكرى . تدفقت الصور
على ذهنه موجات حية غامرة ، حارة ، خانقة ، مثيرة
للشجن وكان فاضل يترنح في ثبجها مثل زورق خفيف .
وكانت هذه ثالث مرة يحتسي فيها الخمرة ، ومع الشخص
نفسه ويحس بدبيبها يرخي عقد جسمه المتوتر ، ونفسه
المتعبة اللائبة . وكان الشخص الذي يجلس امامه ، رصينا
جامدا كأن الخمرة لا تحرك ثيئا فيه . كان يبدو دأبيا في
الظلمة ، لا يسمع منه غير نحنة . وكان فاضل يود لو
يسمع كلمة منه ، استحسانا او استهجانا . ولكنه صمت
مذغفلا بسيكارته وأنفاسه الخشنة . وبعد برهة سال :

— ماذا يشتغل اخوك الذي جاء اليك ؟

— لا يشتغل . مهندس عاطل .

— العطالة بين المثقفين ايضا ؟

— سيجد له وظيفة ، على اية حال .

— هل هو معك ام ضدك ؟

— يبدو متعاطفا معي . كانت زوجتي تقول انه كان رقيقا معها رقة تخجل منها . وكان يسألها اسئلة غريبة . على العموم انه يبدو غريبا بيننا . كلمة « الشكر » على لسانه .

— هل دخلت معه في حديث ودي ؟

— يعني ؟

— ما رايه في الاوضاع ؟

— لا ادري . يقول الوطن الذي لا يومر لك لقمة عيش كريمة ... لا اعرف كيف قال ... يعني موزين . في ٦٢ كان مختفيا .

— تمسك بهذا الاخ .. اشرب ...

— لا استطيع ان اشرب ... سكرت ...

— حرام ان تعوف العرق الذي صرفت عليه عرق جبينك .

— اشربه انت .

— تقينني ربعية عرق كلما شربت العرق .

وفي البيت كانت فضيلة تنتظر اخاها . فرغت من كل اشغالها ، وجلست في المطبخ تنتظره . كان الجو طيب الهواء مضخا برائحة خضرة باردة ، فتحت النافذة ، وجعلت الهواء ينساب اليها عبر شجرة التفاح الصغيرة في الحديقة الخلفية . شمت رائحة قداح حملتها اليها النسمة من البيت

المجاور . انعشتها الرائحة ، ذكرتها بأصائل جبيلة ولحظات من هدوء البال ، حيث يبدو جميع أهل البيت وكأنهم في كنفها ، وتحت رعايتها ، وتبدو ضرورية لهم ضرورة السقف الذي يظلمهم . فتحت رائيتها لعب الهواء . وأطلقت أنفاسا كالزفرات ، وشعرت بخفة وكأنها عادت صبية مباح لها ان تفعل كل شيء . نهضت من جلستها ، وحملت مقعدها قرب النافذة المفتوحة وتلفتت مترددة . وراق لها الجو الساجي ، الخلوة مع نفسها . نهضت مرة أخرى ، واتجهت نحو انباب ، واطفأت المصباح ، وشعرت بالظلام يلمس جسدها كثوب فضفاض يتيح لها حرية الحركة ، وكأنها ارتدت « كلاو الخناس » انصتت . البيت خلفها صامت . امها وابوها اعتكفا في غرفتهما منذ زمان . كأنهما يتجنبان ان يريا فاضل عائدا في ترنحه الزري مزرق الوجه ، معتوه العنينين . واعتكف شامل في غرفته . وماجد لا خوف عليه . انبست يبدو كالمهجور . عادت فضيلة الى مقعدها . داهمتها رغبة مفاجئة في أن ترتقي المقعد ، وتنظر في الشارع الليلي . وضعت رجلا عليه ، وترددت ، ثم ضغطت على ركبة رجلها الموضوعة على المقعد ، وصعدت . الشارع الذي يفصلها عن صف البيوت الاخرى فارغ شبه مظلم ، ولكن بعض النوافذ المضاء تطل فتبدو من بعيد مثل شبابيك من ذهب مقصبة بستائر خفيفة . اشرابت فضيلة بعنقها اكثر ، تخطت ببصرها البيتين المقابلين ، واستطاعت ان تشمل ببصرها البيت الثالث . رأت المصباح مضاء في الفسحة عند الباب المؤدي الى الحديقة الجانبية . استوقفت بصرها طفلة في ثوب بنفسجي كانت ترفع ذراعها النحيلة اللامعة

لتصل الى فم امرأة لتلقى فيه شيئا . كانت الطفلة تقف بين رجلي المرأة المنفرجتين ، وتمسك بماعون صغير في يدها اليسرى المرتخية ، وعندما توفق في وضع ثمرة — ربما هي ينك الدنيا ؟ — في فم المرأة ، تضحك ملقية رأسها الى الوراء ، ويهتز شعرها الطويل المرسل على ظهرها . كانت المرأة تمانع ، ترفع عنقها ، وتطبق فمها ، ربما شبعت ؟ — ولكن الطفلة تصر ، وتحشر الثمرة في فم المرأة ، وتسحب يدها حالما تنفرج الشفتان المطبقتان . كانت الطفلة تجد لذة في هذه اللعبة ، وتسترسل فيها . ثم بدأ الملل على المرأة فكانت تهز رأسها خائفة ان تنطق بشيء مخافة أن تنتهز الطفلة انفرج الشفتين ، وتضع الثمرة . ثم تضايقت المرأة على ما يبدو فنهضت . ونزلت فضيلة من المقعد . خشيت ان يفاجئها أحد من اهلها . اعادت المقعد الى موضعه ، وجلست بعد أن أدارت زر المصباح . وبعد دقائق ، ضجرت . تاففت . اوي ، فاضل ، متى ستعود ؟ ستطلع روعي . هل زوجتك كانت تنتظرك هذا الانتظار ؟ عندما كانت زوجته في هذا البيت ، كان لا يخرج ليلا . كان يستمع الى التلفزيون مع العائلة ، ثم يصعد مع زوجته الى الطابق الثاني . كانت العائلة كلها تلتف حول التلفزيون ، حتى ماجد ، حين عاد من الخارج ، كان يقضي اغلب امسياته أمام التلفزيون ، امرأة البلد ، كما كان يسميه . وكان يريد ان يتطلع الى هذه المرأة . وبعد خروج حسية تشتت الشمل ، وصمت التلفزيون ، وصار كل واحد يدور في فلكه ، وكأنه لم يعد قادرا على ان ينظر في وجه الآخر . تفتتوا ، للم كل واحد نفسه وبقيت

هي ، فضيلة ، وحدها وفيه الى ما الفته وحملته عبر سني
اليمر الطويلة . تهب في الصباح قبل الجميع يخارها
احساس دائم بأنها تأخرت في نومها . تهب كالمذعورة
تخشى أن يخرج ابوها أو فاضل بدون فطور . تخرج من
غرفتها الى المطبخ ، وتشعل الطباخ ، وتضع أبريق الشاي
عليه . ثم تذهب لتهيئ نفسها قليلا . وتدخل المطبخ ولا
تخرج منه الا بعد ان يتناول الجميع فطورهم . وكانت
تجد لذة في ذلك ، وتفرح بكلمة شكر صغيرة . وفي الأضحى
تذهب للتسوق ، ثم تبدأ بالتهيئة للغداء ، وهكذا دواليك
فلا تبارح المطبخ الا في ساعة متأخرة من المساء . وكان
التلفزيون سلوتها الوحيدة ، الوسيلة المعترف بها لتقلها الى
العالم الخارجي . وحتى هذا سكت . وكلكت على ألبيت
غيمة سوداء خائفة .

زفرت فضيلة ، وامسكت بالسكين الموضوع على
انطاولة بحركة عصبية ، ثم القته بذعر مفاجيء . نهضت ،
لا تعرف ماذا تفعل . عادت فقربت المقعد من النافذة ،
واطفأت المصباح ، وعاودت لعبتها العابثة : الاطلاق على
الشارع الليلي . شبابيك الذهب غرت مواقعها ، ولكن
المصباح في البيت الثالث الى يسارها ما زال مضاء . كانت
الطفلة قد كفت عن اطعام امها بالفاكهة القادمة من الاردن ،
وجلست على مقعد صغير بالقرب من امها ، ونشرت على
ركبتها كتابا كبيرا نحيلاً ، واخذت تقرأ هازة اصبعها في
الهواء ، متطلعة ببصرها الى امها من حين الى اخر .
والام تهز رأسها مستزيدة ، مشجعة أياها اكثر من لعبتها

السابقة : وضع الثمرات في فمها . ودت فضيلة لو تسمع
ماذا تقول الطفلة . حركاتها متزنة ، وأصبعها تتساق مع
هزات رأسها ، والتفاتاتها . لعلها تحكي لها حكاية من
تلك الحكايات التي تمتلئ بها الكتب ، كما تتصور مشوقة
تنسي الإنسان الدنيا وما فيها ، مثلما يفعل ماجد وشامل
حين يخلوان السى كتاب . فتظل تناديهما ... ماجد ،
شامل ، الغداء راح يبرد !

سورة من النعمة غير الارادية جعلتها تزهد في كل
شيء . هبطت من المقعد ، وأغلقت الشباك في وجه رائحة
القداح ، وأدارت زر المصباح ، وجلست جلستها الأولى
تنتظر .

سكون الليل يرسل النعاس ألى جفניה . مفاصلها
خدرة . قدمها تثنان . هومت فضيلة ، ومرت في مخيلتها
صور من حيها القديم ، أيام كانت تبدو وكأن الزقاق كله
يلهج باسمها . فضيلة ، فضيلة ... وآلان ، تبدو
كالحصاة ، منبوذة ، لا احد يعرف من هي ، وماذا تحمل
على اكتافها . افافت من هواجسها على خريشة على
الباب . نهضت . تعثرت في العتبة ، لأنها لم ترد ان تدير
المصباح ، ويستيقظ أبواها . كانت تعرف من القادم لو أنها
سألت زيادة :

— من ، فاضل ؟

— افتحي الباب . فاضل !

دخل ودخلت معه الرائحة الغريبة في حياتها . تلمس
فاضل يدها في الظلمة ، وقبلها ، وعانقها ، واحتوتها
الرائحة المنبعثة من انفاسه اللاهثة . بادلتها العناق .
قالت هامسة « خفت عليك ، اين كنت » ؟

تبدى وفي المطبخ سألته :

— طبعا ، لم تتعش .

قبل يديها . كان يبدو في حالة يائسة ، ضعيفا منهارا .
خالت له متجمعة :

— أنا اعرف انك شربت على معدة خالية . ستقتلني ،
يا فاضل !

دق فاضل على صدره :

— انا المقتول .

— انت الذي تقتل نفسك ، وعلى اي مال ؟

— وكل شيء يقاس بالمال ، يا فضيلة ؟

— لا ، قصدي الذي لا يعرفك لا تعرفه .

— فضيلة ، انت لا تعرفين ما ألحبت . الا يضجرك
ان تكوني دائما وحدك ؟

صهت فضيلة . وراحت تعد العشاء ، وحركاتها
الحادة تعبر عما في قلبها . ثم قالت بابهام :

— وماذا بيدي ؟

تصور أنها كانت تبدي عجزها عن دفع ما وقع .

— كان في وسعك أن تفعلي الشيء الكثير .

— ماذا افعل ؟ اقف في الشارع .

— كان عليك أن تقفي الى جانبها . انها شابة مثلك .

انفجرت فضيلة باكية بكاء خافتا مخنوقا ، لانها شعرت
بظلم شديد . قالت بصوت مخنوق مخافة أن يسمعها
والداها :

— ماذا فعلت لها ؟ كنت وما ازال أحمل شغل البيت كله على رأسي . ولا ادعها تعمل . ماذا تريدني أن افعل لها ؟

رقق فاضل من لهجته :

— على الاقل كنت تقولين لامي وأبي ان لا ينادأها .

— كانا يتصوران أنهما يريدان مصلحتك .

نشقت فضيلة من أنفها ، وقالت :

— كان أبي يريد أن يصبح جدا ، يشتاقي إلى طفل منك في شبيبته ، فتصور ان ...

ولم تكمل . نهض فاضل دون ان يمس الطعام :

— آه ... كلكم اعدائي .

— حرام عليك ، يا فاضل .

توجه فاضل نحو باب المطبخ :

— لا اريد ان اتعشى .

— ستجعلني لا انام الليل .

أفكر أنهم غادروا البيت ، ولم اخرج من غرفتي .
ولو كنت احس بأنها تروح وتجيء هناك ، في الأسفل .
ثم ارتفع صوتها بالغناء . خفق قلبي . أنها تقني لي .
لدعوني . فهل اكرر ما فعلته يوم أمس ؟ هربت حين أمسكت
يدها « ترى ، اقول ؟ » صعدت خائبا الى فوق . احس
بان جسمي مشلول لم اعد ازاول رياضتي السابقة .
وجودها ، او اكتشاف وجودها قيد حركات جسمي ، اطلق
لافكاري ولاحلامي العنان . صرت احس بوجودها أحاسيا
مقضا للمضجع . كأنني مشدود الى حجر في الأسفل .
ماذا يقولون لو قالت لهم ؟ من العار ان أفسد حسن
الضيافة . مثلها لا أريد ان افسده هنا .

هنا ، اه ، هنا . كم احس بالتعاسة وانعدام الوزن !
لو تطول عطالتي فسأبقى حجرا معلقا في رقبة أبي .
لا بد انه سيضجر . تعب وشقي ، وارسل لي الفلوس ،
وإذا به يجد ابنه عالة عليه ، حتى وهو يدنو من الثلاثين .
اجد لكل اكرام من جانبهم تذكيرا بحقوقهم علي . فضيلة
تشملي برعايتها السابقة ، تشمل البيت كله . الجميع
ياكلون ما تطبخ ، ويلبسون ما تغسل . حتى حسيية كانت
مشمولة برعايتها ، ولعلها مثلي لم تقبل بهذه الرعاية

الزائدة فهربت . تريد ان تكون راعية لا مرعية ، ربة ضيف
لا ضيفة . الضيافة ثقيلة ومحرجة . كان لي تاريخ معها .
عرفت غصصها . عندما كنت ارى حسيبة وراء الطست
وتل الملابس الى يمينها ، كنت ارى لمعة الهناءة في وجهها
المدور المحمر . كنت اداعبها وكأئنا اداعب ذكرياتي : « عليك
بالتجويت . ادخلي ضوء القمر الى غرفنا » هل كانت تفهم
ذلك ؟ كان وجهها يحمر ، وجبينها يعرق . تلملم ثوبها
وتحكمه على ركبتيها . الجلسة نفسها . كانت ساقاها
لامعتين ، وذراعاها منظومتين بفقايع حمراء وزرقاء
صفراء وبنفسجية . وكنت اطل واحس بالدوار ، وكأني
اطل على هاوية . قالت : سأشكوك لاهل البيت . قلت :
زهقت من المكوث هناك . رجلاي متخدرتان . ولساني ؟
قطعة لحم زائدة . كنت اريد ان اشعرها بوجودي
التعس . ربما لاستدر الاشفاق منها . او ربما لا . الاشفاق
يثقل على القلب ويجعله كومة من الرصاص . الاشفاق
ثقيل كالاضطرار الى الوقوع في ضيافة ... ضيافة اهلك ،
والانعس ، في ضيافة الاخرين . وكان قد مضى اكثر من
شهرين كنت فيها حبيس تلك الضيافة ... الاضطرابية
المبلدة للحواس .. لا ، لا ... المولدة للواهام . كانت
تفاقم في الشعور بالطاردة ، وتجعلني اتاكل من الاحساس
بالذنب . اقول لنفسي في الليل : لن اهبط اليها اذا خلا
البيت من اهله . سأكفني بالتدفؤ بحضورها في خيالي
ولحظات صعودها لتقدم لي شاي . جعلوها تفعل ذلك .
جعلوني اقر بالامر الواقع . ثم من الحرام ان تبصق في

الماعون الذي يقدمون لك فيه الطعام ، يا ماجد . ثم انها
شابه صغيرة ، وستتضايق منك ، وتفتن عليك . ثم كانت
هناك متعة المفاجأة او وحشة الانتظار . كنت اعيد قراءة
الصفحة الواحدة مرتين او ثلاثا ، لان فكري كان يسرح ،
ويهيئ الدرج ويبحث في الاماكن التي تكون فيها : ماذا تفعل
الآن ؟ كنت اسأل نفسي . واذا جاعني صوتها تصورت
موقعها تماما .

جاءتني فضيلة بقدر الشاي قائلة :

— الذي لا ينزل اليك اصعد له .

— تسلم يداك ، يا فضيلة . شكرا ، الف شكر .

— هذا الشكر ما راح يخلص . متى تشمر أنك في
بيتك ؟

لم اشعر منذ سنين لا اعرف كم عددها . اعترف ان
هذا الشعور يلزمني مثل ظلي . ليس لي شيء في هذا
البيت ، مثلما لم يكن هناك . حشرت به حشرا . كنت
اتحسر حين اسمع الحياة تمور في الاسفل ، لا سيما اذا
جاء ضيوف ، يأتون من هناك ، من خارج الباب الموصود
علي . كنت اسمعهم يتحدثون بأصوات طليقة ، فانكمش .
يمارسون حقوقهم الانسانية . يهزلون يجدون . يمدحون
يشتمون . هذه الحقوق البسيطة كانت محرمة علي . كنت
الترم مخبئي كالخلد الذي يقال انه يولد اعمى . لا ، لا .
انا كسبت العمى في الثالثة والعشرين . مكاسب ثورية ؟
كانوا يقولون انذاك ان المكاسب الثورية تنتزع واحدة ،
بعد أخرى . ولكن لم يفعلوا شيئا . كنت أخشى ان احدث

حركة ، ان اعطس ، ان اكح ، مخافة ان اثير انتباههم ..
اقتصد الضيوف القادمين من هناك . كنت اكنم في نفسي
رغبة ساحقة في ان ارفع صوتي . أنا هنا . الحياة مودة
في اعطائي . اريد ان اتمته ملء صوتي ورثتي . كانت
جوانحي تمتلئ بهذه الرغبة الجنونية . كنت امسك نفسي
بمصر شديد . لا اعرف كيف كنت اوفق في ذلك . كان
كياني يصرخ بي . يتحدثاني ، معلنا تمرده علي بشياطين
شاطرة تجذبني لارتكاب حماقة .

سمعت لفظا في الاسفل . كان الليل قد مضى ثلثه .
وضعت القلم على الورقة ونهضت . وقفت عند الباب
انسمع . اصوات مكتومة . لا . هناك صوتان يتهاوشان .
رجالي مبجوح ، والاخر نسائي ملهوف . في مثل هذا الوقت
كنت اسمع وشوشة في الحجرة المجاورة . الى هذا الحد
تغير ؟ اكرهت نفسي على البقاء مطوي الذراعين على
اوراقي ، اصارع حنقا كظيها على شيء ما ، لا اعرف ما
هو على وجه التعيين ، لو نزلت لرايته في حالة يرثى لها ،
ولتحاساني مظلم الوجه . اعرف حالات تنقلب فيها سحنة
الانسان الى بلاهة مجسدة كمدا او عشقا او سكر او
اندحارا . وكل ذلك ينطبق على فاضل . اصيب بطعنة
موجهة مني ومن الاخرين . كان راضيا بلقطته هذا الرضى
المطلق الذي يسد على المرء سلالم الطموح ، سعيدا
تلك السعادة الغيبية التي تخلق من خلو الذاكرة من الحلم
وشائج لا تنقطع مع الاخرين الا بتقطع نوابض الحياة .
كان فاضل يتصور انه يحتضن الكون بين ذراعيه ، وانه

هشتر على مفتاح سعادته ، وغاب عن الناس ومواضعاتهم
وما يطلبونه من الزواج ، وما لا يطلبونه . فإذا به يجد
الآخرين يتدخلون فيما لا يعنيهم ، ويسلبونه تماسكه . .
تماسك ، يا فاضل . هل تعرف مقدار ما صبرت أنا ، وكتمت
داخل قوقعة نفسي ؟

في اليوم الذي سبق خروجها من البيت كانت طبيعية
يحيي ، ابتسمت ابتسامتها الدافئة الحزينة . كان الحزن
جديدا عليها — وقالت « جرحت اصبعي بالسكين » وارثني
اصبعها المشدودة . هونت عليها . قالت « سيندمل .
وليس كالجروح الأخرى » وهذه أول مرة اسمع منها تلميحا
للشيء الذي حدث بيننا . ولكن ساعتها لم افكر فيه .
كان حضورها يلولب فكري ، ويجعله منصبا عليها ، وعندما
خلوت الى نفسي استوعبت ما ترمي اليه . أم لعلها قصدت
معنى آخر مختلفا تماما ؟ حقا ، هناك جروح كثيرة لا
تندمل ، في الجسد والقلب والفكر واللسان ، وفي الذاكرة
ايضا . وفي اليوم التالي لم ارها ، ولم تصعد الي . كان
البيت غاصا ، وظللت قابعا في وحدتي ، واضعا بين يدي
كتابا ، يشرذ ذهني كلما قرأت بضعة سطور منه . كنت
اسمع اصواتهم ولغظهم في الاسفل . ثم جاء اليوم الثاني
والثالث والرابع ، وهي لم تصعد الي . وأنا لا اجرؤ أن
اسأل . هواجسي تزداد ، سحنتي تتغير ، وكلامي يفقد
تماسكه ، البيت يتحول الى سجن حقيقي . وحين خلا
البيت من اهله . عدت امارس رياضتي المعتادة مفكرا
تفكيرا غيبيا بأنها ، كما كانت من قبل ، قابعة خلف خصاص

ترقبني . كنت اشعر بقشعريرة هذه المرة ، فلم أخلع قميصي وبنطلوني . ولكنني مارست التمارين السابقة نفسها . صعدت وهبطت الدرج عدة مرات ، قلبت « عقربا » ومشيت على الأرض ، حنجلت . اخذت « شنאו » لاهنا فاحا كالثعبان . تدليت من عارضة . تناولت كرسيًا ، ورحت ارفعه وانزله بيد واحدة لتبديد طاقتي الحبيسة ، الطاقة التي كانت تدوي في اعماقي كالحمم ، وتوشك ان تتفجر وتدمرنى . ولكن كنت اقوم بتمثيلية ، هذه المرة ، حماسي جزء من نعمتي وضياعي . امسكت عن هذه اللعبة الحمقاء ، لانني ادركت عبث ما اسمى اليه . لقد اقفر البيت الى ما لا علم لي به .

ذات مرة صعدت الي بقدر الشاي وتفاحة . وقالت :

— تقرا وتقرأ . لازم عندك امتحان .

— امتحان صعب . لا اعرف هل سأنجح فيه ام لا .

— لا بد انك ستنجح . لانك النهار كله حابس نفسك

في البيت .

— لان الحياة هي التي ستمتحنني .

نظرت الي نظرة مستغرقة ، وقالت مصدقة على

قولي :

— امتحان الحياة اصعب امتحان .

وكانت هذه اول مرة يدور بيننا حديث لا تفككة فيه

ولا مزاح ، لا مداورة فيه ولا مناورة . حديث بين قلبين

مستعدين ان يدخلوا في تحالف . سألتها :

— من اين أنت ، يا ... ؟

— انا من قزر باط .

- ونزحت منها الى بغداد ؟
— جئتها مع اختي الكبيرة للعمل .
— ووالداك ؟

— تركنا امي ترعى ابي المتورم الركبتين بورم لا نعرف سببه ، ياتيه في الربيع ، وتمتلئ ركبتاه بالماء .

التزمت جانب الجد ، وتركها تذهب . لم تساورني الافكار الخبيثة التي كانت تغلي في أعماقي كلما رايتها تقبل علي بقامتها الممتلئة المائلة الى القصر . لمع ثوبها الأبيض المورد في عيني مثل ومضة برق عابرة ، حاملا معه لهفتي .

صمت اللغظ في الاسفل . سمعت وقع اقدام مرتبكة على الدرج . فاضل يدخل في حجرته . وحين هذا كل شيء ، سمعت وشوشة مبحوحة في قعر الدار . ربما كان ابي يقظان حين جاء فاضل سكران ، ولم يرد ان يغادر غرفته لكيلا يصطدم في الواقع . أثر ان يتدثر بالذكريات الخوالي ، ان يحتفظ بفكرته عن الزواج المثالي ... انجاب الاطفال ثم انجاب الاطفال الى ان يقصم الله ظهر الرجل . يدي تعبت من سحب القلم على الورق . تركت القلم وارخيتهما . ولكن حواسي متيقظة . وعيناي لا تغمضان . النوم يناصبني العداء . وهو والفراغ لا يجتمعان في شخص واحد . اعرف ذلك من تجربتي ، قضيت ليلي طويلا مسهدة لم تكتحل عيني بالنوم فيها الا مع الفجر . ولان جسدي مرتاح لا يحمل اي وقر ، فانا اناجي افكاري . من مؤهلات النوم ان يوتر جسدك باثقال التعب ، ان تشن قدماك وتصرخا عليك . اما ان تضج نفسك

بالهواجس والظنون والافكار والاحلام والمخارف ، فانك
تجرع حقنة مركزة ضد النوم . جسدي مرتاح ، ونفسي
مضطربة ، عجيب ان الجسد يتعب ويئن من الانهالك .
اما النفس فان لها احاييل خاصة بها لتخزين التعب ،
وامتصاص الصدمات ، وترسيبها الى الاعماق عبر فلزات
ملونة ... التناسي ... التفاضي ... التسامح ...
واني لاعجب لنفسي كم امتصت من صدمات ، واختزنت من
مواد حارقة .

في الساعة الثانية من ظهر هذا اليوم كنا خمسة
مهندسين ننتظر في باب المديرية على امل ان نقابل مميز
الذاتية . اقبل علينا شاب كان يبدو وكأنه يبحث عن وظيفة
مثلنا . الا انه قال بغموض :

— سوق العمل ؟ ايه ، ايتها السواعد المفتولة ،
الى متى تنوين في المدينة ؟

قال جاري على الحائط المتكأ :

— هذا جليل العطار ، فنان متمرد .

قلت ببلاهة :

— ماذا يقصد بعبارته ؟

— انه يدعونا للثورة .

— وضعنا مشجع لها .

بعد الساعة الرابعة اجتمعنا في مقهى « علوان » وهو
مقهى صغير يجاور حانوتا للحلويات ، يرتاده العاطلون من
المثقفين الثوريين ، والمخبرون السريون من ذوي العيون
المنممة ، والاذان المrehفة ، ولعل هذا المقهى هو ألبقعة

الوحيدية التي يتعايش فيها هذان الصنفان في سلام ظاهري على الأقل . رايت الزملاء قد سبقوني . كان الفراغ في عيونهم ، والمثل على أيديهم المرتخية على ركبهم أو على انزع التخت . وكان احدهم يقضم « صمونة » عبثا بشيء ما لا يبتلع بسهولة . فكان يتكور خلف الخدين المنتفخين .

كم انا اكره هذا القطيع ، وكم انا مستسلم لضياعه ، وخدره ! كانت كل كلمة تقال تصاغ لتبدو حيادية ، وبصوت عال اراحة للمخبرين ، على المثل القائل : « احذثك يا بنفي ، واسمعي ، يا جارة ! » وكانت اعلى « ثورية » مضموح بها في هذا الجو ترديد البيت القائل « بلادي ، وان جارت علي ، عزيزة » . فقد كان كل شيء عزيزا علينا : الخبز والبطالة ، النفط والجوع ، والاصدقاء والمخبرون ، الشعب وجلادوه ، مقهى علوان وبار الطاحونة . وصاح الذي فرغ من علك الصمونة :

- انا مطمئن الى بضع ساعات من الان .
- انت شاب ، يا مؤيد . والشباب له القدر .
- ليس كل الشباب ، بل المخلصون منهم .
- كسرت يد من لا يخلص .
- احسان ، انظر الى هذه الفتاة ، ترى : الى اين هي ذاهبة ؟
- « طالعة من بيت ابوها ورايحة لبيت الجيران » . صبت للحظات .
- مؤيد ، ماذا يعرض في سينما الخيام ؟

— لا ادري ، ولكن أعرف ماذا يعرض في سينما النصر ؟

— ماذا يعرض في سينما النصر ؟

— الذي كان معروضا فيها قبل اسابيع .

— حماتي قنبلة ذرية ؟

— ما هذا العنوان الهدام ؟

— ثرثرة في مقهى علوان .

— يا جماعة ، تكلموا عن شيء جدي .

ولم يجدوا شيئا جديا يتكلمون فيه ، فسكتوا ثم جاء جنيل العطار فهشوا به ويششوا ، واحاطوه بـ « الله بانخير » . كان نحيلا رزينا عليه مسحة من حزن محبب يضيفي على قايته الطويلة أنطباع « شمعة تحترق » . ولم لا ؟ ألم يقولوا انه فنان ثوري ؟ وكانت « الثورة » كلمة سحرية رومانطيقية مثل جيفارا وكاسترو وكوبا وبوليفيا والبور الثورية ، وجدت من حولي من الشبان يتهايمون بها ، ويتمطقون . وقال أحسان مخاطبا جنيل العطار :

— ألاخ ماجد هو اخو شامل عبد الواحد ، صاحبك

في معهد الفنون .

— صاحبي ؟

تسأل ببراءة واستنكار ، وشمطني بنظرة نارية الهبت مؤخر راسي . ثم قال وكأنه يبدأ بسرد حكاية :

— شامل جسور .

نظرت اليه ، لاسمع المزيد . انا اعرف اخي .

جسور . قال مختتما حكايته :

٥ - يشغل قسم التمثيل كله بمسرحيته . اعطني كتابك يا مؤيد .

- كتاب تافه .

تبرع احسان ليقول ذلك . مؤيد :

- على هذا تلاحقني ؟

احسان :

- أنا افضل التسكع على قراءة كتاب تافه .

- ليس تافها كليا ، بل مضجر . ونحن على سنة

النواسي . وداوني بالتي كانت هي الداء .

قال الذي كان قد اطمأن لبضع ساعات :

- اذن ، متى ستبدأ بالدواء النواسي الحقيقي ؟

- المساء لم يقبل بعد .

- لن تجد مكانا في البارات الرخيصة ، اذا تأخر

الوقت .

وصار احدهما يستحث الآخر بطريقة من الطرق
يعتبرها غير مقصودة . ونهض الجميع ، ونظروا الي .
احسست بالمغناطيس الذي في عيونهم . لم ارد أن اذهب
معه ، والله العظيم ، فانا اكره الخمرة . ولكن تصورت
الفراغ الذي سيبتلعني بعد غيابهم . نهضت . واستسلمت
الى تلك العفوية المخدرة التي تستحوذ على القدمين دون
ان يدري صاحبها ، وكأنه مقامر دخل لعبة ولا يريد ان
يخرج منها الا مع الرهان الاخير . سرنا مثل غلول . رايت
شمس الاصيل تتوارى وتشعث سقف النخيل في الجانب
الاخر من النهر . في تلك البلاد كانت تخفي وراء بناية
شاهقة . ترى الدنيا عسجدية ، احيانا ، وفجأة يحل اللون
الرمادي الباهت . ويبقى مدة لا بأس بها ، وتمتريك وحشة

الغروب مثلما تعتريك الان فستغيث منها بسينما وبمسرحة
او بقاء مع واحدة من الجنس الآخر . اما هنا ، فحماتي
قنبلة ذرية . وبار الطاحونة . رايتهم يقفون امامه ، وأحدهم
يقول للآخر « احسن منه لا تلقى » .

كان البار اشبه بالمغارة ، له نافذة عريضة مقلمة
بقضبان معوجة ، وقد لاح منها بطن ألجبر ، وقد تلونت
اضلاعه بشمس الاصيل الفاربية . قال جليل الأعطار :

— هذه الاشعة تذكرني بشمس المعتقل ، ايام ٦٢ .
قال مؤيد :

— وظلت تلاحقك حتى الان كاللعنة ؟
قال جليل :

— لا ، ابدأ . كان ذلك المعتقل معتقل جبهة وطنية .
كان يضم شيوعيين وبعثيين وقوميين وسائر اقلية
الوطنية .

قال احسان :

— يا اخوان ، للجدران اذان .

قال الذي كان يملك صمونة ، واسمه حيدر :

— في ذلك الوقت كنت في الكويت .

— واين كنت ، يا ماجد ؟

قلت باستحياء :

— كنت مختفيا في احد البيوت .

وشعرت بجفاف في حلقي . كأن كل الاشياء تتآمر
عني لتنبش الماضي ، الذي كنت اتصور انه قد انقبر او

اندثر ، وغاصت اثاره ، ندوبه ، تحت ركام من الهموم
الآخري . ولكن للماضي قوة للتحدي والمراوغة في كل لحظة
من لحظات الحاضر .

قال مؤيد :

— أما انا ، فكنت مع الشعب في محنته .

— فكسبت الثواب ، اليس كذلك ؟

قال حيدر ذلك ، وضحك . ثم صمتنا حين جاء
النادل . وقدمنا طلباتنا متفرقة ناطة كتفيزات العنز .

قال جليل :

— عجيب هذا البلد ، لا يخلو سنة واحدة من معتقل .

قال مؤيد :

— أينما رأيت معتقلا وجدت روحا ثورية حوله تحوم .

— من قال هذا ؟

— احد الثوار لا انكر اسمه .

قال جليل العطار كالنائح :

— وما اكثر الثوار حين تعدهم ، ولكنهم في النائبات
قليل .

جاءت الخمرة وملحقاتها من الماء والثلج واللبن الزبادي
وصحن مزة مشترك للجبيع .

قال احسان :

— نحن نضرب الامثال دون ثمرة ، حتى خبزنا
اليومي لا نحصل عليه .

قال جليل :

— اذا حصلت على خبزك اليومي كفتت عن ضرب
الامثال ، بل وحتى عن التفكير .

قال مؤيد :

— لا ، يفكر ، ولكن بطريقة غير ثورية . الخبز
والثورة كالماء والنار لا يجتمعان في كيان واحد .

قلت :

— دوستوفسكي يقول : أأخبز والحرية لا يجتمعان .

صاح احسان :

— دوستوفسكي كاتب رجعي مثالي مصاب بالصرع .

قال مؤيد :

— الدفعة المعتادة .

قال جليل بعد جرعة كبيرة :

— سنصاب جميعا بالصرع ، اذا بقيت الأمور على
هذا المنوال .

قال مؤيد :

— سنلجأ الى ما يصفه احد ألكتاب بالكذب المنقذ .

— دوستوفسكي يقول هذا شخص يكذب كما
يتنفس .

— اكذبوا تصحوا ، او قل نعيشوا .

— اشربوا تنسوا .

— كأأك احسان .

— لن ينقذنا شيء — قال جليل بحماس — — ألا
مواجهة الحقيقة .

مؤيد :

— والحقيقة ؟

— نحن خاملون .

— الان ؟ في هذه الحانة ؟ نحن في منتهى الثورة .

— اسكت ، احسان ، الثورة في مواجهة الحقائق ؟

— واين نواجهها ؟

— في التعبئة الجماهيرية .. وليس كما يفعل البعض .

— انا ضد تعبئة الجماهير في الحانات .

— انت تعرف ماذا اقصد .

بدأت الكؤوس ترفع بتعاقب متزايد . وقال مؤيد
لتخفيف توتر الجو :

— دعونا نسمع رأي ماجد . لماذا هو صامت ؟

قلت بسرхан ذهن :

— كل شيء متوقف على اللحظة الثورية .

قال جليل :

— وما اعظمها من لحظة ثورية . تدمر ، نقمة ،

فساد ، رشوة ، وحكومة عاجزة حتى عن سداد رواتب

موظفيها . فماذا تريدون ؟

قال احسان محتجا بصوت خفيض :

— ولكن مثل هذه الاحاديث لا تجري في المقاهي

والبارات .

— واذا كنا قد حررنا من ابسط حقوق المناقشة

الحررة ؟

- من حرمك ؟ ولكن ليس في البارات .
 طق جليل اصبعيه وقال :
- آها ، وضعوني في شرك ، وقالوا لي : ألق خطبة الجمعة .
- قال مؤيد :
- بدأ سكرك مبكرا ، يا جليل .
- هؤلاء يسكرون الذي لا يسكر .
- لا تحارب عدواً خيالياً متوهماً . حارب عدوك الأصلي .
- هل تتهمني بالجبن ، يا احسان ؟
- لا ، واكرر ليس من الشجاعة أن تطلق لعواطفك العنان في البارات .
- ماذا تريد مني ... أقف في ساحة التحرير ، واصرخ : يا عالم ، يا ناس ، كذا وكذا ..
- لا اريدك أن تصرخ ، اريد أن تناقش .
- تفضل ، ناقشني .
- قلت لك : ليس هنا ، والاعصاب متوهجة .
- الاعصاب دائماً متوهجة . هذا من ثقل الواقع الكابوسي ..
- الخمرة تزيد من توهجها . الخمرة تؤجج لواعج النفس ، وتضخم المتاعب . وتقرب الأمل وتبعده ، تماماً كما يحدث في حين يتسلل المرء بالنظر في منظار من عدسيته الامامية والخلفية بالتناوب .

— لا فض فوك ، يا احسان .

قال جليل :

— الحكمة تعني فلسفة العجز ، احيانا .

— لا تدعنا نتبادل الاتهامات .

قال مؤيد متذكرا :

— لم نخل مرة الى الخمرة ، الا وكانت السياسة
ثالثتنا .

ساد صمت . حقدت على جليل في سري ، حقدت على
هذا الاهدار العنيد للطاقة الروحية . ولكن لا بد من أن
هذا الغمز واللمز يشير الى تاريخ شائك من العلاقات
انخاصة والعامة . فضلت الا اجادل . في زماننا كنا نتجادل
ونصرخ وندق على صدورنا . وكنا نخلط في العناوين ايضا .
وهذا جيل يبدو غريبا عني بعض الشيء ، في حيويته الزائدة
وقنوطه الشمشوني . ولا بد ان له اسبابا كثيرة لاثارة
الزوابع والتلذذ بالسورات التي تحدثها طاقة نفس حبيسة
تدور هناك في الاعماق .

الصمت القصير اراح الاعصاب كثيرا . قيلت كلمات
متقطعة للمجاملة ولاراحة النفس . وتبدلت كلمات
متهامسة في جناح اليمين وجناح اليسار من المائدة التي
اشتغل مؤيد في ان يحفظ توازنها بوضع علبة سيكاثر مطوية
تحت إحدى أرجلها ، وليمنع الارتجاج والرنين بين الاقداح
والزجاجات .

همست لاحسان جاري :

— يبدو ان جليل متالم كثيرا .

— يعاني من شيء ما — قال بالهمس نفسه ، ولكنه رفعه قليلا حين قال — ولكنني اعرف اعماقه .. انها طيبة .

وكأن جليل سمع « طيبة » ، فقال كالترنم ليثبت ذلك :

— ولا يبقى امامك غير الانتحار ، كشكل واحد للبطولة في بعض الاوقات .

قال مؤيد ، وقد فرغ من تثبيت المائدة :

— الانتحار لا يحل معضلة .

— على الاقل مع نفسك . عندما لا تجد مجالا تنفس فيه عن حمك لا تجد غير نفسك لتفجرها .

قللت :

— المنتحرون يخسرون حتى طيب الذكر .

— هذا ما يقوله بعض الناس . اما هم فقد ماتوا مضحين بأنفسهم احتجاجا على بلادة العالم وجموده .

تمتم احسان بشيء ، واشاح بوجهه :

— وبلادة العالم لم يأخذوها معهم .

— الانتحار ضرب من البطولة .

وبدت عليه كآبة قسرية مفاجئة . عصر الكأس بيده ، وشرب جرعة ، وتهشمت تقاطيع وجهه ، فقذف الكأس صوب النافذة المفتوحة . ونط وكأنها يلحق حطامها . في تلك اللحظة بدا النهر قريبا جدا . فما هي الا وثبة اخرى ، ويكون في احضان النهر . الا اننا كنا مطمئنين الى ان قضبان النافذة ستقيه كل مكروه . راقبناه بالقرب منها ، يحاول ان يفلت ، ويحشر كتفه بين قضيبين معوجين ، ويعاركهما .

لخذنا نتأمل محاولته ، وكأننا نشهد مشهدا سينمائيا عن
بمرار سجين . كان قلبي مع السجين ، اريد ان تصل
بمحاولته الى غايتها . كنت انتظر لحظة الانفلات ، واخشاها
في الوقت ذاته . صرت وكأنني اراقب شخصا يمشي على
حافة هاوية . يبدو ان الحديد استجاب لقوة حنقه .
ارتجفت يده بتوتر مرتعص ، وانفرجتا ، ولاح رأسه واضحا
بين القضيبين المعوجين . الا انه عدل فجأة ، حين التفتت
التفاتة مفاجئة الى يساره ، في الزاوية المظلمة هناك ،
فقفز الى هناك ، وابتلعته الظلمة . اهتزت المائدة حين
نهضنا دفعة واحدة ، وكادت تنكس . بعد خطوتين رأينا
فجوة غير منظورة في الجانب الايسر من الصالة المطلة على
الشاطئ . ورايت شبحا يترنح متجها نحو لمعان الماء . لم
يستطع مؤيد ان ينفذ من الفتحة ، فاتجه نحو الباب في هرولة
صاخبة ، بينما استطعنا نحن ان ننسل عبر الفتحة نفسها
واحدا بعد الآخر . وكنت اخرهم فسمعت صياح النادل
« عمي ، وين رايعين ؟ والحساب .. » ولم احفل به .
كانت حياة احدها في خطر . كان البار يجاورباحة تستخدم
موقفا للسيارات . كانت الباحة عالية الى يسارها ،
وامامنا منحدر الشاطئ الوعر . ولكن النهر لم يكن بالقرب
انذي تخيلته به ، وانا جالس الى المائدة . كان السير على
انشاطىء المنحدر ، وفي الظلام ، ليس بالامر السهل .
الصخور حادة ، والفضلات والزجاجات المكسورة تخشخش
تحت الاقدام . وحتى جليل ، المصمم على « الانتحار » كان
يجد عسرا في الوصول الى احضان الموت غرقا . كان

شبحه الطويل يتمايل مثل شجرة في مهب ربح غير منظورة،
وكان يقصر ويطول ، وتبتلعه الأرض ، ثم يبرز شبحه
منها في اصرار عنيد . كان يكبو ، على ما يبدو . تقافزنا
خلفه كالارانب ، ولولا كبوته الأخيرة لما استطعنا اللحاق
به ، ولاعطينا شهيدا لـ « بلادة هذا العالم » مجانا .
امسكته من يده اليسرى ، وامسكه مؤيد من خلف . كنت
اسمع لهاث مؤيد المتحشرج . بينما وقف احسان حائلا
بينه وبين النهر الذي كان ما يزال يبعد اكثر من متر .
شعرت بلزوجة ، وانا امسك معصم جليل . لا بد انها
لزوجة دم . وحصرنا « المنتحر » في كماشة ثلاثية . كان
يقعد على الحجارة كتلة غامضة من الافكار والتمنيات ،
الرضوض والانسلخات . قال مؤيد في الصمت المظلم :

— لم كل هذا ؟

— تتصورونني جبانا لا اقدم على شيء .

— لا احد يتصورك .. لعله شعور بالذنب .

— انتم المذنبون ..

— ما يخالف ، كل شيء نحن .

— وهذا لا يمدني بذرة من الطمانينة ... ستقع
كارثة من هذا الاعتراف ..

وغرقنا في نهر الصمت جميعا ،
شهداء احياء لواقع يحاول كل واحد ان يملأه بالكوابيس
انتي تتراعى له ، وتلتف حول رقبتة . نهر الصمت بارد
ومكبوس ، ونحن الفرقي ، نرفس داخل كيسه المطاطي .
اوصلنا جليل الى بيته ، صامتين . وعدت انا الى
غرفتي ، لاخلد الى اوراقتي ..

ايه ، ايتها الوراق ! لماذا حين احتاج اليك لا اجدك ،
وحين يخلو رأسي من كل فكرة أجدك مكومة أمامي كعملة
ورقية لقوم انقرضوا .

في اليوم التالي حدثني احسان كثيرا عن النشاطات
الجارية في الخفاء ، عن الحركة القوية بين الطلبة ، عن
تفجر قطاعات كبيرة من الناس ، عن تيارات ومسارات
اخرى لا يجوز البوح بها . ولكن سوداوية جليل ظلت
تفرقني في لجتها الكابوسية . من أين كل هذه الكآبة ؟ ما
مبعثها ؟ الخيبة ؟ فقدان الامل ؟ جراح الماضي المسمة
للنفس ؟ كل ذلك جائز . ولكن بدا لي ان السبب الاقوى
هو عدم الاقتناع بما يزاوله في حياته العامة والخاصة ..
التفجع على شيء مفقود كبراءة الطفولة .. آه ، كم
تفجعنا ، بغموض حزين ، على شيء يفلت منا ، دون ان
تسنى لنا لحظة النظر في ملامحه الحقيقية ! يبدو ان مئات
من الرغبات الطارئة والملحة المزوجة باللحم والدم تحتضر
وتموت كل ساعة في اعماق نواتنا ، دون ان نملك الجرأة
على تسميتها باسمها الحقيقي ، فتنسج في شراييننا انسجة
عنكبوت لزجة ممرضة معوقة .. انا اعرف موت الرغبات
المجاني هذا ، اعرفه من تجربتي الخاصة ، وكيم من
المفجوعين برغباتهم انتموا الى الحركة الثورية لهذا السبب ،
قبل تلك الاسباب التي تأتي معرفتها فيما بعد عادة . ولعل
جيلا احد هؤلاء المفجوعين . شاب وسيم مقدود القامة ،
تشع الحيوية في عينيه ، وحركات جسمه كله . لا اظن انه
ينطق عن سوء نية . شيء يتفتت في نفسه ، ولا يعرف كيف

يوقفه ، ولا حتى كيف يتخلص من ترسباته في قعر ذاته ،
فيحس بالضيق من تكالب مردة غير مرئيين ، لكنه يحسهم
بما ينفثون من سموم ، بالضجر والضيق وارتقاء الحياة ،
وتعاقب الليل والنهار بدون تغير ، وبخذلان الأحلام ، وبموت
الرغبات . والانتحار هنا ، في ذلك الضياع الباحث عبثا عن
مخرج . وأي ضياع سام هذا ، حين تحس ، وانت الربان
الماهر لسفينة الأحلام والاماني الكبيرة ، بأنك غير قادر
حتى على ان تكون نوتيا نافعا لقارب صغير حولته بضعة
ارطال من خداع النفس . الضيق ، هذا الضيق الذي
يمزق شرايينك يجعلك تتشبث في خلق عدو قريب منك ،
حتى ولو كان جزءا من كيائك ، لانك تعرف انه يتحكم اكثر
من غيره من الناس . وبالكلمات الكبيرة المعجزة الشبيهة
بنوبة بكاء حادة ، او صرخة الم جارحة ، تنفث سمك ،
وترمه عن نفسك بعض الشيء . يبدو اننا ، نحن العراقيين ،
لا نستطيع ان نعيش بدون سياسة . السياسة كالخيمة ،
عفوا ، كالقبة السماوية ، نحس بكل ما يجري تحتها من
زوابع واعاصير ، من نسائم وامطار ، من جفاف وخصب .
لا اعرف في اية مجلة قرأت ، او في اي كتاب ، قول احد
الكتاب الفرنسيين بأن شخصياته اذا لم تتكلم بالسياسة ،
فانها لن تصور قومه الفرنسيين في عام كذا . لا ادري .
نسيت ! اما انا فأقول ان العراقيين اذا لم يتكلموا في
السياسة فانهم لن يشبهوا العراقيين في كل العهود
والازمان .

اننا في السياسة نحصل على هويتنا المفقودة ، ونلج
عالم الفرسان الشهداء ، ونعوض عن الخسارة والحرمان
والشباب المهدور ، ونحول عاطفته الى حماس نبيل . ألم
اهتف ضد الحلف الباكبستاني التركي ، وأنا في المتوسطة ،
دون ان اعرف ما هو ؟ ألم اتن لو اسقط شهيدا في المظاهرات
في نصره مصر ؟ ألم آسف ، لانني لم اكن جنديا بسيطا في
صبيحة ١٤ تموز ؟ و ... و ... و ...

ولم يكن صدق العاطفة ، ولا حماس اليقين مفقودا
في كل ذلك .

« الوقت عصر . شامل جالس وحده في حجرة
الدرس يهيم المشهد الاول من مسرحية « عقاب الضمير » .
يكتب ، ويشطب . ينكب على الورق ، ثم يشرذ ذهنه ،
ويخلق في الفراغ . القلم مرتخ بين أصابعه . الواقع انه
كان يهيم لمشهدين : مشهد المسرحية ، ولشهد اخر كان
يتصور انه لا بد ان يقع بينه وبين سناء ، بعد أن تكشف
علاقته الجديدة مع فتاة ، هي الابنة الخامسة لاستاذ الآلات
الشرقية العجوز ، عدیل مدير المعهد ، وذی الحظوة لدى
انسلطات العليا . كان ينظر الى الباب متوقعا قدوم
الممثلين ، ولكن الذي حدث شيء اخر لم يكن على البال .
دخل جليل مدلهم الاسارير ، مدید القامة ، ناويا على شر ،
حتى اذا دنا منه غرز سبابته في صدره .

جليل : دعني اقول لك : لا تتحرش بهذه الفتاة .

شامل : اية فتاة ؟

جليل : لا تتغاب ! الا تعرف اسمها ؟ هيفاء .

شامل : (ينهض محتجا) ماذا يعني هذا ؟

جليل : يعني انذارا . لعلك تتصور نفسك ذكيا ، وتحسب
انك ستفوز بغنم كبير . انت مخطيء . ونصيحتي لك

ان تبتمد عنها . وهذه النصيحة ليست من اجلك ،
بل من اجل اخيك ماجد .

شامل : (محتدا) لا تشرك اخي في الموضوع . وانا حر ،
واعي ، واحسن التصرف .
جليل : هذا ما تتخيله . ولكنك صبي لا تدرك ابعاد ما أنت
سالكه : وستصاب بالخيبة .

شامل : انا لا اسمح لك بهذا .
جليل : انا اعرف تصرفاتي .

جليل : ستكتشف هيفاء ما ترمي اليه في علاقتك ، وستصغفك
فتجرجر اذئال الخيبة .

شامل : ارجوك . قف عند حدك .
جليل : لا اظنك صادقاً في علاقتك الجديدة ، مثلما لم تكن
صادقاً في علاقتك القديمة .

شامل : (يحتد) قلت لك لا تتدخل .

جليل : ثم ، الا تكثر بأقوال الناس ؟ ماذا يقولون حين
يرونك تراوح بين فتاة واخرى ؟

شامل : هذا شيء يخصني ، فليقولوا ما يقولون . انهم
يتوهمون اشياء زائفة ، يبنسون عليها احكاما
واهية . فما لي واحكامهم ؟

جليل : (بنوع من السخرية الباردة) يعني ان علاقتك
بسناء كانت واهية .

شامل : لم تكن هناك اية علاقة .
جليل : والتصاقت بها طوال هذه الاعوام ؟

شامل : (نافضا كتفيه) مجرد زمالة . والناس مفرمون
بتعقيد الاشياء .

جليل : كم اود ان تكون صادقا !

شامل : اسمع ، يا جليل ، انا لم ابخلنفسى ان أسألك عن
شؤونك الخاصة ونواياك ، فلماذا تتدخل في
شؤوني ، وتستفسر عن نواياي ؟

جليل : لان القضية لسم تعد تخصك . أنها مسألة اخلاق
ومثل .

شامل : لا تمزج الاخلاق والمثل بمسألة بسيطة . ثم لعلك
تعرف أن الاخلاق والمثل لم تخلق الا لخدمة الناس،
وليس بالعكس .

جليل : اهذا مبدؤك في بدء حياتك العملية ؟

شامل : نحن نعمل بهذا المبدأ ، وان كنا غير صريحين فيه .
جليل : اذا كنت صريحا ، فاكشف لسناء عن علاقتك
الجديدة .

شامل : سناء ليست عمياء ، كما أنني لا امارس اعمالى
بسرية ، كما يفعل البعض . انا مكشوف ، ولا
اخفى شيئا .

جليل : لو كنت صريحا لقلت لهيفاء اننى مهتم بك ، لاننى
على ابواب مستقبلى العملى .

شامل : ليس لمستقبلى اية صلة بانسان غيري . انا اصنعه
واخلقه ؟

جليل : اوه ، هذا الاعتداد الفارغ .

شامل : ثم الا استطيع بعد كل الذي أبحتة لنفسك في
التدخل بشؤوني ان اسأل : لماذا تهتم بهيفاء بهذا
الشكل ؟

جليل : انها قصة معقدة اكبر من ان تستوعبها بكل
ابعادها .

شامل : اها ، قصة معقدة .. لعبة ! اتحسب ان الناس
لا يعرفون بها ؟

جليل : لولا معرفتي بأخيك لصنعتك .

شامل : (بتوتر) اتحدأك ! هيا ، ارفع يدك ، اتحداك .

جليل : (يقترب منه ، يبخلق فيه ، يستصفره ، حين يرى
تقاطيع شامل الصبوية توشك ان تنفجر باستغاثه
او بكاء) انذرك للمرة الاخيرة بأن حساباتك
ستخيب ، وان ما تتوقعه من غنم لا يساوي عشر
ما تتكبده من خسارة اخلاقية . (يتجه نحو
الباب) .

شامل : (ورائه) عن اية خسارة تتحدث ؟ عن خسارتي
ام خسارتك ؟ الفتاة عرفت لعبتك فأصيبت بما
أصيبت به .

جليل : (عند الباب) ذلك خير من ان يكون زنيما (يصفق
الباب) .

شامل : الزنيم من يفرض نفسه على الآخرين (يلوح
بذراعه ، ثم يجلس هامدا . وبعد لحظات يعود الى
اوراقه ، ويحاول ان يتابع تفكيره السابق . الا
انه لا يستطيع . ينهض . يزرع الغرفة في مشية

مرتبكة . يهز ذراعه ، وكأنه يدافع صامتا عن موقف . الطلبة يدخلون) .

خالد : شامل متلبس بموقف تمثيلي .

سناء : لا بد انه يستعيد دوره الخاص الذي لم يفصح عنه ، حتى الان .

عنوان : لا بد ان يكون أعقد الادوار .

لطيف : لا تضايقوه !

جلال : نحن اصحابه .

حسن : اقيموا ، بني امي ، صدور رماحكم

فاني الى اهل سواكم لاميل ..

جلال : الفن من ارومة واحدة .

لطيف : الا تلاحظون أن لسان حسن قد اختفى ، وراحت تصدح السنة الشعراء ؟

حسن : الشعر لسان الانسانية جمعاء ، تجده يشدو لكل الاجناس .

خيل صيام ، وخيل غير صائمة

تحت القتام ، واخرى تملك اللجما

جبار : هيا ، يا شامل ، لا تجعلنا نملك اللجم من نفاذ الصبر .

شامل : اين التفات ؟

لطيف : تشرب القهوة مع هيفاء .

شامل : ستؤخرنا . اليوم دورها . لماذا لا تدعونها ؟

جبار : ناديتها . ولكن اذا اشتركت امرأتان في حديث ،
فلن تفكهما ، ولو بكلايتين .

جلال : حديث عاطفي .

خالد : عن القسمة والنصيب .

لطيف : النساء متكاتفات اكثر من الرجال .

حسن : ان النساء كأشجار نبتن معا

منها المزار ، وبعض المزارع .

جلال : اما الرجال فجزر وسط المحيط يفتقد الكثير منها الى
فنار يهتدى به .

شامل : فنارنا الهادي انفسنا .

خالد : ستقتلنا بثقتك الباردة .

جبار : اذا بقينا على هذا النوال لما اكملنا المسرحية في
نهاية العام .

خالد : يا شامل ، قل بصرحة : هل الفصل كامل ؟

شامل : الفصل كامل يتكشف عن مشهد مبتذل . الابن

الاكبر يغازل زوجة اخيه . المهم في المسرحية

الحديثة ان تصدم . وسأشبع المتفرج في مسرحيتي

بالصددمات . ذلك لان الحياة الحديثة تتكشف

دائما عن مفاجآت ، هي في الواقع حقائق تغافلنا

عنها ، او لم نعرها انتباها . وحين نفاجا بها

نصدم ، ونصاب بنكسة . بينما هي ، في الحقيقة ،

تحيطنا كالالغام المتفجرة ، وتخرج السنثها علينا

زراية ونكايه ، واستهجانا من غفلتنا .

- خالد : هذا هو الشك بعينه .
- شامل : لولا الشك لما كان اليقين . اليقين الغيبي لا
اقره . انه استسلام .
- جبار : وجنة القناعة ؟
- شامل : جنة للخوعين والمستضعفين .
- جبار : اليس لك قناعة في شيء ؟
- شامل : القناعة عملة زائفة لا تشتري بها كسرة خبز .
- لطيف : ولكن تهديك راحة .
- جلال : نوم اهل الكهف .
- حسن : القناعة كنز لا يفنى .
- شامل : لانه كنز من الاوهام .
- علوان : ما اجتمع العراقيون في مجلس الا اختلفوا .
- جلال : يبدو ان شامل متوتر من شيء ما .
- علوان : ويحمل لابطاله ضغينة .
- شامل : لا ، ابدأ . أنا أرثي لضعفهم وهوانهم .
- اميرة : حكمت عليهم بالضعف ، ثم جاء رثاؤك . ذلك هو
التحامل بعينه .. بينما الكاتب يجب ان يفهم
ابطاله ، ويبرر افعالهم .
- شامل : انا لست كاتباً . انا قاض .
- خالد : وتحكم عليهم بالتعاسة .
- شامل : هم الذين حكموا على انفسهم بها ، من جراء
تصرفهم المهين .

جبار : انت الذي خلقتهم في فكرك ، وجعلت لهم هذا التصرف المهين .

شامل : انا حرب على المهانة . انا لا اطيق انسانا يهين نفسه . لقد اهين الانسان بما فيه الكفاية ، والان يجب ان يقف ضد المهانة بكل انواعها .

خالد : اسمع ، يا شامل ، انا لا اسمح لك بأن تهين الشخص الذي امثل دوره . انت تعرفني . انا حساس ، وصاحب انفة . ان الشخص الذي يتحمل الاهانة ، ويتجرعها ينطوي على وضاعة . بينما قلت انت : أن الاب عصامي كون نفسه بنفسه . انه رجل صاحب ارادة ودأب .

شامل : صحيح ، ولكن يبدو ان العرق دساس . لقد عاد الى اصله . لقد قلت في المرة السابقة انه موزع النفس بين حاضره وماضيه .

خالد : وكيف تبرر ذلك ؟

شامل : في سلوكه الفالت مع ابنائه . العاطفة الجاهلة تهشم شخصيته . لا تفكير ، ولا تعقل . واذا به يفاجأ بثمرة ضعفه .. هروب زوجة ابنه .

علوان : اذا كان احد سيفاجأ فهو زوجها .

جلال : الزوج اخر من يفاجأ .

جبار : اسمع ، يا شامل ، هل كان بين الزوجة ألهاربة وزوجها حب متبادل ؟

شامل : كان بينهما حب خامل مبتذل يقنع بغرفة وفراش .

حسن : أي كما قال الشاعر :

واعجبها من عيشها ظل غرفة

وريان ملتف الحقائق اخضر

ووال كفاهها كل شيء يههما

فليس لشيء اخر الليل تسهر

شامل : كل شيء الا ملتف الحقائق .. عسى أن تعيش
بخن .

لطيف : شامل مستعد لان يضرم النار في كل ما اقتنعنا به
وتواضعنا عليه .

جلال : لا تعرف كيف يفهم الحب .

علوان : ربما لا يقر بوجوده كليا .

لطيف : الفاشلون في الحب وحدهم ينكرون وجود الحب .

حسن : لولا الحب لتيسرت جوانحنا .

شامل : انا ضد الحب القانع الخنوع ، ضد الحب المتسول .

حسن : انت ، انت يبدو ... اوه ، اعوذ بالله (يرفع
رأسه بالدعاء) اللهم قني هذا اللسان الفالت .

لطيف : سطره بببيت شعر .

حسن : انه لم يلتذ كما التذ العباس بن الاحنف حين قال :

ما انس لا انس يمنها معطفة

على فؤادي، ويسراها على راسي

وقولها : ليته ثوب على جسدي

او ليتني كنت سربالا لعباس

- اوليته كان لي خيرا ، وكنت له
من ماء مزن فكنا الدهر في كاس
- لطيف : حسن يواجه تحديات العالم بالشعر .
- جلال : لكل منا درعه الواقية يواجه بها تحديات الحياة .
- جبار : يبدو وكأنه سيد الموقف .
- علوان : كما الحال مع شامل .
- اميرة : يصدر حكمه القاسي بتمزيق عائلة .
- شامل : عائلة خلقت لتكون ممزقة .
- خالد : (بثقة) سناخذ مصيرها بأيدينا .
- شامل : لتخلقوا مسرحية ميلودرامية .
- جبار : ولتكن ميلودرامية . أنها وقفة لالتقاط الانفاس .
- شامل : وقفة خادعة في طريق لا يحتمل على ظهره الواقف والملوكى والعائر .
- جلال : اسمع ، يا شامل . العقدة لا تعجبني ، أن يحب
الاخ زوجة اخيه . ذلك غير مقبول شرعا .
انا اعرف ان اخوانا اختصموا على فتاة واحدة .
وذلك اصوب واقرب الى الشرع .
- شامل : وما المقبول شرعا عندنا ؟ معاقرة الخمرة ، مزاولة
الدعارة ، الاغتناء بالربى ؟
- خالد : انت تقول ان الابن الاكبر كان في الخارج ، ودرس في
اوروبا . يعني انه مثقف . وزوجة اخيه ، حسب
ما تقول ، جاهلة ، من وسط وضع . فما الذي
اجتذبه اليها ؟

شامل : ضعفها ، استسلامها الرخو . كانت تبدو مثل
معزى بلا راع . كانت تستسلم للفراغ والدعة .
ولا بد أنها كانت تحلم بشيء يهز حياتها . فلما
رأته يطل عليها ، حليقا معطرا ، استسلمت له ،
ولم يتورع هو عن ان يشاركها اثمها .

جبار : وتجعلني ، أنا زوجها ، ديوثا .

شامل : المفروض فيك ان تخرج في الصباح لعملك . ولا
تأتي الا في المساء متعبا ، مثلما وصفتك ، جرذا
خارجا من نخالة .

جبار : وهل هذه المكافأة التي تقدمها لكدحي الشريف ؟
اهذا حكمك على الآلاف من امثالي ؟

علوان : اغفر له ، من اجل تقديم عمل مسرحي جيد .

جلال : نية سيئة لتقديم عمل يهز المشاعر .

شامل : انا لا احكم حكما شاملا . انا احكم على حالسة
بعينها .

لطيف : شامل لا ينظر الى ابطاله من الداخل . ابطاله
قطع شطرنج .

جلال : ضحايا يسوقهم للذبح .

جبار : ولا يعطيهم اي صوت .

خالد : كل ذلك ليثبت شيئا يخرش في صدره .

شامل : اريد ان اهز المتفرج ، ان اوقظه من حلمه على كرسي
مريح .

علوان : ليست في مسارحنا كراس مريحة ، او قل ليست عندنا مسارح .

جلال : شامل ، لا تضع توقيعك على الصورة منذ الان . . ودعها تنمو ببسر . هل حكيت لكم قصة التوقيع المسبق ذات مرة ؟

علوان : هاتها ، لاسمعها للمرة العاشرة .

جلال : في المتوسطة كان عندنا معلم رسم اريحي كريم . كان يأخذنا الى المرسم موفرا لنا كل شيء من الفرش والاصباغ والاقلام ، والورق . وكان يقول لنا : تفضلوا ، ارسموا ! وكان في صفنا طالب كان يحب ان يضع اسمه على كل شيء ، فكان يأخذ ورقة بيضاء كبيرة ، ويذيلها بتوقيعه اولا ، قبل ان يبدأ برسم خط واحد . ثم يبدأ بتفكير عميق ، ويشرح احلامه ومشاريعه ، وما سيخرج من تحت ريشته . ولكنه لا يوفق الا في رسم خط او خطين ، ثم يرمي الورقة البيضاء من غير سوء ، الا من اسمه . فكان المعلم يقول له بأسف : لا تبصم أسمك على شيء لا تعرف ربما سيكون سبة لك . ولكن الطالب لم يتخل عن ديدنه ، ولم يصبح رساما ابدا .

جبار : شامل يريد ان ننصبه سيدا مطلق الصلاحية .

حسن : وان بقوم سودوك لفاقة

الى سيد ، لو يظفرون بسيد

لطيف : وماذا رأينا منه حتى الان ؟

حسن : رأى الله عبد الله خير عباده فملكه ، والله اعلم
بالعبد .

خالد : شامل دكتاتور صغير .

شامل : وانت لا تتهمد على من خلقك .

جلال : انت لم تخلقه بعد ، بل خططت خطين ، كما فعل
تلميذنا سيىء السمعة .

جبار : دع ابطالك ، يا شامل ، يعيشون المأساة التي
رسمتها لهم .

لطيف : شامل لم يكشف لنا حتى الان عما في رأسه الزاخر
بهبات الخلق .

اميرة : بالتحاملات . هكذا هو دائما ، يفعل ما في ذهنه ،
ولو اجتمعت المردة والشياطين لما استطاعت ان
ترحزحه من موضعه .

شامل : تلك قوة الحقيقة التي لا يشترط فيها ان تروق
للجميع .

لطيف : انت حتى الان لم تبسط حقيقة واحدة يمكن ان تبرر .
لطيف : سوى عقم الزوجة ، فان له سوابق وامائيل .
علوان : وقد يكون الزوج عقيما .

شامل : انتم اغفلتم ناحية مهمة من الموضوع . لقد جعلت
الزوجة الهاربة مجهولة الاصل ، لاؤكد على ان
الانسان لا يستطيع ان يسلم مقاليد حياته
للمجهول .

اميرة : ولكن المجهول يكتنفنا من كل جانب . رغم ان رحم
المرأة غيب .

شامل : رحم المرأة السوية ليس غيبا . هناك حالات شاذة قليلة .

خالد : يبدو ان شامل ينادي بنقاء الدم العائلي .
جلال : بالعكس . لقد قرأت أن انغلاق العائلة على نفسها بالزواج يجعلها رهينة امراضها ومواطن ضعفها الموروثة .

شامل : ولكن ذلك لا يعني ان تلتقط فتاة من الشارع . هذا هو الذي اقصده .

جبار : المهم ان يكون العقم عقدة المسرحية .
جلال : انا اعترف بأن مثل هذه الحقيقة دمرت عوائل .
لطيف : وهي من صنع الغيب نفسه ، لا سيطرة للانسان عليها .

شامل : رجعنا الى الغيب .
خالد : ولكن شاملا ، لغرض في نفسه ، يجعلها منفذا لبذر بذور الشك في كل عمل من عمل الابطال . لا اظن ان ذلك ضار جدا .

جلال : من وجهة نظر المسرح نعم . ولكن من وجهة نظر الحياة !

علوان : المسرح هو الحياة .
شامل : والشك ملح الحياة . الحياة بلا شك ماسخة لا طعم فيها .

اميرة : ستتآكل ديدان الشك قلبك .
شامل : الشك هو تمالك النفس ، وعدم الذوبان .
حسن : لقد أسرفت في هذا ، يا فتى . وقدقال معاوية :
ما رأيت سرفا قط ، الا والى جانبه حق مضيع .

- خالد : حقوقنا هي المضاعة .
- جبار : نحن الذين يريد شامل أن يجعل منا دمي .
- جلال : اعطهم الحق على الاقل للدفاع عن انفسهم ،
للاحتجاج ضد مصائرهم .
- شامل : وهل سلبتهم اياه ؟
- حسن : في طريقتك الفجة هذه : نعم . لا تكن حلوا فتزدد ،
ولا مرا فلتنظ .
- جبار : دعنا نشارك في المسرحية ، يا شامل .
- خالد : نعاونك على حمل المهمة .
- شامل : شرط ان املك انا حق النقض . أنا صاحب
الفكرة .
- علوان : اتفقنا .

ظلّ ...

طيلة اسبوعين ظلت نعيمة « ام جعفر » تمارس نشاطا مكثفا . تجوب ازقة ، تدخل بيوتا ، وتتلفت في الزوايا ، وتردد مع نفسها « صدق ؟ صدق ان يصير لي اعتبار عنده لا بعد كل هذه السنين ؟ بعد الالهة والوثة ؟ بعد العذاب والحسرة وطلعان الروح ؟ اوف ، يا ربي . اصبر انا المسيطرة ، لا هو . ليغرف من هي نعيمة .. نعيمة ام القلب المفتوح ، واللسان الذي يا ليت شددته بخيط .. نعيمة التي تجرعت الخيبات ، وشربت المرار ، وبكت بعمره .. الجرح بقلبي كبير . وجرح القلب هيهات يندمل ، ولو بقي الف سنة .. كل شيء يشفى الا جرح القلب .. كل شيء بالدنيا يشفى الا جرح القلب .. يظل يعن عليك ويعن ، حتى تأخذه معك في قبرك .. انا اعرف ! نعيمة ليست غنيمة ؟ يا ما تحملت المر ، يا ما صبرت على القهر ، يا ما ويا ... » وظلت نعيمة تجوب الازقة تنوح في سرها . وبخفتها ، كحفافة ، وصبرها على التقاط كل شعرة ، كانت تبحث وتستجوب ، وتتسلل الى اسرار الصدور . امسكها بأسنانها هذه الفرصة الذهبية ، ان يلجا اليها ، ان يستعين بها ، بعد هذا العمر الطويل ، وذلك الحاجز الذي ظل يرتفع مع العمر . يعني ما زالت تستطيع ان تكون قريبة منه ،

نافعة له ، ضرورة .. ومدها ذلك بالثقة . وقالت لنفسها :
« غير هو الحظ ؟ والا ما الفرق بيني وبين رباب ؟ لان اباه
عنده علوه بسوق الغزل ؟ شكل ، جمال ؟ علم ، فهم ، وانا
كل المحلة كانت تركض ورائي . نعيمة هذا ، ونعيمة ذاك ،
واركض ، واركض . وايدي والهواء .. »

ظلت تردد ذلك مع نفسها ، في خلوتها ، وفي غدوها
ورواحها . واحيانا تقول ذلك بصوت مسموع لتفتح نفسها
به ، حين كانت تخرج من احد البيوت مثرة بين نسوانه
سورة ، وتكتشف اسراراً خفية تزيد من رصيد صندوق
الاسرار ، الذي هو صدرها . وكانت تحسن اثاره هذه
السورات بين نساء متلفعات الى شيء جديد يلون حياتهن
الرتيبة الخاملة ، ويبحن ، بسهولة ، بما تنطوي عليه
صدورهن من حكايات صغيرة تضخمت وترهلت من كثرة ما
اعيدت وصقلت ، وما نسجت حولها من خيالات واوهام ،
عسى ان يخطيء القدر يوماً فيحول احد هذه الاوهام الى
حقيقة ، فتخرج واحدة منهن من خدر الاهمال الى السنة
الناس القوالة . كانت نعيمة تتلمس طريقها بحذر ، وبفطنة
ممهودة منها . وهي تستطيع ان تحو كحكاية كاملة بفمزة
من عينيها ، برمشة تفسر ألف تفسير ، وتعد بأشياء تدير
الرأس دواراً يدفع الدم الى الاوصال المتيبسة من الانتظار
والقعود في البيت ، ولعل وعسى . وكان كل ذلك يعطي
مدلولات كثيرة مبهمة لكل كلمة تتفوه بها .. حتى أي عيني
.. خلف الله عليج .. قلبي علمني .. ما كوشى بالذنيا
ما ينعرف .. حتى ضربها ظاهر كفها بباطن كفها الاخرى .
وكانت بذلك ، وخلال ذاك ، تجمع اعترافات صغيرة ،
وشكاوى مريرة ، وتوسلات من نساء نبذهن ازواجهن
نبذ الذين كفروا ، لجرد فلتة لسان .

— يعني لو كنت كافرة بالانبياء ، ما كانت الملائكة عملت
بي مثل ما عمل بي شهاب ..

كانت هذه المرأة في إحدى المشاجرات مع امرأة أخرى
قالت لها أشياء خفية ، لا يمكن أن تعرفها إلا إذا كانت
تشارك تلك المرأة وزوجها فراشا واحدا . وناقض الكفر
ليس بكافر . والكافر ابن الكافر هو زوجها الذي نقل لها
الخبر ، نقلا عن فلان وفلان . ولم تعرف أنها مستبوح به ،
وتفسد العلاقة بين رجال عليهم العمل . وتأذى الزوج ،
وغضب ، وأخرجها من بيتها مع ولدها وابنتها ، وباحت
المرأة المنيوذة لنعمية بهمومها ، وسخام حياتها قائلة :

— رجالنا يرتكبون الخطايا كل يوم . ولا ندري بها . وإذا
درينا سكتنا مجبورين . ولكن الواحدة منا ، إذا زل لسانها
بكلمة ، طردت برفسة خارج البيت ، مثل القطعة الضائعة .
لازم أنا التي تطلع زعلانة .. عند ذاك يعرف قدرتي ..
هناك بنات لا أصل وفصل ، ويطلعن زعلانات ... يا ريت
طلعت وانهزمت مثل حسيبه .. كان عرف قدرتي .

— أي حسيبة تقصدين ؟ .. بنت ... ؟

— ما اعرف ابنة من ؟ وهي عندها أصل ؟ كانت
نعمجة وسأبيه .. بس الحظ ، ومنين اجيب الحظ ؟

— عيني ، استري على البنية .

— وهل قلت شيئا ؟ أهو ، راح اسمه صم .

— واين رايتها ؟

— لما طردني الكافر ابن الكافر شهاب .. نمت
اليومين الاولين في بيت عطية العمية ، ورايتها هناك .
— اسكتي ، وكأنك ما شفت وما سمعت .. وأنا
سأجلب لك زوجك للباب .. وحسيبة أيضا سترجع لزوجها

.. بس اياك ولسانك ! سيجلب لك البلايا اذا حركته بكلمة واحدة ، كأنك لم تري ولم تسمعي ؟

— سأعطيك رقبتي لتقطعها ، وليس لساني فقط ..
عيني ، الولد من غير أب مثل الغنم من غير راع .

— كل شيء سيكون على مرامك .

واشترت سكوتها بأمل مؤجل . وانصرفت بصيدها .
راضية عن نفسها ، قائلة في سرها « النساء يصدقن
بالمجل » وكم صدقت هي في حياتها ، وانخدعت ، وصبرت
صبر أيوب . ولامت نفسها على كل ذلك . ولكن هذه المرة!

كانت تعرف ازقة بغداد جيدا . كانت جزءا من
حجارتها الهرمة ، وترابها الهش ، وسيانها ، وخشبها
المنخوب . تلمست طريقها الى العمياء راسا . لا تريد ان
تفوت الفرصة . وكانت تعرف عطية جيدا ، كانت جزءا من
طفولتها ايضا . تقلبت في أعمال شتى ، حتى أنزوت تبيع
الخلوى التي تصنعها للأطفال من السكر غير الطبيعي ،
حتى عميت ، وقبعت في دارها الصغيرة التي اقتطعت من
دار مجاورة . كان الوقت عصرا ، والدروب تزخر بروائح
اطعمة تعد للعشاء ، وأطفال يهرقون بك ، ويكادون
يسقطونك أرضا ، ونساء فضوليات يطلن برؤوسهن من
وراء ابواب مواربة ، ورجال يخطون ، ويتكلمون بأصوات
غليظة . ولاول مرة شعرت « أم جعفر » بأنها تسير بين
مصاد واشراك . انقلبت هذه الازقة جواسيس عليها ،
تتعقب خطاها . كانت تنسل خفيفة الحركة ، تحاول ان
تحجب وجهها بعباءتها . ولكن كيف تحجب مشيتها التي
يعرفها الناس بها ؟ حاولت ذلك ايضا . تحاشت الاصوات
والحركات والعيون المتلصصة من خلف الابواب . ثم داهمتها
لحظة ذعر مفاجئة . ماذا لو تفلت هذه الفرصة من يدها ؟

ماذا لو كانت سعدية قد كذبت عليها ؟ لا ، عيني ، ما معقول ! وراح تخلص من لساني ؟ آخ ، لساني ! ثم لمحت باب البيت الذي تقصده . توقفت . خانتها جسارتها لحظة خاطفة . لحظة جبن طالما كانت تمر في حياتها ، وتعض بعد ذلك اصابع الندم . تجاوزتها الان . تلفقت ، ثم سارت بشجاعة مستميتة نحو الباب . دفعته بيدها . كان مغلقا . طرقت طرقا خفيفا ، وقربت منها من خشب الباب : « خالة عطية ؟ ! » . وانتظرت يساورها الشك في ان يكون البيت خاليا . ثم سمعت صوتا هربا هربا « منو ؟ » . وكان قريبا من الباب . بحت نعيمة :

— أنا — ام جعفر . الشمس بعد ما غابت !

وفتح الباب بتوجس . ودخلت نعيمة البيت ، وكانها تدخل في الليل بكل ابالسته ودسائسه ، في كتلة من الظلام المتعفن مثل شعر منفوش .

— الله يمسيك بالخير ..

— هلا ..

— كأنك ما تعرفيني .

— اي ، العمر ، عيني ، العمر ..

— عمرك طويل ، خالة عطية .

قالت نعيمة تبدد وحشتها ووحشة العجوز . وكانت هذه الاخيرة ما تزال قوية ، رغم تحذب قامتها قليلا . وكانت تعرف بيتها جيدا . وتسير فيه كالمنفتحة العينين . سارت في خط مستقيم ، وبلا تعثر ، وحتى دون ان تتوكلأ على الحائط الذي كانت تسير بمحاذاته . على عكس ام جعفر التي كانت تجد صعوبة في تلمس طريقها ، في الظلام الشاحب

الغفن المقبض للروح ، ولا سيما في اللحظات الاولى قبل ان تتعود عيناها ، وتلوح لها معالم « الطارمة » الصغيرة ، والتخت المقابل للباب . اتجهت اليه عطية ، ورفعت ذراعها في الوقت المناسب لتمسك بعضادته الجانبية ، وتنفتل ، وتجلس ، متكئة بذراعها على العضادة .

وبعد ان التقطت العجوز انفاسها ، وزفرت زفرة ارتياح ، يبدو ان ذاكرتها عادت الى العمل . فسألت متساحكة :

— ها ، يمه ، جئلتحفيّني ؟

وعكفت ساقا واحدة ، ووضعت قدمها على طرف التخت وراحت تضرب عليها ، وتمسدها ، مما يدل على النشوة وراحة البال . ردت عليها نعيمة بمجاملة :

— الحفافة للوجوه الحلوة .

كركرت عطية مرة اخرى :

— والشيب ، والعمى ؟

— الشيب ما له دخل . وعمى القلوب هو العمى وليس عمى العيون . ونحن نرى كل يوم مفتحين ، ولكن الغزا ! خاله عطيه ، وادق يدي على الخشب ، وجهك يبرج .

ضحكت العمياء ، وشهقت ، واخرجت خرقة مفتولة من جيبها ، ومسحت عينيها .

تعرفت نعيمة على ملامح العجوز كاملة ، حتى في اختلاجة الغروب الاخيرة ، والبيت مثل بيت خيمة الاعراب . وجه عريض ناتئ الوجنتين ، ومقلتان بلا حياة ، وانف ما زال نافرا ، وهم مزوم مخسوف الان الى الداخل . كل ذلك

له شبه بالماضي ، وليس بالماضي ، مثل اطلال دارسة
لمربع من مرباع الصبا . اهذه المرأة التي كانت مثال
الحيوية والنشاط ؟ تبيع ، وتصرخ ، وتهاوش ، وتشتتم ،
وتقول ما لا يقوله الرجال انفسهم ؟ اهي التي كانت تقول
كلمة ، ولا تستثنني بأخرى ؟ اربعة اربعة . ما اعطى بالدين .
هذه رفات ماض ايقظته هبة نسيم مفاجئة . وكانت نعيمة
تعرف من تجربتها الخاصة ان اشارة عابرة قد تحيي في
الذاكرة عالما كان ميتا . والان لم يميت عالمها . ما يزال
اشخاصه أحياء ، وما زال عمل وامل ، وما يزال هناك
اثبات على ان ما يفعله الانسان ليس دائما هو الصواب .
الخطأ يتربص بالانسان كالمرض ، والا فكيف رضىيت هي
بصادق زوجا ، ورضي عبد الواحد برباب زوجة ، بعد
ان عرف كل الناس انها ، أي نعيمة ، ستكون في حضنه ؟
النصيب يسوق الناس احيانا سوق الغنم . الله وكيلك !
وتظل تعاني وتتعذب والخالة عطية شاهدة على عذابها ،
ورعونتها ربما ، واطمئنانها وثقتها بالناس . ولكن ما صار
صار . وهي الان تحاول ان تفرض كلمتها ، تستعيد الماضي ،
تموض ولو شيئا قليلا عما فقدته ، ان تثبت انها كانت
على حق ، وانها امرأة ولا كل النساء . يهرع اليها بالملهمات .

عادت المعجوز تمسح عينيها .

— دموعي تسبح مثل الزريب .

— الدموع تغسل العيون .

— غسلتها .. راحت .. ظلت عيون ؟

— عيونك مثل الورد .. خالة عطية ذاك اليوم كنا

نشترى منك الحلوة وشعر البنات ، ذاك اليوم لبسنا

المعاضد الملونة منك .. اذكر لما تعارك عبد الواحد مع

فتاح علي ، وانا بنية .. ذاك اليوم ، وذاك اليوم ..
وكانت صادقة في قولها . فمئذ ان لجأ اليها عبد الواحد
وهز دفين ما فيها ، صار الماضي ينتعش في ذاكرتها ،
وكانها رش عليه ماء الحياة . صارت تتذكر ، وتتخيل ،
وتنبش ، ويخامرها شيء جنوني غامض لا تريد ان تثبت
بكلمات ، ولكن تأمل فيه بكل جوارحها .

ضحكت عطية ضحكة صافية هذه المرة . وقالت :
— عيني اندنيا اظلمت ؟ اشعلي الضوء . المفتاح فوق
رأسي . المفتاح الاول .

وازدهت الطارمة بلون اصفر هزيل ،
ولكنه كاف لان يكشف كل ما فيها ، وجانبا من الفناء الصغير .
تلقت نعيمة فيها حولها ، وقالت :

— اللهم صل على محمد ... البيت نظيف .
تعمدت ان تقول ذلك ، رغم كل الاضطراب الذي كان
يسود الجزء المقابل من الطرمة ، حيث تتكدس اشياء مغبرة
تعود الى ماض قديم : دولا قديم ، جمبر مشطور ، صحيفة
صدئة ومحجان ، واشياء اخرى مجهولة الاصل . رفات
ماض غابر تريد نعيمة ان ترد له الروح ، وتعيد النور لعينيه
المطفأتين .

— من عندي ليوسخ ؟
قالت نعيمة تؤكد ما في فكرها :
— لا ، خاله عطية ، لازم عندك واحدة تنظف .
وضحكت هي ، ومست جارتها العمياء مدأعبة ، وسألت
حارفة اسمها نحوها قليلا :
— من هي ؟
— انا اعرف من هي ، خاله عطية .

وامتلا وجه العمياء بالتوجس ، وجمد فمها خوفا من ان
تفلت منه كلمة زائدة . فطمأنتها نعيمة قائلة :

— انا جايه عليها رسول صلح ، لا رسول حرب .
— الحرب على القوم الظالمين .

— بارك الله فيك . والله العظيم نحن المظلومون ، لا
الظالمون . . لو تعرف كم كان يعذبني المنبوش الصفحة
صادق . مرة أخذته من المستشفى . أمضاني الطبيب الكبير
وقال لي : من الآن فصاعدا ، انت المسؤولة . . كبده بعد ما
يتحمل قطرة عرق . قلت له انا المسؤولة ، وكلمتي اقوى من
كلمة عشرين رجل . ولكن صادق ما ظل شهر حتى عاد
سيرته الاولى ، يغافلني ويشرب . وصار يتجاسر علي .
مرة رفع علي الطبر . وانا اعرف انه جبان ، رجل دجاجة
ما يحل . ولكن الخمرة ام الكبائر . خفت ، وختلت عن
الجيران للصبح ، ورجعت له . ما هربت ، ولا تركت البيت .
ومعقولة حسية شالوا عليها طبرا ؟ فليش هربت ؟

— عيني ، ما أعرف على من تحكين .

— خاله عطية ، كنت من الاشارة تفهمين .

— هذا عمى العيون .

— ولكن العقل مفتوح . معقولة لم تقل لك ؟ عايشة
معك ولا تقول لك ؟

— على من تحكين .

— على ام القبقاب ، هذا الذي شايفته قدامي ؟ يعني
معقولة انت تلبسين القبقاب .

— من كنت صغيرة .

وضحكت ضحكة فضحتها . كان الضحك يغزوها في
نوبات مفاجئة ، وفي لحظات لا تختارها هي . قالت نعيمة :

- لازم علي جيه .
- من ؟
- اوي ، خاله عطية ، ام القبقاب ، حسية ..
- والله لا ادري .
- ولكن انا ادري . هربت من زوجها . واهلها قلبوا بغداد كلها في البحث عنها .
- جمدت عطية ، وكأنها وجدت نفسها متلبسة بشيء منكر .
- اقول لا ادري اين تروح . تطلع من الصبح ولا تأتي الا في العشا .
- وتحملين خطيئة بنت الناس ؟ الانسان لا يستطيع ان يتحمل خطيئته ، فكيف بخطايا الاخرين ؟
- ماذا افعل . اذا جاءت تتوسل .. دعيني انام عندك يومين . وهذا أكثر من اسبوع .. انا لا اعرف عمته .
- مقطوع الكلام ، اهلها طلبوا مني ان ابحث عنها . وبحثت ووجدت .
- قال ت العمياء :
- خذيها . ليس لي غرض في الموضوع . لا هي تطبخ لي ، ولا تلف لي ورق السيكاير .. انا وحدي اعرف دربي ..
- احسنت نعيمة بأن العمياء تريد ان تبريء نفسها ، ولم تكن تريد ذلك .
- قالت :
- لا ، خاله عطية ، ما دام ادخلت رأسك في المسألة ، لازم تخرجه صاغا سليما .
- ماذا تريدني أن افعل ؟
- أبقئها عندك آلان . اقول لك بصراحة : اهلها يريدون ان يقتلوا .

روعت عطية ، وادارت رأسها نحو صوت محدثتها .

— ويلي ! من اين جاءت لي هذه المصيبة ؟

— اله امر بالستر .

— وماذا عندنا غير الستر ؟

وتكررت عطية على نفسها تستر شيخوختها وعماها ،
واخذت تلعب بأصابع قدمها اليمنى . وفي تلك اللحظة فتش
الباب ، واطلقت حسية . يبدو انها فوجئت ، فقد ندت منها
« هيه ! » وحاولت ان تنكص ، ولكن نعيمة امسكت بتلابيبها :

— تعالي ، تعالي . ما راح نخطبك مرة اخرى . ما
صار صار ، وما يتكرر مرة اخرى ... خشي .. انا لست
غريبة .

دخات حسية مرتبكة مترددة . كان وجهها عرقا ،
وعيناها عيني قطة متوفزة ، يتقاسمها عناد صارم ، وثقة
في النكوص في اخر لحظة . كانت يداها مسبلتين في استسلام
لا اثر للرخاوة فيهما . بشفتين محمرتين ، كأنها وضعتا
طويلا في ماء ساخن . وجدت حسية امامها امرأة بدت غريبة
عليها ، ولم يهدىء هذا من روعها . كانت تتصور ان شخصا
اخر اربب موجود يتربص لها ، لا محالة ، زوجها او حماها .
وهذا ما جعلها تقف عند حنفية الماء تتظاهر بغسل يديها ،
بينما كان بصرها يتجول في الزوايا المظلمة . صاحت المرأة
الغريبة بعد ان رأتها تتلكأ عند الحنفية :

— تعالي ، تعالي . حاضنة الحنفية وواقفة . الفرج
ما راح ينزل من الدرج . وممن خايفة ؟ لو كنت خايفة ما
انهمزت .. تعالي ، لا غريب بيننا . تعالي نفاهم .

فكت حسية يديها من الحنفية ، وجاءت تخفق بنعليها ،
واسندت ظهرها على باب الحجرة الوحيدة في البيت .

— وتتصورين لا أحد سيعرف مكانك ؟ حتى لو حبست نفسك في سبعة أسفاط .

نكست حسيبة رأسها ، واخذت تنظر في أصابعها القصيرة المنتفخة :

— كيف تتركين اهلك ؟

— مجبورة .

— والبنت تقدر أن تتبرا من أهلها بهذه السهولة ؟ كانت الناس ما عقدت العقود ، ولا راحت للقاضي . وكل من لا تحب أهلها جمعت أغراضها ، وشالست . ولا من سائل يسأل ، ولا محاسب يحاسب . ها ، حسيبة ؟

— وإذا كان أهلي لا يحبونني ؟

— ماذا فعلوا لك ؟ اجاعوك ؟ نزعوا منك ثيابك ؟

— اكلوا رأسي اكلا .

— ما يزال رأسك على رقبتك ، ولم يأكله أحد . ولكنك بهروبك اكلت قلوب أهلك .

— لا أظن وأحدا تحسر علي .

— انت المذنبة ، وتريدين ان يغسلوا رجلك بماء السورد ؟

— لم ارد سوى ان يتركوني وحالي !

— والشرع والبسنة ؟ انت بالشرع هاربة . وهذا وحده يكفي .

— لم أوذ غير نفسي .

— آذيت الجميع الا نفسك . ثبرت البيت ثبورا . الا يكتيك هذا ؟

طلقت الهاربة تبكي ، وسملت عطية مولولة . ربما

احسنت بورطتها . وعرفت نعيمة انها امسكت بالمرأتين ،
واشعرتهما بذنبيهما . قالت لحسية :

— روجي اغسلي وجهك ، لا ينفع البكاء .

واخذت تلح عليها ، حتى استجابت حسية ، وهذات
وذهبت لتغسل وجهها . فلحقت بها الى هناك او همست
لها :

— اتعرفين اية ورطة وضعت نفسك فيها ؟ والان ، يا
حمار ، خلص نفسك من الوحلة . اهلك يحدون لك السكن .
— اوي .

— واذا راوك في الطريق ذبحوك .

— دخيلك .. اين اولي وجهي ؟

— اقعدني في هذا البيت ، ولا تخرجي . اين تذهبين
طوال اليوم ؟

— اشتغل هنا وهناك في غسل الملابس ، اللقمة تراد .

— سأجلب لك ما يكتيك .. اقنعي الآن بنصيبك حتى
تنفـرج .

شهقت حسية ، وزفرت زفرة عميقة فيها بعض
التـرويح .

— وفاضل ؟

— لا تسالي عن فاضل ، ولا عن غير فاضل ، حتى
نرى كيف تنفـرج .

كان فاضل ، في ذلك الوقت ، يجلس المساء في احشاء
السينما الصيفية المهجورة مع خدينه عباس . كانت
روائح الاطعمة الشعبية تتحدر اليه ، عبر الدهليز ، مخلوطة
بحروقات السيارات ، وهي روائح يزداد احساسك بثقلها
اذا كان في معدتك شيء من الطعام . وكان فاضل قد

« خطف رجله » الى بيته بعد انتهاء الشغل ، وتناول «لقمة» فيه ، ارضاء لفضيلة التي كانت تبكي وتقول : « لن اطبخ ، اذا كنتم جميعا لا تاكلون في البيت ؟ » . كما انه ما يزال يخامرهم امل ضعيف ينوس في قلبه ، فيتصور انه سيعود الى البيت ذات مرة ، ويجد حسيبة قد عادت . كانت والدته وحدها تغذي هذا الامل فيه ، مع تشجيعات فضيلة وابتساماتها الحنون ، ولطفها ، وتمنياتها الموحية بالامل : « ان شاء الله ! . . » وكان يتحاشى والده . لم يشترك معه في حديث صميمي منذ اليوم الذي وقف متحديا ، ولم يجسر بعد ذلك ان يرفع بصره الى وجهه ، مخافة ان يرى فيه قسوة ، اهانة ، ادانة ، استخفافا . وكل هذا لا يتحمله . كان يعرف ما ينطوي عليه هذا الوجه ، او يتخيله على الاقل . الكلمة التي ينطقها الوالد ترسم له الملامح رأسا . المعاناة دائما بشيء اهونه عتاب صامت جريح . ولهذا كان يلعب مع ابيه لعبة القط والفأر ، لا يكاد يستقر معه تحت سقف ، ولا يضمهما مجلس مشترك واذا فوجيء به تحين اقرب فرصة للهروب . ولكنه الان لم يجد اياه ، بل وجد اخاه ماجدا . تبادل الاخوان النظرات ، وقال ماجد « الله يساعدك ! » وابتمسم له ابتسامة هزيلة ، وكأنه يعتذر له عن الوعد الذي قطعه له للمساعدة ، فتركها لله ، كلمة عاجزة لا تحل عقدة ، ولا تريح ضميرا ، ولا تبشر بأمل محقق كأنما يقول له : يا أخي ، انا ايضا مثلك اركض وراء شيء مفقود . وغادر فاضل البيت بسرعة .

كان عباس في انتظاره . وبعد ان انتظم المجلس قال له بعد صمت قلق موسوس :

— ايه ، تكلم .

— لا ! اليوم انت تكلم .

— ماذا اتكلم لك ؟ عن بقع الشيب في راسي ؟

— صحيح ، عباس ، ان رأسك كله مبقع ببقع بيض .
والناس لا تشيب بهذا الشكل .

— هذا ليس شيبا ، هذا مرض اسمه مرض الثعلبية .
الم تسمع به ؟ (نفى فاضل) . . اصبت به خلال ثلاثة ايام .
اصابتني فزعة شديدة ، وبعد ثلاثة ايام امتلا رأسي بهذه
البقع .

— معقول ؟

— وليس عن جبن . مع ان الانسان لا يعرف متى
يستبسل ، ومتى يستسلم لجبن خبيث مفاجيء ، متى يقتحم ،
ومتى يفزع فزعا عصبيا يصيبه بمرض عصبي لا علاج له .
من الصعب ان تفهم اطوار الانسان هذه . كلها اجتهادات ،
كما يقول رجال الدين . وكل طور مرتبط بشيء مخفي في
نفسك ، يطفو في ساعته على السطح . انا اقرا الجرائد ،
والكتب . يسون هذا الشيء المخفي في نفسك بالبعد
النفسي ، اذا لم يختلط علي الامر . ولكن لا احد يعرف متى
تتحول الكيفية الى كمية ، كما يقول جماعة ماركس . خذني
مثلا . يا ما رايت ويا ما قاسيت ، ويا ما صرخت بهتافات
حتى حين كانت كلمة « سلام » محرما عليك ان تقولها .
ولكن حادثة صغيرة ، ولا اريد ان ادخل في التفاصيل ، خلفت
خيوط المنكبوت على رأسي اليابس . وانت نفسك ، ربما في
ظرف معين لم تكن تتأثر هذا التأثير الحزائني ، حين هربت
زوجتك . يعني ، النساء تحط ؟ ولكن هذه الحادثة حركت
ذلك الرأسب في الداخل ، هناك .

وأشار الى صدره .

— اتخيلها ، دائما اتخيلها ، والنبي العربي ، والقرآن

الشريف . انا احيانا حين ادق مسمارا في صندوق اتصور
انني ادق مسمارا في تابوتها .

— هذا هو الفزع الاكبر .. ستصاب بمرض الثعلبية .

— وعندما اكل اتخيل انها في الجانب الاخر من الصينية ،
تنظر الي بعيون جائعة .

— ابعد هذه الخيالات من ذهنك .

— لا استطيع ، لا استطيع .

واحس عباس بالخذلان ، ومرر يده على شعره ، وكأنه
يتحسس ندوب حادثة مريرة ، محنة لم يستطع ان يتخاطاها ،
فكيف يستطيع ان يعطي لنفسه الحق في ان يلزم زميله على
تخطي محنته الخاصة ؟ لايام كثيرة كانا يجلسان هذا المجلس ،
ويضعان مشاكلهما على صندوق المرطبات المقلوب ، المتوج
بصحن حمص مسلووق وصحن باقلاء . وكانت الذكريات
تسكب كالدموع ، وتختلط بما يحتسيانه . والذكرى والعرق
كلاهما يساعدان على نفث السم المتراكم في القلب ، وعلى
التشبث بذلك الشيء المغروز في النفس ، الامل المصلوب
على الف مشنقة من الخيبة ، وما يزال باقيا على قيد الحياة .
كان عباس يساعد ويقيه من الوقوع في الانهيار التام . كان
يصفي الى ذكرياته بأذنين سمعتا احوالا ، وكانتا تستصغران
الفقدان . ولم تكن تصدر منه كلمة نهى قاطع ، ولا استكبار
جارج . قال عباس يراجع نفسه خوفا من القسوة الطائشة :

— قد تكون على حق . لا تستطيع الان . أنت الان مغلف

بها ، مغمور بذكرياتها .

— اتذكر كل شيء من حياتنا .

قال بمزاح :

— وتذكر ليلة الدخلة ايضا .
 — اتصورها في خيالي مرارا وتكرارا ، قبل ان اغمض عيني للنوم .
 — ليلة الدخلة سواء عند كل الأزواج .
 — لا ، فيها شيء خاص وفرتة لي حسية .
 — ماذا وفرت ؟ وجدت امرأة تنتظر مع العروس .
 — نعم .
 — وتصافحتها ، ثم تركتكما لحديث الليل .
 — الى هذا الحد يشترك جميع العرائس . ولكن البقية تعود لها وحدها .
 توجه عباس اليه بكل انتباهه ، واعتدل في جاسته .
 وزاد ذلك من تلذذ فاضل باستعادة الذكرى :
 — خرجت المعجوز . هذه خلوتي الاولى مع تلك البنت الجسور التي اقتحمت علينا مجلسنا ، نحن الرجال ، بتلك الجراة الغريبة ، وقدمت لنا الشربت . عاينت عليها . رأيتها تحتضن رمانة السرير مطبقة جسمها عليها ، مطرقة برأسها الى الارض ، غائبة عني وعن الدنيا كلها . لم اعرف ماذا اقول لها . كلما اقتربت منها خائني جسدي بالارتعاش ، واسود وجهها . ولكن بعد محاولات خائبة لمست يدها . واحسست وكأنني أمس كهرباء . فارتعش جسدها كله تحت يدي ، سحبتي يدي وهمست : « خايفة ؟ » لم تنطق بكلمة . كانت تدير وجهها عني . وبدأ « المزواق » في ضوء مصباح النوم بقعة حمراء زرقاء . أم هذا دمها قد احتقن من الخوف ؟ عجيب اين ذهبت شجاعتها ؟ في ليلة الدخلة تخفتي الشجاعة . ولك نرايت عرائس يخرجون بمناديلهم الحمراء بعد عشر دقائق من الدخلة . ماذا اقول لاهلي الذين كانوا ينتظرون وراء الشباك ، واسمع أصواتهم وهمساتهم ؟ ماذا افعل ؟ اشفقت عليها

اشفاقا جديدا . تصورت أنني لو اقترب منها يغمى عليها . همست لها « تريدان أن نؤجل القضية ؟ » أخرجت من صدرها صوتا كالحسرة . لمست يدها مرة أخرى . كانت باردة كالثلج . وركض جلدها بين أصابعي . فسحبت يدي . وابتعدت عنها . وكان اللفظ يزداد في الخارج عند الشباك . وكان قد مضى أكثر من نصف ساعة ، ونحن في هذا الجمود . وزادت شفقتي على حسية ، وحيرتي . وقلت لنفسني « أولا وأخيرا هي لي . اين تروح ؟ الأحسن أن لا اغتصبها اغتصابا » وكان احد الاصدقاء قد اعطاني سكيناً مطويا في المطعم الذي تعشنا فيه للمزاح ، قائلا : اذا امتنعت اسحب عليها السكين . (واخذته للمزاح ايضا . سكين صغير وصديء . نهضت من السرير ، وانزويت في زاوية ، وأخرجت السكين . من المحال ان اسحبه عليها . انا لا اتزوج نعجة) فتحت السكين ، وغرزت رأسه في العضد . واحسست بألم لذيذ . وتناولت المنديل من جيبي . ومسحت الدم فيه . يبدو ان حسية احسبت بذلك أخيرا ، فتأوهت . قلت « لا تخافي اين مندليك ؟ » أخرجت مندِيلها . لوثته بالدم . ثم شددت الجرح بمنديلي ، عاونتني حسية ، وانزلت عليه ردن الدشداشة . وقلت لها « لنؤجل القضية . أياك أن تقولي لاحد » وأخرجت الى اهلي ، وأريتهم المنديل وارتفعت الهلاهل .

— هذا اعجب زواج في حياتي .

وضحك عباس ، وهز رأسه هزات كبيرة ، سخرية او استظرافا .

— اليس في ذلك نكهة حسية ؟

— فيه نكهتك أكثر .

— ألا توافقني على ذلك ؟

— لا ادري .

وانبرى يضحك من جديد ، وحمل كأسه وقربها من فمه ،
واضاف :

— ابديت ثقتك الزائدة بها . يعني وقعت على بياض ؟
وراح يهز رأسه استغرابا .

— اصارحك ان هذه الافكار السوداء ظلت تدور في
راسي . وانا بين اهلي . ماذا لو طلعت غير بنت ؟ ولكنني
اسلمت نفسي للقدر من البداية ، وليكن ما يكون . انا الموم
في البداية والنهاية . لعب الشيطان في صدري ، وملاه
بالوساوس . كنت كالذاهل أو المدحور بين اهلي ، بارادتي
او بغير ارادتي . استعجلت ودخلت عليها ثانية ، بعد
الترتيبات ، رأيتها هذه المرة نائمة في الفراش ، وقد افردت
اللحاف ، وتركت لي مكانا الى جانبيها . يعني ، تفضل !
في هذه المرة أنا الذي كنت ارتجف مثل السعفة . لا استطيع
ان اثبت على نفسي . دخلت الفراش ، تحت اللحاف ، ورأيت
عينين واسعتين ترمقاني ، تريدان ان تاكلاني . وكان الشعر
الاسود قد تنافر وفقد لمعانه . وفجأة نسيت افكاري السوداء ،
وتخلصت من الريبة . قلت ، وارجو ان لا تضحك مني :
« تريدان ان تنامي ؟ » هزت رأسها . ونزلت خصلة شعر على
جبينها . أزحت الخصلة ، واحتويت وجهها في يدي . أحسست
بالتوهج في خدها . قلت لها « جلدك حار ! » والتصقت بها ،
وغطست برودة جسدي بنارها الكبيرة . ولم اجد ممانعة
منها . سألت هي ، لأول مرة بلسان ثابت « كيف ذراعك ؟ »
قلت لها « نفزة بسيطة » وعانقتها ، ورأت انها هبات نفسها
لي ، ولم تبد اية ممانعة . وطلع الدم الصادق هذه المرة .
وتوهج وجه فاضل في الدكنة المرتجفة بالاضواء ،

والخفاقة من بعيد ، ورفع يده بحركة افتخار مبالغ فيها . وكان صاحبه يلتهم حبات الحمص المسلوق صامتا ، وينود برأسه المبقع بطرات بيضاء ، وكأنه يتتبع توثبات طفل أرعن اطلق له العنان ليعبر عن طاقته كما يشاء . ثم لاذ كل منهما بافكاره . وفي الصمت المرتخي انطفأ توهج فاضل ، واعمل فكره ليخرج صاحبه من صمته المشبوه المبدد للنشوة .

قال يستدرجه :

— قلت : وقعت على بياض ؟ حلو ! تعجبني ! . نعم وقعت على بياض . ولانني وثقت منذ البداية اريد ان امضي الى اخر الشوط . أشعر بأنني شاذ وغريب بين اخواني . خرجت على السنة المتبعة منذ البداية . تركت المدرسة وانا في الصف الخامس الابتدائي ، ولم يعجبني ان اعمل في دكان أبي . اريد ان اكون حرا ، واخترت زوجتي على مزاجي ، رغم معارضة اهلي جميعا . وهم الان يشمتون بي . والسدي خصوصا ، واخي الصغير شامل .

— اين يعمل اخوك الصغير ؟

— ما يزال يدرس . ممثل اصلي . يحب الخطابة في المطبخ ، ولا يعجبه العجب ولا الصيام في رجب . البارحة قال لاختي : لو كان فاضل قد فقد أباه وامه دفعة واحدة لما جن هذا الجنون . يريد ان يؤلب الاهل علي .

— ستقتل نفسك قبل ان تؤذي احدا منهم . ارحم نفسك .

— كلهم ضدي ، ما عدا اختي . لو جئت حتى منتصف الليل لرأيته تنتظرنني في المطبخ تدفء عشائي .

قال عباس في غير رضى :

— بعث الدنيا كلها بمشكلاتك الخاصة .

لم يفهم فاضل كيف باع الدنيا . كان يريد أن يحتويها وما يزال . كان يريد أن يصل إلى قمة السعادة والرضى عن النفس ، كان يريد أن يكون هو نفسه ، لا ما يريد الآخرون له ، كان مقتنعا وما يزال بأن ما فعله هو الصواب ، وأن الآخرين مخطئون ، لأنهم لا يقدرّون مشاعره . اعترته وحشة غامضة من توارّد الأفكار الجارحة على ذهنه . قال بعتاب :

— وانت أيضا ضدي ؟

— لا ، أبداً .. أنا أمهك جيدا ، والذي يفهمك لا يمكن أن يقف ضدك . قل لي : ألم تكن لك مشاكل معها ؟
صمت فاضل قليلا قبل أن يقول :

— كانت لها مشاكل مع أبي وأمي كما قلت لك .

— ما هي تلك المشاكل ؟

— كانوا ينكدون عليها عيشها ، لأنها لم تحمل مني .
هذا كل ما في الأمر .

— وهذا لا يقلقك ؟

— أبداً . ثم كيف أطلق امرأة ، وأنا لا أعرف هل أنا المذنب أم هي ؟

— ولكن الأبناء بهجة الحياة الدنيا .

— لا أريد هذه البهجة . أو قل أريدها ، ولكن ماذا أفعل إذا حرمني الرحمن أو الشيطان منها ؟

وسكت ، ودار في رأسه السؤال نفسه الذي كان يلح عليه في الآونة الأخيرة ، ولا يقوله لأحد . والان ، مع الخبرة وتدفق الاعترافات عاد السؤال يضرب بياقوخه : ماذا لو كذب الأطباء ، وكان هو السبب ؟ اعترف لصاحبه بشكه في قالب ادانة :

— ربما اكون انا السبب ؟ كم فسقت قبل الزواج !
— كلنا فسقتنا . ولكن عندنا اولادا جميعا .
— هذا حظي .
— يبدو انك تخلق المشاكل لنفسك .
— الناس يخلقون المشاكل لي . انا منسجم مع نفسي الى اخر حد .

سامحه عباس على هذه القناعة . الجرح ما يزال حارا .
سيسى ، وسيجذبه الشوق الى امرأة اخرى ، مثلما جذبه
هذا الشوق الغريزي . قال بتأن وبلا تقريع :

— انت تختلف عني كثيرا ، يا فاضل . انا اعتقد ان
الزواج كالعمل واجب وضروري لتمشية الحياة . انا لا اخلق
لي مشكلة اذا لم أوفق في عمل . ظروف . مزاج . اتركه الى
عمل آخر ، ولا اذكره بخير او شر ، ولو كان له حسابه
الداخلي في نفسي . تجربة غير موفقة ، ولا تعني حياة غير
موفقة . وكذلك المرأة . انا لم اوفق في زواجي الاول — ومط
شفتيه بتقزز — خطأ في التقدير مني او منها ، ففضلت ان
اطلق . اترك عملي الاول بالسهولة التي يجيزها لنا القانون .
والتحق بعمل آخر ، يعني اتزوج باخرى . وانا الان اسعد
معها في حياتي مع تلك .

— ولكنني كنت سعيدا مع حسبية كل السعادة ، والله
العظيم ، والكعبة الشريفة ، بالقرآن والفرقان . فلماذا
يقفون ضد سعادتي ؟

وانقضت برهة صمت خاوية تباعد فيها الزميلان الى حد
القطيعة . وامتدت يداهما معا الى ما كان بينهما على
الصندوق المخلخل ، يداريان جرحا يوشك ان يدمى . وكان

عباس اول من رفع رأسه ، فرأى شخصا ضخم الجثة ينحدر نحوها عبر دهليز السينما المهجورة ويكاد يتعثر بفعل انسراحه الى الاسفل . ثم رفع فاضل رأسه ، عندما سمع وقع الاقدام الثقيلة غير المتزنة . وحاول ان يخفي كاسه ، فارتطمت بالصندوق واندلقت . رأى اياه يطل عليه مسود الوجه ، يبدو رأسه ضخما في هالة الظلام الهش . بادره الاب بصوت جزع :

— انت هنا ، يا فاضل ؟ مررت عليك في الشغل .

— جئت هنا لاستريح قليلا .

— كأنها ليس لك بيت .

كان فاضل يريد أن يقول أنه مر على البيت ، واكل ولكن تحشرج صوت الاب آثار في صدره اللوعة والانقطاع . رد بشكل غامض :

— كان لي بيت .

— دفنت اهلك ، وهم احياء ؟

هذا الاتهام الباطل زاد من تفتته وغريته عن نفسه .

— لم أدفنهم . ولكني يئست من حنانهم .

— ماذا تريد ان نفعل ؟ نهيم على وجوهنا مثلك ؟

التعاسة الانتقامية تكلمت :

— اتركوني وحدي .

— تقتل نفسك ؟ كأن الناس قبلك لم يفقدوا اعضاء

غالين .

— كان اهون علي لو انها ماتت . اذن ، لنفقت يدي .

ولكن اعرف انها الان في مكان ما ، حية مثل بقية الاحياء ،

وربما هي في مأزق . وهذا الذي يفتك بي .

- وهل وضعك هذا يقرب من مجيئها اليك ؟
 — ماذا افعل ؟ ابحث عنها في الطرقات ؟ ومع ذلك
 لم اقصر .
 — تؤذي نفسك بالخمرة . كنت مستقيما كالليل . ربما
 هذه عشرة سوء ؟
 تكلم عباس محتجا :
 — أرجوك . لو كنت تعرف ماذا كان يدور بيننا قبل
 دقائق لما تكلمت عن عشرة السوء هذه .
 قال عبد الواحد كالمعتذر :
 — فاضل يحتاج الى مساعدة من اصدقائه الان ،
 ليتخلص من الشدة .
 — كنت اقول له : هو الذي يخلق لنفسه المشاكل .
 — مغلوب على امره . انا اعرف طبعه . دائما يركب
 رأسه . يا ما عذبنى ، وعذب امه .. هيا ، تعال معي ، يا
 فاضل .
 — لم انعس بعد .
 — انت تعرف ان أختك وامك لا تنامان الا حين تأتي .
 — ذهبت الى البيت ، وتعشيت .
 — وانا لا يهيك امري ؟
 واطبق شفثيه على شيء يريد ان ينطق به . استدار
 عبد الواحد وانصرف .
 — سأتى بعد ساعة .
 قال فاضل في أثره اثفاقا . ربما احس بمغطف عليه ،
 وخزة في صدره . لم ير اباه من قبل في هذا الموقف قط .
 كان السكوت العملة المستخدمة في تعاملها اليومي النادر .
 واحس فاضل بعد ذهابه بالتعب والذبول .

وخلال ذلك كانت نعيمة تمر بدكان عبد الواحد خطفا وتلفي بارقة امل مبهمه ، وتنزلق في الاتجاه الثاني من الشارع ، وكأن مجيئها كان عفواً ، وهي مشغولة الى حد الاختناق . وكان عبد الواحد ينشد الى صوتها المألوف ، كما يشد بحبل مفتول ، ويتابع حركاتها باذعان خفي . كان يشعر بالخيط الذي يشده اليها ، خيط رفيع لا يريد ان ينقطع ، كالامل في عودة شيء مفقود . وكانت اذا توقفت عند باب دكانه تغزل عينها غزلها المعتد الذي يلف الرأس ، ويحس بأنه ملتف به . كان لا يعرف ماذا تقصد بكلماتها المبهمة ذات الدلالات ، والموحية بالقدرة على ان تنال ما تريد ان تناله . هل كانت تتحدث عن السحر الذي تريد ان تبطله ، او عن الهاربة التي تتحاشى ذكرها لاتفاق خفي بينهما ؟ كانت تتحدث بنفسها ، تمسك بادرة الحديث ، وتسال وتجيب بنفسها ، تستفهم وتشفع استفهاماتها بما لها من القدرة على ان لا يستعصي عليها شيء . . تحوف الدنيا كلها تكسرت على رأسي ، وتريد ان يخفى علي خاف ؟ وكان لا يستطيع في خاتمة حديثها السريع غير المترابط الجامع الشامل ، الملقى بالغ رجاء وامل ، ان يوقفها ، ويسال السؤال الوحيد الملح عليه : يعني ... ؟ ولا تدعه يتم السؤال .

واليوم جاءت ، على عاداتها ، في لحظة غير متوقعة ، والناس حوله قيام يريدون « طاقم » عرسهم ... « مال بياتهم » . واسرت له : « عندي اخبار » ، وغمرت له بعينيها الغمازتين ، وابتسمت بكل وجهها البيضاوي الذي لم تزايله ملاحظة الانوثة ، وجعلته يرتبك ، ويستعجل انصراف الناس قائلاً لهم « اعطوني مهلة اسبوع . غدر بي بائع الخشب . لم يف بوعده ، وهو يطالب بأسعار أعلى .. » وانهار كل ما كان في ذهنه ليفاوضهم على سعر جديد ، يتفق مع ارتفاع

الاسعار . كان يريد انصرافهم بسرعة ، ويخلو لها ، حاملة
الاخبار ، حلالة العقد . واسرع فصرف صبيحا ليجلب لـه
الغداء من البيت . وكتم تعليقاتين او ثلاثة قفزت الى ذهنه ،
حين رأى بعض معارفه يهرون . . عادة لا يستطيع التخلي
عنها . كانت نعيمة تتبخر كالبطة في رقعة بصره المتلفت ، في
الزوايا البعيدة عن تناول صوته ولهفته المتحرجة . ثم
انسابت اليه قصيرة الخطى بعد ان خلا الدكان الا منه ،
وحطت على باب دكانه مثل حمامة ناضرة مستعجلة لتطير .
— كيف حال فاضل ؟

— يتدهور . . . راح يقتل نفسه .
— هذا هو العشيق ، والا فلا — وتنهدت من صدر متدثر
بفوطه ، وغمرت غمزة لا شعورية ، وبربرت بشيء في سرها .
وانتظرت حتى يفقد صبره . وهذا ما كان .

— ما هي اخبارك ؟ وجدتها ؟ سمعت عنها ؟
قالت كالعليمة بكل شيء :

— لا شيء يخفى في هذه الدنيا .
وتلتفت فيما حولها ، وقذفت بجملتها الحارقة .
— تعال اليوم . . .

— الى اين ؟
واسرت له عنوانا ، شفעתه بنيشان معروف . فسأل:
— هل هي هناك ؟

— لا تستعجل . . كل شيء — يصير على مرامك . .
بس اعطني حلمك .

وغادرت ، وزرعت في صدره نار لهفة . وانطبع في
ذهنه بقية اليوم وجهها الواعد المنتصر المتسم بسمه مبطنة ،
بسمه ذات معنى ، كأنها تقول من لا يقدم لا يفوز . وبدا لعبد

الواحد ان هذه البسمة تعود الى ماضٍ سحيق ، صاحبته طوال حياته ، وانغرزت في ذاكرته الى الابد ، وانها كانت دائما تتريص به ، ويقاومها ، ولكنه الان يجد نفسه واقفا امامها اعزل بلا دفاع ، لأول مرة ، الان كانت تبث فيه وهنا كالخدر . واحتشدت في ذهن عبد الواحد صور وطعوم وروائح تعود الى الدروب القديمة من حياته ، الى الزوايا المنسية ، حيث كان ينفرد بها خطفا ، والان تعود اليه مغرية مهيبة كالحرمان ، تستحته على الاستسلام للفرح العابر وتدمير النفس . وتذكر عبد الواحد حلما رآه الليلة البارحة ، وهو انه كان على شاطئ ، والوقت قبيل المغرب ، ولكن الجو شفاف لدرجة خادعة ، حتى كان يستطيع ان يرى طرة ساعته تشير الى السابعة والربع . وكل ما في المكان واضح وضوحا مذهلا ، خط الشاطئ المعوج ، الماء الرقراق المترامي الازرق زرقة الغروب ، وأشباح الناس متناثرين على الشاطئ . وكان عبد الواحد ينتظر شيئا لا يعرف ما هو على وجه التمين ، ولكنه ضروري ، وهو يخشى ان يهبط الظلام دون ان يلقاه ، ويبطع السواد كل شيء حتى الدرب المؤدي الى بيته ، الذي كان يلوح هناك ، في العطفة ، وراء نخلات كان يراها وهو على الشاطئ . كان عبد الواحد يحس بالاستعجال واللهفة المشوبة برهبة كخدر مقيت ، يحس بمتعة هذا الجو الترقبي وبالخوف من فوات الوقت ، تتناهبه الاحاسيس نفسها التي تتناهبه الان . ترقب . خدر . استعجال . انقطاع . خيبة . وكان فاضل في افق خياله ، يلوح مائلا الشاطئ كله ، شاطئ الانتظار . انتظار اي شيء ؟ غير معلوم . ولكنه انتظار يشده الى الشاطئ ، يشل حركته ، يغريه ، يخدره ، يلتذ به مثل الانفاس الاخيرة لسيكارة .

جاء صبيح ، وايقظه من تصوراته ، واعاده دفعة

واحدة الى ارض الدكان الصلبة المزروعة بسحابة الخشب ونشارته . اصحته من اللحم والتداعيات رائحة الطعام البيتي الشهي ، وتذكر في الحال ابنته وزوجته والاخرين .

في المساء اغلق دكانه ، وركب سيارته « البيك اب » وهام في شوارع بغداد ، على غير هدى ، تتقاذفه حركة السير ، وفي ذهنه تزدحم التوقعات يريد لها ويخشها في آن واحد . لا يستعجل الزمن ، بل لا يريد أن يفلت منه ، ويندم . وبعد الساعة الثامنة ركن سيارته في عنق زقاق متفرع من شارع الرشيد ، وانحدر فيه . كانت غيوم التوقعات تغشى بصره ، وتذهل فكره ، ولا تجعله يحظى بلحظة تأمل . ماذا سيقول لها ؟ بماذا يبدأ القول ؟ كيف ستلقاه ؟ ما هو هذا البيت الذي اوت اليه ؟ عشرات من الاسئلة تتوارد على ذهنه ، متلاحقة مذهلة ، لا يريد ان يرد على اي واحد منها . كان مدفوعا بنداء خفي نابع من اغوار قصية في نفسه . لا مجال للتراجع ، ولا للتريث ، ولا لتقليب الفكر . فجأة دخل منطقة اللارجوع . كان الزقاق مضاء اضاءة تخفي اعالي البيوت ، وتثير شريط الماء الاسن الذي يجري في الوسط ، ولكنه استطاع بشيء من السهولة ان يهتدي الى البيت الذي يتوسط بيتين من طابقين احدهما بشناشيل خضراء ، والاخر ناتئ عن خط البيوت قليلا ، فيه شباكان مطلان على الزقاق . وجب قلب عبد الواحد ، حين وقف امام الباب الذي بدا كالمربع بتداخل الالوان القاتمة والفاخرة عليه . ماذا تخبىء نعيمة له ؟ لعبة من لعبها السابقة ايام الكر والفر ؟ الصبا والرعونة ؟ وارتفعت يده من تلقائها ، وطرقت الباب . وسعل لينبئ أن القادم رجل . ولم يسمع وقع اقدام خلف الباب ، ولكن الباب فتح ، وكانت نعيمة وراءه تقول «تفضل»!

دخل الى باحة انيقة الشكل يتصدرها ايوان عريض ،

مزين بعمودين خشبيين سميكين مضلمين تلمع من خلال لونها
البني الفاتح اريكة وكراسى ملبسة بقماش مورد زاه ، تضفي
على الايوان والبيت كله اضاءة اخرى بهيجة . والى اليسار
ايوان اخر مستطيل ضيق ، بأعمدة ايضا ، فيه ثلاثة وادوات
منزلية . ويبدو البيت كله وكأنها نظف وغسل لتوه . سارت
نعيمه امامه حتى الاريكة لا تنطق بكلمة ، وكأنها لا تريد ان
تنبه بمقدمه . وجلس عبد الواحد على الاريكة متوجسا حذرا
وكانه يدخل بيتا مسكونا بالاشباح . وجلست نعيمة على
كرسي الى يساره . وتابعته بعينها يفحص البيت كله ،
ويرسل بصره الى اركانه القصية ، وعلى وجهه الملفد قليل من
دهشة وتساؤل وانتظار . حتى اذا التقت عيونهما فهنت
نعيمه سر الدهشة . كان التساؤل يكاد يقفز من قسماته
المتوترة . بادرتة :

— الم تعرف البيت حتى الان ؟ هذا بيت صالح لاوند .
ارتخت قسماته بعض الشيء . ورف ظل غض من
طيف الذكرى :

— بائع الدوندرمه ؟

— هو نفسه . حين مات قسم اولاده البيت الى ثلاثة
احواش ، هذا الحوش ، والحوشين الى اليسار . هل
تذكر ؟ كان يقف في دكانه الصغير معوج الفك ، افطس
الانف ، يلف رأسه بيشماغ متهدل ينزل على جبينه . كانت
الناس تقول انه اقرع ، ويغطي قرعته بالياشماغ . ولكن تبين
ان اليشماغ لم يكن يغطي قرعة بل دنائير .

واخذت عيناها تغزلان غزلهما الرقيق ، وتلفاته به ،
وتجذباته الى ماض سحيق متصل بالطفولة .

— كأنه ذاك اليوم .

— هل تتذكر ؟

— جعلتني اتذكر .

— استطيع ان اذكرك بكل شيء . اذكرك بأمر طه .
بيتها ما يزال قائما في آخر الدرب الى جامع المصلوب . هل
تتذكرها ؟

— من هي أم طه ؟

وحاول جاهدا أن يتذكر ، يزيح عن ذاكرته غبار السنين
المتحجر . ولكن لم يكن في ذاكرته غير اشباح بلا وجوه .

— أمونة التي كانت تصنع « الغرارات » الملونة لزوجها
محمود ، فيبيعها لنا ، عندما كنا أطفالا .

— أها ، عندما كنا أطفالا .

ارسل آهة ، وكأنه أحس بوخزة .

— ابنها طه غرق . هل نسيت ؟ هذه الحادثة ما
انساهها طول حياتي . ذهبنا ، ونحن أطفال ، نتفرج . فرأيناه
على الشاطئ ممددا منفوخا ازرق .

— تذكرت ، تذكرت .

— أسبوعين ظل الأولاد يخافون من الشط الغدار ، ولا
يقربون الشاطئ .

— لم اكن غاوي سبح .

— كنت جديا ، عندما كنت تريد ذلك .

— ابي جعلني كذلك .

واغفل ما ترمي اليه ، ولو شعسر به مثل وخز في
الخاصرة .

— كنت اراقبك والفأس او المنشار في يدك .

— انت تتذكرين كل شيء .

— كل العيون كانت تراقبك .. بس انا كنت انتظر
لفتة منك .

وجعلت تطارحه الذكريات . اغرقته في لججها المتتالية
حتى شرق بالفصاة . ضحك حتى دمعت عيناه ، ولم يشعر
بها ، وهي تنتقل من الكرسي الى الاركة ، ثم تزحف جنبه
كحرف الشمس تلهب جلده ، وتوغر روحه ، فيعرف قائلا :
— اية ذكريات ! كأننا لم نكبر .

— كبرنا ، ولكن الذكريات لا تشيخ ولا تهرم .
والخرابة ؟

— الخراباة !

— تحت بيت المهندس يعقوب ، كأننا لم نجتمع فيها .
اطلق ضحكة خجل واعتذار ، لتذكر شيء مخجل
وجسور . ولم ينطق بكلمة . وابتسمت هي ابتسامتها
المبطنة . وتذكر عبد الواحد الان اين رأى هذه الابتسامة
لاول مرة ، فانطبع في زاوية مطمورة في ذاكرته : اين
رآها ؟ في الزقاق القديم ، ام في دكان ابيه ، حيث كانت تنزوي
في ركن وتراقبه ، عند بائع الدوندرمة ، قرب شجرة
« الفرارات » الملونة التي كان يحملها محمود ، في الخراباة
نفسها .. لا ، في الخراباة لم تكن تبتسم . كانت ترتجف وكان
هو ايضا . واحس عبد الواحد بحراجة من تداعي صور
الماضي كلها أمامه ، وهذه الذكرى بالذات .
— هل تذكرت ؟

وفجأة ظهر على شاشة ذكراه الغائمة نتوء بارز قبيح ،
هو صرتها المنتفخة ، فلجته ، وقال :

— يعني ، لا بد ان تنبشي الذكرى ؟

— لان الرجال ينسون ، والنساء لا ينسين .

— ونحن ايضا لا ننسى .
قال متشفعا ، وبصدق . فقد كان الماضي يخرج من
بطن ذاكرته كيونس من بطن الحوت ، حيا ولكن بندوب .
— ربما تتذكر الشيء الذي تحب ان تتذكره . اما انا
فكل شيء عندي كقطعة قماش واحدة فصلتها ، ولبستها
طيلة حياتي .

— ماذا تعنين ؟
— بقيت ملازمة لك منذ ان كنا صغارا ، وحتى الان
انت تملأ قلبي . لم اخنك ، ولكن انت الذي خنت .
— خافي الله ، يا ام جعفر .
— لبيتك قد خفته انت .
— للهلز وقت ، وللجد وقت .
— اتحسب ان علاقتنا كانت هزلا ؟ كانت كل الناس
تعرف .

— ولكن القدر يقرر شيئا غير الذي في قلوبنا .
— لا تدخل القسمة والنصيب في الموضوع .. انت
الذي اردت وقررت .
— هذا الذي حصل . فما نفع الشكوى ؟
— ولكنك ما زلت في مكانك من قلبي .
— ما هذا الذي تقولينه ؟
— اريدك .. انا ما ازال امرأة . ربما انا اصفر منك
بسنوات كثيرة ، كنت تلعب بي لعبا .
— يا ام جعفر ، كان من الممكن ان اكون جدا .
— ولكن صورتك لم تتغير في عيني .. ما زلت الرجل
الذي اريد ، أنت من دون كل الرجال .
— والتصقت به ، وطوقته بذراعها .

- جئت لغرض آخر .
- ارض غرضي ، ارض اغراضك .
- انا عفيف ، يا نعيمة .
- العفة كلام العاجز . هل انت عاجز ، لم تعد رجلاً؟
- عاجز عن خيانة زوجتي ، بعد هذه السنين الطويلة .
- دمعته بقوة شديدة ، وقالت :
- لقد خنتني طوال عمرك .
- أتسمين عبث الصبيان خيانة ؟
- هل تتصور ذلك التاريخ الطويل عبث صبيان . ألم
- نشترك في رغبات واحدة . . ألم نتعاهد ؟
- على أي شيء تعاهدنا ؟
- نسيت كل شيء ؟
- لم اقسم لك بالقرآن ، لم اخطبك .
- هكذا ، اذن ؟ هذا كل ما تبقى في ذاكرتك ؟
- كنت تطارديني ، ولم ارد ان اكسر خاطرك . .

واسف في الحال على الجملة التي قالها . اذ لا يمكن التبرؤ من اشياء حقيقية ، ولو كانت حماقات العمر ، ثم انه الان تحت رحمتها . جاء بمحض ارادته الى بيتها ، وترك لها الحبل على الغارب لتثير الذكريات الدفينة ، وتذكر ما كان يشدهما بخيوط كثيرة . يبدو انها هي الاخرى قد احست بالندم والهزيمة . قالت مكومة :

— كنت اطارد حظي .

وغبت نفسها ، وللمت اذياتها منه ، وتركته منبوذا لا يعرف ماذا يقول . ساد صمت مرهق مثل السير في كهف مظلم مكتوم الهواء ، طلع منه عبد الواحد بهذا السؤال مبسوح الصوت :

— اين البنت ؟

— اية بنت ؟

— حسيبة .

— ما زلت ابحث عنها ، وسأجدها في يوم ما ، لاقدها هدية لك من حبنا القديم .

وامتلأت نفس عبد الواحد ثقة وبراءة . نهض ليقبل رأسها ، وينصرف .

ذهب عبد الواحد الى بيته مهموما متأثرا ، وكأنه خرج من بيت مشبوه ، من الخرابة ، حيث كان يستجذبها اليها ، ويرفع ثوبها ، ويداعب صرتها المنتفخة . كانت تقف ملتصقة على حائط الخرابة المسقفة ، رافعة ثوبها الى صدرها ، مطبقة ساقها ، لتتركه يداعبها ، في المواضع التي لا تترك اثرا . ويبدو ان ذلك كان يورثها لذة طويلة لا تنتهي الا بتعب اصابعه ، وملله ...

في حياته اللاحقة كانت تظهر له من حين لآخر ، باصرار عنيد يوجب في نفسه رغبات جامحة ، ويزيده ارتباطا بها ، ويثقل كاهله بمسؤولية عن شيء لا يستطيع التخلي عنه كلياً ، لا يستطيع التبرؤ منه ، ولا ان ينكره . وكأنما مدته بجرعة ماء اثناء غيبوبة عطش . وكانت طوال حياته تلح عليه مثل عالم كامل من المحرمات الشهية المحرقة . ولكن الشعور بالذنب بقى يلزمه كلما رآه ، ويسد عليه نوافذ النسيان ، كان يريد لها ويتحاشاها ، ويشعر بظلمها الكثيف فوق حياته التي أنسابت في مجرى آخر .

كان قد ركن سيارته « البيك اب » قرب الحيدر خانة ، وانحدر الى الزقاق القريب من الجامع . والان رآها تنتظره ، ولكن رأى بعجة شوهاء ، في الرفرف الايسر الخلفي

لم تكن موجودة . لا بد ان سائقا ارعن احدثها ، وهرب .
وتألم عبد الواحد ، وتطير ، وقال في نفسه : « هذه حوبة
زوجتي » ، ورضي بهذا العقاب الصغير ، ولم يمرر يده على
البعجة ليتبين حجمها في ضوء الشارع الملهل . وانطلق في
شارع الرشيد ، بأقصى ما تسمح له السرعة في تلك الساعة
المريية من المساء .

في البيت فتحت له فضيلة الباب ، وقالت في رنة عتاب :
— تأخرت ! صرتم تتأخرون جميعا .

واحس عبد الواحد بأنه مشترك مع اولاده بتقصير
واحد ، وزاد شعوره بالذنب انه جاء الى البيت خالي اليدين ،
وهو الذي تعود أن يأتي محملا بحاجيات العائلة . لسم
ينادها لتأخذ منه ، ذلك النداء الذي كان يريح ضميره :
« فضيلة ، تعالي خذي » ! . جاء الى البيت فارغا منخوبا
لا شيء يهديه إليها . وزاد ذلك شعوره بالاثم ، ومده بدفقة
حنان غامرة نحو بيته ، وكأنها غاب عنه سنين طويلة ،
محجوزا عنه بالف جدار . كانت غرفة الجلوس مظلمة ،
وغرفة الطعام الى اليسار أيضا . يبدو أن فضيلة ، في غمرة
استعجالها ولهفتها، نسيت أن تشعل المصباح فيها . فاسترشد
عبد الواحد بالضوء المتألق في المطبخ . وجلس على كرسي
قرب منضدة الثرم .

— اصب لك العشاء ؟

— لا اشتهي . . . ولكن يعجبني ان اجلس معك قليلا .

— العشاء ما يزال على النار .

— لا اريد . هل تعشى أخوتك ؟

— لم يتعشى غير ماجد .

— وفاضل ؟

— لم يأت فاضل . وشامل قال عنده تدريب على

مصرية . ستقتله المصرية .

— وستقتلني ايضا . اين نحن والتمثيل ؟ نحن اناس محتشمون .

— كل واحد سيقطله ما في قلبه .

— ماذا يفعل ماجد ؟

— لا ادري . ربما يكتب .

— ماذا يكتب ؟

— وهل انا اعرف . اقرا لاعرف . ماذا يكتب . ولكن ،

على الاقل في البيت ، فليكتب ما يريد . ليت فاضلا كان في البيت ليفعل ما يشاء .

لم يرد أن يسترسل معها في هذا الحديث الشائك .
جاء ليتناغى معها .

— دعيه . سيعود الى عقله . المهم انت ، لماذا

انقطعت عن رؤية فيلم السهرة في التلفزيون ؟

— لوحدي ؟

— افتحي التلفزيون ، وستجدينا نتحلق حوله .

— نحن اصبحنا قصة تصلح للتلفزيون .

— سيكون كل شيء على ما يرام .

اجهشت تبكي : من الفرحة بالامل ، ام من القنوط ؟
فقال لها :

— المهم الا تجعللي الدموع تبلل عينيك . الدموع ربما

تغسل العيون ، ولكنها تجرح القلوب ، تنخبها من الداخل .

كفكت عبراتها ، وقالت :

— وهل البكاء بيدي ؟

— بيدك .

— لا . انا لا ابكي على نفسي . الآخرون يجعلونني ابكي .

وترقرقت العبرات في كلماتها . فراح ابوها يردد :

— كفى ، كفى . . رجعنا للبكاء ؟ صرنا عاشور الاعور
بيكي على حمارة ، لان حمار جاره مريض ، جعلتني اشعر
بالجوع ، يا فضيلة . اين طبيبك ؟ هاتي ما عندك ، واشفني
على ابيك من الجوع .

تهنئت ما بين الضحكة والعبرة ، وقالت :

— سالتك من الاول . الان ، في دقيقة واحدة سيكون
جاهزا .

ودبت الحيوية في حركات فضيلة . راحت وجاءت ،
بل وضحكت على نكات ابيها عن « عاشور الاعور » هذا ،
وتهللت اساريرها . لما فرغ الاب من طعامه ، صعد الى
ابنه ماجد .

كانت حجرة ماجد قرب السلم . واذا كان بابها مفتوحا
كان الجالس فيها يرى جانبا من درجاة السلم الاسمنتية ،
والمصباح المثل على باب المطبخ . نادى عبد الواحد عند
الباب المغلق :

— ماجد ، هل انت نائم ؟

— لا ، يا ابي ، تفضل .

دفع عبد الواحد الباب ، فرأى ابنه يدير له جذعه ،
هاما بالنهوض من وراء المنضدة الصغيرة ، التي يكتب عليها ،
المنضدة نفسها التي صنعاها له عند تخرجه من الثانوية ، على
امل أن يلتحق بكلية الهندسة ، ولم يرد شامل ان يستخدمها
في غيابها . والان بدا ماجد وكأنه كبر عليها .

— تبدو ، وكأنك ما تزال ذلك الطالب الجد .

— أجد مطلوب في كل الأعمار .

— وما الفرق بين عمر وعمر ؟

— جرعة المرح المسموحة للإنسان .

— كأنك في قلبي ، يا ماجد . وماذا تكتب ؟
— لا شيء يستحق الذكر . ولكن لا بد للانسان ان يفعل شيئا ليقتل الضجر ، الى ان يوفق في ايجاد عمله الاصلي .

— ستجده . لن تظل الاحوال على هذا المنوال . لا تهتم ، ما دمت انا على قيد الحياة .
— الله يطيل عمرك .

— ولكن مثلما قلت . لا بد ان يفعل الانسان شيئا ، والا فليماذا خلقت يداه ودماعه ؟

— اذكر انك ، بين عمل وآخر ، كنت لا تريد ان تتعطل فتصنع لنا مقاعد ومناضد واشياء اخرى لسنا بحاجة شديدة اليها .

— كنت افعل اسوأ من ذلك .

وضحك عبد الواحد ضحكة قصيرة ، لانه ندم كيف اغفلت منه ذلك . العمل ذلك من تأثير لقائه اليوم بنعيمة ؟ فاستدرك مستغفرا :

— لا ، لم أكن افعل شيئا لا يرضي ضميري . ولكن كنت اسلي نفسي او الهيها حتى لا تصاب بالكسل . عندما كنت صغيرا كنت آخذك الى سوق الدجاج لأمأكس البائعين على سعر زهيد ، لمجرد ان اثير الحركة في نفسي . كنت أخاف السكون والصمت ، وما زلت أخافه . هل تظنني ارتاح اذا رايت بيتي صامتا كالقبر ، لا مرح ولا ضحك ، ولا صياح . لا ، والله . هذا ما يرعبني كالموت . اريد له ان يكون صاخبا مرحا ، فيه من يدب ، ومن يحبو ، ومن يركض مالنا البيت مرحا وضجيجا .

وأطل صمت مطن طنين الذباب ، من الافكار التي اثارها

في رأسيهما . ولم يجد عبد الواحد كلمة مشجعة من ابنه ،
فطن انه لم يفهمه . فقال كلمة اعتذارية :
— نهايتها .

سارع ماجد ليقول .

— في الحركة بركة .

— هذا شعار أجدادنا ايضا . ربما لان اصلنا بدو رحل
لا نستقر في مكان حتى نبارحه الى اخر .

— نعم ، يا ابي ، والشعراء تغنوا بالحركة والضجيج .
فقالوا : « ولما اصبحوا اصبحت لهم ضوضاء » .

— احسنت ، احسنت — وتشجع عبد الواحد ليفصح
اكثر — كنت اريد لهذا البيت العابر ان يكون مثل العرب
الشائلة ، ولكن ..

ورنت « لكن » في حلقوم عبد الواحد رنيناً فجوعاً فقال
ابنه الكلمة التي كان ينتظرها منه :
— انا افهمك ، يا ابي .

— هل تظن انني كنت ضد حسبية ، لان اهلها كذا
وكذا . لا ، والله . نحن ، اصلنا من اين ؟ نحن كسبة ،
كادحون . عمرت هذا البيت بغضاريف يدي ، ولم أستغل
احدا ... آه ... انا سعيد لان ابني الكبير يفهمني .

— انا افهمك جيداً .

— شكراً لله على انني مفهوم من احد اولادي ، على
الاقبل .

— والآخرين يفهمونك ايضا .

— لا ، فاضل لا يفهمني .

— سيفهمك .

— لم ارد ان اسبب له سوءاً . لم اكن اعرف ان

خروجها يسبب له كل هذا الالم والعذاب . انطلقت من
مبدئي ، كما قلت لك . . . البيت الساكن كالقبر . لا تنس
انني انجبت عشرة ، لم يبق منهم الا انتم . كنت اريد بيتا
يمع بالصغار .

— سيمتد بك العمر لترى ذلك .

تأفف عبد الواحد ، وقال :

— لقد ينست من قدومك . قلت : غملت يدي من
ماجد . سيجد عملا هناك ، ويتزوج من اجنبية ، وينسانا .
لان رسائلك كانت قليلة . ولما طلب فاضل الزواج ، لم
اعترض الا لاننا لا نعرف البنت . ليس اصلها وفصلها .
فقط لاننا لا نعرفها . ثم توكلت على الله . قلت لنفسي : اذا
كنت لا اعرف متى سيتزوج ابني الكبير ، فعلى الاقل ارى
ذرية ابني الوسط . . ولم ادر انه بلا ذرية .

وكانت الجملة الاخيرة مشحونة بعاطفة جارحة ،
وكانها نذير بموجة بكاء . نهض ماجد من مكانه ، واحتضن
اباه الذي كان يجلس الى سريره ، وجلس الى جانبه . وكان
عبد الواحد يبدو مدعوك التقاطيع ، وكأنه يبكي بكاء صامتا ،
بكاء اخرس ، بلا تهاويل البكاء . هون عليه ابنته :

— لا عليك ، يا ابي ، ستملا ذريتك الدنيا .

تاوه الرجل ، وقال :

— لا ، بل اريدها ان تملأ بيتي .

— ستملاه حتما .

— وفي حياتي ؟

— في حياتك .

وتنفس الرجل ، وكأنه يتنفس الصعداء ، ثم اعقب
ذلك بسؤال مخرج :

- اتعرف ، يا ماجد ، وانا ابوك ، ان ضميري يعذبني ... ربما أسأت اليها ، والى فاضل .
- انت لم تسيء الى احد ... هذا شيء منطقي .
- ربما جنيت عليها ، شردتها ، وهي الان في حالة سيئة . لم اكن اتصور ان رد الفعل سيكون بهذه الشدة .
- انا اعرف ما في قلبك .
- كنت اريد الخير للآخرين ، كنت اريدها ان تنجب .
- انا اعرف ذلك .
- وليس لي شيء ضدها ، قسما بالله .
- اعرف .
- وانا الآن اشعر بالخطيئة عايتها وعلى فاضل ... يجب ان نجدها .
- سنجدها . اين تذهب ؟
- لا بد ان نجدها ، مهما كانت الامور .
- قال ماجد مثلما قال لاخته فاضل من قبل :
- سنتعاون على ان نجدها .
- اتفقنا ... سنتعاون كلنا .. انا ، وانت ، وامك ، وفاضل . ولكن لشامل قصة اخرى ... كان يتضايق منها .

كم اقطع من وعود ! وانا ابدو كسلحفاة مقلوبة على
ظهرها قرب شاطئ الحياة ، ارفس بأرجلي في فراغ الهواء ،
يقابلني وجه السماء الجامد ، واترحزح بيأس ، على رمل
الشاطئ ، عسى ان اعود الى وضعي الطبيعي ... متى..
متى سأعود مالكا ارادة التحرك ، وانغمر في رجرجة الامواج ،
واتلذذ بلمس الرمل الهش المترع الحياة ؟ وعدت ابي ، ومن
قبل وعدت اخي بأن أساعده في البحث . عن ابحاث ؟
عن اي ضحية ؟ ضحيته ام ضحيتي ؟ كلانا كانت له ضحية ،
بشكل او باخر . كلانا حاكت له الظروف قصة غامضة لم
يكن يعرف نتائجها . كلانا استجاب لوجدانه الذي تشكل
بمعزل عن ارادته ، في غفلة من الزمن .. ام كيف ؟! كلانا
استسلم لصوت طاغ متعجرف ملح يظل يطن في اذنيه طوال
العمر .. آه ، لو وجدت واحدة من الضحيتين ، على
الاقل . اذن لأرحت شيئا من ضميري المعذب . كلنا ذوو
ضماير معذبة . ألم يعترف ابي بذلك ؟ ليتني اساهم في
زحزحة الثقل الذي يبهظ كاهلي ، او كاهل اي واحد منا ...
ليت ، والى ليت ! ولكن سنوات الغربة تشعرنني بأنني اسير
في ارض وعرة . الارصفة المهشمة الطابوق ، الطالعة
الهابطة ، تعكف ركبتني ، ويتعبني السير عليها ، وتجعلني
اشعر وكأنني سأسقط في اللحظة التالية . كنت اتعرف

على اسماء مطبوسة ، واخاف الخطأ بشكل مقرف حتى في احاديثي العابرة مع الناس . اغدق بالاعتذارات لاقبل زلة . واتوجس وأنا اسير في شوارع بغداد ، واحاول ان اعيد الالفة بيني وبين الاماكن والاشياء التي تركتها هذه السنوات . كنت اسير في الطرق المؤدية اليها ، وارقبها من بعيد ، واتهيب من الاقتراب منها . من يدري ماذا غيرت السنون ؟ ربما اصطدمت بوجه غريب علي ، وافترستني نظرة مرتابة . كان الفراغ يثقل خيالي ، ويفقدني نعمة التوازن . كانني اخترق شوارع المستحيل ، واتخفى عن عيون الواقع ، ولا انال من السلوى غير حفنة من تداعي الذكريات . صار لي اصدقاء جدد ، ولكنهم يتكلمون بلغة مفرداتها الكثيرة غريبة علي . مادة متفجرة ، وانتحارية احيانا ، لغة استقوها من واقع عاشوه ، ولم اعشه انا ، لغة لا يستطيع ان افهمها بسهولة ، فردية تريد ان تصنع البطولة لهم وحدهم . الذات متضخمة تضخم الغدة الدرقية ، او مهروسة هرس حشرة ذليلة . والنهار منبوذ من الزمن ، والليلة باردة وضائع ومكثف الحزن ، وأنا احاول ان اضعف كثافة حزنه باعترافات لا تجلب الفرح . اية اعترافات هي ؟ انها تزويق صورة قاتمة بالوان باهتة من المبررات . ربما اصبت بعدوى اصدقائي في الضربيل بزرده بطولة هش ، لا تستر عورة زلاتي وذنوبي ؟ ربما لانني رايت شبحا لزهرة في حسيبة ، والنهاية واحدة مجهولة ، وغير مأمونة . . فتعلمت افاع سامة كانت نائمة في اعماقي .

لا اعرف كم قضيت من الوقت ، وأنا مراقب . لم يكن يعنيني الزمن ، آنذاك ، على الاطلاق . لم اكن انظر في الساعة ، ولا اعد الايام ، ولا احفل بليل ولا نهار . والسلوة الوحيدة عندي ، الترقب الوحيد الذي كان يفري جلدي احيانا ،

هو ان يخرج من البيت اهله ، ويتركوه فارغا لي ، مثل سفينة هجرها راكبوها ، والبحر من حولها عباب ، مملوء بالكواسر . عند ذاك ، أخرج من مخبئي ، في غرفتي الصغيرة في الطابق الثاني ، تحت الدرج المؤدي للسطح ، تلك الغرفة الموهمة بقطع الاثاث الكسيحة ، والمعاة بستائر قذرة بنفسجية تبعث في نفسي عريضة الجنون ، والرغبة في الانتقام ... ممن ؟ من نفسي اولا ، تلك التي لا استطيع ترويضها ، فتوثب في داخل جلدي حنة شموسا ، وتقذف بي من غرفتي الى البيت الفارغ ارعن مسعورا ، تتفجر في داخله قوة تدميرية لا تبقي ولا تذر ... كنت اترقب خروجهم . في الضحى كانوا يخرجون ، في العصر كانوا يخرجون ، بعد العشاء كانوا يخرجون ، كلما اشتبهت انفسهم الطليقة ، كانوا يخرجون . وانا بين هذه الفراغات اتأرجح مثل برميل من البارود ، معلق على حبل دقيق . واذا خرجت من مخبئي ، وخطوت الخطوات المتوجسة الاولى الى النافذة المطلة على الحوش ، واخرجت جبیني ثم عيني ، ثم رأسي كله ، ورقبتي ، ودليت جسدي الى الاسفل فعمل منحنر ، في تلك البئر السحيقة التي هي دنياهم ، وانقلبت كل حواسي الى آذان ، وأمنت الخطر ، تسلكت حافيا ، على اطراف اصابعي ، الى الممر المؤدي الى الدرج ، باللباس والفائيلة ، وجسمي احسه يتحرر من قيوده ، وينساب اثريا في الهواء ، منتشيا بكل حركة صغيرة جديدة عليه ، متلذذا بحريته الموشكة ان ترد له ، مطواعا ، عريبد فرح ، قفاص نشوات ، مغامرا انتهازيا ، صياد فرائشات أحلام .. ولا يزايلني توجسني الوهاج الا حين انزل الدرج ، على مهل وتريث ، متهيئا للنكوص بمثل تهوي للوثوب من جلدي . وتستقر قدمي اليمنى على ارض الحوش ، العالم السفلي المحرم علي ، واضرب ذراعسي في الهواء ، وكأنما انبثه بوجودي ، بحريتي التي توشك ان تطل

مثل رأس حلزون أمن الشر والاصطياد ، عندئذ لا يسعني البيت الفارغ كله . تضيق بي الجدران كلها ، تلتهم رثائي هواء البيت كله . اصير حيوانا هائجا شجعه سجانوه باطلاقه في حلبة . احس بالفرح الطاغي واصدر اصواتا مكتومة متشنجة ، كزكرة ، واصعد الدرج واهبط منه عدة مرات . اقتفز في الهواء ، الاكم اشباحا ، اركل حيوانات ، اقلب عقربا ، اقتفز حصانا غير مرئي ، اهزكتني كراقصة مصرية ، صدري ، بطني ، مؤخرتي . ارقص رقصات الزوج . اريد ان انفس عن الطاقة الحبيسة في اعطافي . واعجب متى ستنضب تلك القوة الكامنة في . يتصبب مني العرق ، وهي لا تنضب ، دة، قلبي كالمذكة، وهي لا تنضب ، توجعني مفاصلي وهي لا تنضب ، بل احس بدبيب تعب مريح ، تعب عافية واستفراغ حمل زائد ، تعب نشوة كذك التي تحسها حين تقضي حاجة جسدية ضرورية .

كانت تلك طقوسي ، صلاة جسدي المثلث باعباء الاختفاء ، رياضة لو لم اكن ازاولها لذبلت اعضاءي ، ولنسيت الحركة والسير ، وشعرت بجسمي يتحول الى حجر . كم شهدت هي صلاتي ، قبل ان اكتشفها ؟ كم مرة خافت ، تسمرت مشدوهة . ضحكت ، وضعت يدها على خدها دهشة ، على فيها مخافة ان تند منها آهة ! لا ادري . كانت تراقبني من مكنها هي الاخرى ، مكن اختارته لتطيل امد المراقبة على الاكثر . لم يكن المطبخ ، ولا الحمام ، ولا غرفة الغسيل ، ولا التواليت ، بل علبة مهملة فيها دراجة اطفال ، وموقد غازي صديء ، وصفائح الغاز السائل الفارغة ، وغير ذلك من سقط المتاع . ظلت قابعة هناك تراقبني زما لا ادري ما طوله ، ولم تبج هي لي به . ولولا تلك الهبة العابثة من دراجة الاطفال لظلت تراقبني الى ما شاء الله .

في بادئ الامر فزعت حين لمحتني — كما قالت لسي
فيما بعد — ثم استلذت بالحنقباز الذي يلعب امامها ،
واستطابت حركاته المخبولة .

تلك الهبة جعلتني التهم الدرج لا الوي على شيء ،
كأنها طلقة مسدس من الذين يتعقبوني . ولما وصلت الى
مخبي ، وهذا لغيظ انفاسي ، وثاب الي صوابي ، ضحكت
من نفسي في سري ، وقلت : أنها قطرة ، لا محالة . وظللت
انتظر خروج القطرة . وبعد ذلك سمعت حركات اكثر معقولة
لا تأتي بها القلط ولا الفئران ولا الارانب . استسلمت
لمصري . قلت لنفسي : على الاقل استرحت خلال شهرين
من الاختفاء ، وانا الان مستعد لمواجهة جلادي .

ظللت اراقبهم من نافذة مكمني المغيرة ، من بين قضبانها
الخارجية الصدئة ، في وضع غير مريح . ولو صورني
شخص ، وانا اطل من الفرجة ، لبدوت مثل شخص صلب
نفسه على قضبان نافذة ، وعض لسانه داخل فمه ، واعوجت
عنقه الموقوفة ، واندفن سواد عينيه تحت شحمة مقلتيه .
تصورت نفسي بهذه الصورة ، وانا ارفع حنكي ، واغوص
ببصري الى اقصى نقطة استطيع الوصول اليها في الأسفل ،
واعاين البقعة الشعناء الزوايا من قاع البئر التي هي حوش
البيت ، مستميتا في تعقب الظلال التي كنت احسها تكمن في
الجزء الذي لا يطاله بصري ، المعذب بالبلقطة وتدفق الدم ،
وتشدخ الاعصاب في اسفل العينين ، حتى لمحت الشبح ...
شيحها يقفز من الجزء غير المرئي الى جزء اخر غير مرئي ،
باعثا الرعدة في جلدة ظهري .

ومن تلك اللحظة بدات مطاردي للشبح . كففت عن
ممارسة طقوسي الجسدية . رياضتي الرعناء ، وصرت انتظر
خلو البيت لاطارد ... الشبح الذي لم ينبئني احد من اهل

البيت بوجوده ، كما لم الحظ اختلافا لا في سلوكهم معي ، ولا في تصرفاتهم فيما بينهم . وكنت ، خلال المدة ، قد تعرفت على اصواتهم ، وايقاع حركاتهم فردا فردا ، ولم اشعر بشخص طارئ بينهم . العلم لم يريدوا اخافتي وبث القلق والتوجس في نفسي ؟ خافوا على اهتزاز طمانينتي المهزوزة اصلا ، ولم ينبئونني بشيء . ومضت الحياة على منوالها دون تغير في الظاهر . بعض الممارسات الخفيفة لرياضتي السابقة ، التنقل الخفيف بين الدرج والمخبا ، تغطية اعطائي المتيسرة في الغرفة .

ولكنني امنت بوجود الشبح حقيقة خلال اسبوع من المراقبة الدقيقة . كان يبدو حبيسا مثلي ، يقفز كالقطط المذعورة من غيبه الى غيبه ، خارج دائرة بصري الضيقة ، ولكنني عدت اتبعه موقنا بأنه لن يفلت مني هذه المرة . كنت اطل عليه من فوق ، واحاصره ، قدر ما تسمح دائرة بصري ، في ذلك الجب المشعث بالنتوءات الزائدة من الدرابزين ، وبقيّة الجادر الملفوف ليغطي الحوش في الصيف ، والقاعدة التي تستقر عليها الباردة في موسم تشغيلها ، اطراف قرون الوعل المسمر في نهاية الجدار . كنت اقول لنفسي : سجين ، مثلما كنت أنا في وقت ما ، روح حبيسة اخرى تأكل نفسها . كنت افهمها ، اعرف موقفها ، معاناتها ، انقطاعها عن الآخرين ، وبقائها في البيت لا تزور ولا تزار .

عندما كان ابي يفتح حديثها كنت احاول ان اردّه ، بشكل لا يثير صغراوته . المرأة ليست دجاجة ، واذا لم تبض لك ذبحتها ، واكلت لحمها . لن ينفعنا ان نأكل لحم حسيّة ، فهو مر محرم . فلماذا نذبحها ، حتى ولو على القبلة ؟ كنت

اراهنا احيانا كسيرة الخاطر ، غريبة مهجورة . كنت اسالها
احيانا :

— الا يزورك احد من اقاربك ؟

— من يزورني ؟

— ولا تزورين احدا ؟

— لا احد عندي ازوره .

وكنت المحها احيانا لابسة عباءتها ، لمجرد ان تتخطى
باب الحديقة . وكان ذلك يثير قلق امي واخوتي . اسمع
همسا . « تريد ان ترى اولاد الجيران ؟ تفازل بعيونها احد
السابلة . لم تخلق للحشمة .. ملت .. تريد ان ترجع الى
اصلها .. »

وكان ذلك يؤلني الما شديدا .

— دعوها تشم الهواء .

— وهواؤنا فاسد ؟ واين تربت هي ؟ اين تربيتنا نحن ؟

وتغضب امي احيانا ، وتعاتبني قائلة :

— ولماذا لا تنصح فضيلة بأن تشم الهواء ؟ وهي دائما

في المطبخ ؟

والجم ، واكتم سورة حنق غير موجهة لاحد على وجه
التعمين . واسمع فضيلة تقول « انا راضية بقسمتي » ،
وينقلب ذلك الحنق الى انسحاق . واجد نفس منبوذا خارج
عملية جرت في غيابي ، وتكونت اصداؤها في نفوس لا تحمل
ذلك الاحساس بالخسارة اذا كانت تعيش في زاوية ضيقة
من عالم ارحب من كل التصورات . اظل وحيدا مخذولا
ليس لي منفذ غير هذه الاوراق ابثها انكساراتي المتكررة ،
واقفز عبر السنين الى مواقف غير مترابطة تسترجعها الى
الذاكرة مشاعر بنت اللحظة وقصرة الاجل تومض في النفس

كالشرارة ، ثم تنفتت تاركة في الغم ييوسة النضوب والفقدان .
ولكن تأتي لحظات صفاء تتجسم فيها الذكريات وتكتسي
نقاوة البلور ، الذي تتكسر على سطحه مئات من الاقواس
القزحية ، ويعود الى النفس شيء من ثقها وتماسكها وحلمها
وتبريراتها المعقولة . ولو للحظات قصيرة خاطفة . وحتى
الفشل يكتسب فضيلة معاودة المحاولة .

في ذلك الحين ايضا لم اكن اياس . كان يملكني ما
رد التحدي حين اقضي نهارا بلا جدوى . لا ارى شيئا ، ولا
ظل شبح . ولكني حين اضع رأسي على المخدة في الليل ،
كنت اجد نفسي يخفق فيها رفق الثقة في انني سأراه ، في
اليوم التالي ، مكسوا لحما ، بل ويرتدي ثياب النساء ،
ويرسل ضفرتين طويلتين على ظهره .

كنت اراقب « زهرة » من مكمني ، تروح وتجيء في
البيت ، مكبوسة القامة الى الارض ، يرتج نهداها ، وتتكرر
كتفاها ، وتتأرجح ذراعاها البضتان ، وتتراقص ضفرتهاها
وتهتز ان اهتزاز العوجة المهددة لقلب مذعور الى حد
الاحساس بالخواء . وكانت عملية المراقبة لا تبدأ الا حين يخلو
البيت من أهله ، خوفا من الفضيحة . فماذا سأقول لو
اكتشفت في حالة « كسر الرقبة » هذه ، متلبسا بمطاردة
غير شرعية ، ولو من ارتفاع غير مريح ؟ ولكن حين كان
البيت يهدأ ، وتخرج عفاريت النفس الامارة من مخابئها
السرية ، انسلق النافذة ، و « اكسر رقبتني » و اراقب . .
قد يمضي وقت طويل ، دون ان الملح شيئا . باحة البيت لا
حياة فيها ، ولا رجاء . . . واحيانا يخيل الي انها هي الاخرى
كانت تلعب معي لعبة « الغواية » . . تريدني ان اخرج بالفانيلة
واللباس والتهمة الدرج صنموذا وهبوطا . ولكن ، من اين
لي القوة الان ؟ تباورت كل قواي في المراقبة والنظر . وحين

تأيس زهرة من خروج « الحتق باز » تتخطف من جانب الى جانب ، بقامتها المصفوطة على الارض ، ونهديها الخفاقين ، وضفيريتهما المتأرجحتين . . . احيانا قليلة كانت تترنم بشي . غير مفهوم ، يتصاعد شيئا فشيئا حتى يستقيم اغنية مسموعة تنساب اعطاف زهرة على نغمها الحلو ، حتى يخيل انها على وشك ان ترقص . . . ترقص لي ، وحدي . . ربما كانت تؤدي طقوسها لي . احسنت بنظراتي ، وتهللت اعماقها وفاضت فرحة اغنية . ولكنها كانت تكمل الاغنية في الزوايا القصية خارج مدى بصري ، فأتأرجح في فراغ القنوط المشلول . الانتظار واللهفة تدبان في روعي دبب النمل . ثم يسمع صوت الباب يطرق ، أو الجرس يدق . . . وتخد حواسي .

بعد ذلك امتلأت حياة الاختفاء غنى وهما ، قلعا وخيالا . كل ذلك داخل قوقعة النفس ، وسراذيب ظنونها الموحشة . لقد ايقنت بوجود القادم الجديد ، وبحياته بين افراد العائلة . كانت زهرة تعلن عن نفسها بطلاقة ، وترفع صوتها ليصلني في علبتي المعلقة . فهل كانت العائلة من الغفلة بحيث تتوهم انني لم اكتشف الساكن الجديد ، او الذي كان يقضي سحابة نهاره طليق السراح ؟ ام لعلهم خشوا من اثاره قلقي بشكل لا مبرر له ، ام ظنوا انهم قدروا ان يكتفوا وجودي عن شخص غريب لم يثقوا به بعد . كل ذلك كنت اجوزه لنفسني ، واتعذب من ان اظل معلقا خارج قناعاتهم الزائفة ، مصلوبا على حبل التوقع والانتظار . وفيما بعد اعترف لي صاحب البيت قائلا : تركناها للمصادفات ، فهي التي ستصدر حكمها دون تعليل . والظاهر انهم كانوا يراقبون عملية القط والفار عن كثب . وحين تخلع المفاجأة قناعها تبدو الحقيقة غير قابلة للرد ولا للنقض .

وقد خلعتة بشكل غير متوقع .

جاءت ربة البيت انسى مخبئي ، وقالت : جئت لك بالشاي . ولم يكن في يديها الصينية المعهودة ، ولكن شبع عذاباتي وظنوني الماضية كان خلفها يحمل صينية مرقعة . واحسست وكانني ، من طول الانتظار ، أنا الذي كسوت التسبح هذا التوب المشرق الممتلئ بليوننة اللحم ، ولمعان البشره الحية ، وخلفت له ، من خيالاتي واوهامي ، ذلك الوجه الاسمر المدور ، والعينين السوداوين ، والفم المضموم الممتلئ ، واليدين الصغيرتين القصيرتين الاصابع ، الضنيتين بالكشف عما فوق المعصمين . حينذاك قالت ربة البيت اشياء كثيرة تبث الاطمئنان في نفسي، ولكن حواسي الاربع او الخمس او لا ادري كم كانت في تلك اللحظة ، لم تكن تصفي او تستجيب لكلماتها . كان جسدي الخائن الجبان ، وحده ، يرتعش ارتعاشة مشلة تجعل كل كلمة سأنطق بها او حركة اتياها ، فضحا مشينا للفعاليات السرية التي كانت تقوم بها حواسي المتكاثرة .

بعد تلك المقابلة القصيرة ، استلقيت على سريري اراجع حساباتي السابقة . لم تكن قامتها مضغوطة ، كما تصورتها ، بل اقرب الى القصر ، واقل امتلاء واكتنازا ، وكانت كتفها مدفوعتين الى الوراء قليلا ، كما بدا لي ، بحيث يعطيان لنهديها بروزا اضافيا ، فكنت اتخيلها من الاعلى اكبر من رمانتين ناضجتين . وكان وجهها الحنطاوي رصبنا بالوداعة والحزن المطلقين من عينيها الساجيتين ، اللتين بدتا لا تعرفان الرمش ، ولا الدهشة من شيء . كل شيء ممكن في هذه الدنيا ، ولا حاجة الى الانبهار او البهلة او غماض العين .

ومنذ ذلك اليوم بدأت اشرب الشاي من يديها ، واقول « سلمت يدك ! » في جراءة متزايدة لا تحرك بريق فرحة في

عينها ، ولا فتورا خفيا في جفניה . ولولا تلك الحياة المشعة من سواد حدقتها الابنوسي ، وبياضهما الفاتر لقلت انهما مرسومتان رسما . ثم كانت لي اوقت انتظاري . ثم صرت لا اعرف الوضع الذي كنت ألزمه ، وهي تدخل علي بالصينية التي لم تعد تحمل الشاي فقط . غاب عني تركيز الفكر نهائيا ، ذلك التركيز الذي جعلني خلال مدة اختفائي التهم كتب العالم كلها ، كل يوم كتابين ترسل الي من يد الى يد . ماذا عندي غير القراءة الادبية المريحة ، في العالم الرومانسي المخدر ، المملؤ باللفاظ ، والمواقف الميلودرامية لادباء العربية ؟ وربما ذلك حسنٌ لغتي ، فيما بعد ، وجعل لي قاعدة لقراءات اخرى . اما حين دخلت زهرة حياتي ، فقد اصيب معظم اوقاتي بالشلل العاجز . وتمر فترات من التوتر الارعن . انتقل من السرير الى الطاولة . اضطجع او اجلس على كرسي ، او اقف مقلبا كتابا من على رف الكتب الصغير . كل ذلك في انتظار دخولها علي . اي وضع اكثر جاذبية وعفوية ونداء ؟ على اي نحو يجب أن تجدني ؟ غارقا في تأمل ؟ غائبا ؟ مغمورا بدخان سيكارة ؟ ممزقا اوراقا ؟

واخذت الكلمات التي نتبادلها تزداد . الكلمتان اصبحتا اربعما ، والاربع عشرا ، والعشر حوارا قصيرا . وسألتني فجأة ، وعلى غفلة مني : لماذا بطلت الرياضة ؟ ضحكت ، ونظرت الى عينها الساجيتين ، الابينوس فيه لمعة خفيفة ، ولكنه ساكن سكون غابة استوائية وقت الظهر (هل هي ساكنة حقا ؟) قلت : كم من الوقت ظللت تراقبينني ؟ قالت : لا ادري ، لم احسب . وصار الامر طبيعيا مع وجود اهل البيت . كنت ، منذ البداية ، لا اشاركهم مائدتهم . والان صارت زهرة تحمل لي طعامي ثلاثة اوقات في اليوم . ولم اعد الى ممارسة رياضتي السابقة . كنت استخدم طاقتي العاطفية

والذهنية لكي امسكها بضع دقائق في غرفتي ، على ان لا يبدو ذلك نشازا ، ولا متعمدا ، ولا ثقيلًا ، ولا ملحوظا منها او من اهل البيت . كانت رائحة جسدها تذكرني بروائح العالم الخارجي المحرم علي . وكانت رصانة عينيها تلتهمني ..

الامل !

الامل !

كم عذبتني غواية آلام ، وخانتني ! . ولكن ظللت امل ، وما ازال امل .. كنت امل الا يتداعى الامل . وامل في الامل يظل امل الوحيد .. حتى اليوم حين خانتني للمرة التالية ، واحرق ورقتي الاخيرة في الدخول الى مكتب الاستشارات الهندسية . لقد اغلق هذا المكتب فجأة ، وسافر مهندسوه للعمل في دبي . فقد قيل ان الفلوس هناك تنصب مدرارا مع العرق المتصبب من الجسم من جراء الطقس السوغر .

ذهبت اغسل رماد الورقة المحترقة من نمبي بقدر شاي في مقهى « علوان » حيث توقعت ان اجد عصبة العاطلين نفسها مصفوفة على تخوته الخشبية القاسية ، تحتسي الشاي المدبس ، وتراقب السابلة بعيون نهمة وكأنها تبحث بينهم عن ضالة مفقودة . وكان « جليل » اكثرهم عرامة . كان يلتهم كل مقبلة ومديرة بعينين تستصرخانها ، تطالبان بحصة اكبر من الرؤية والشحنة العاطفية ، والقرضمة ... حصة تليق بشبابه الفتى ، وقوامه المشقوق ، وروحه الضاجة المتمردة . وفي طريقي الى المقهى تذكرت ما نمي الى من قصة سمعتها من السنة كثيرة عن « فحل » العصاة ، كما سمي ذات مدرة ، قصة تتعلق بالتعذيب الذي عاناه قبل ثلاثة أعوام ، وانصب على رجولته حتى اصابها بعطش لا

يصلح . وقيل لي ، في فصل الخطاب : وتغطية لذلك تراه
يقبل على الجنس الآخر بشهية صياد جائع ، وينتقل من
حب لآخر كالنحلة . ولكن علاقتي به ما زالت اهش من ان
تتحمل حتى التلميح الى موضوع كهذا .

اليوم رأيت جليل وحده في المقهى . قال لي قبل ان
أجلس :

— العصابة غادرت الى احد البارات المعتادة . هيا ،
نلحق بها .

— فمي جاف كالنشاف .

— احتس شايك ، وهيا بنا .

ولكي نسد رمقتنا ، فلا نسكر ، في وقت مبكر ، تناولنا
اربعة اسياخ من « ألفشافيش » تحت خيمة الرائحة الشهية
للكبدة والبصل المشويين . وفي ضوء « الكلوب » الفنتازي
مثل ضوء قمر حبيس ، راقبت ، خلصة ، ملامح فحل
العصابة . بدأ لي غير متناسق التقاطيع ، طويل الوجه ، بارز
الانف ، عريض الجبهة ، في عينيه ذلك البريق النهم الذي
يطل من عيون أولئك الذين يريدون ان يستقطعوا من الدنيا
شيئا خاصا بهم ، البريق الموحش المحير بجسارته وسرعة
انزلاقه ، ففتننى لو يثبت لحظة واحدة لتعرف ماذا يخفي
وراءه ، وتخشى في الوقت نفسه ان يسرق منك اكثر مما
تحاود ان تسرق منه . وفكرت مرة اخرى في سبب هذا الالاح
الزائد على التعلق بالجنس الآخر . اهو نتيجة جوع قديم
خلفته بيئة ريفية جافة مقلقة قضى عليها « جليل » طفولته
وصباه ، ام كبت مأزوم سببته فترات انقطاع قسري عن دنيا
الناس المألوفة ؟ .. ام هو ... على اية حال ... نتيجة
الاصرار على شيء تتشكك في قرارة نفسك ، وبعمق

احاسيسك ، في انك لا تملكه ... لقد سلبوه منك ! ولكنك
للاحتفاظ بكيانك متماسكا ، ولترفع عقدة النقص التي تنهش
قناعاتك ، تظل تؤكده وتؤكد ، وانت لا تدري انك تؤكد
الجانب العكسي من الصورة .

قطعنا الشارع فلاح لنا النهر كسكة بنية ضخمة لامعة
تملأ الشواطئ . وكانت البارات تدعونا بابتساماتها الحمراء
والخضراء والذهبية . وقفنا طويلا امام احدها . كان الطعام
الذي يطفو في معدتنا ، وحالة التوقع المضجر لما ينتظرنا في
الداخل من دخان وضجيج واصوات خشبتها الخمرة ، قد
سمرنا اقدامنا على ارض الرصيف . لا نعرف هل ندخل ام
لا . كان البار قصرا منيفا من طابقين كان عائدا لشيخ من
شيوخ العشائر قبل ثورة ١٤ تموز . سعد صاحبي بصره
فيه حتى خطوط الاضواء الملونة التي بدت عالية تعانق السماء
الشهباء . قلت :

— كائنك تراه لأول مرة .

قلت بعد برهة صمت :

— ذكرني بحلم حلمت به البارحة .

— حلمت بأنك واقف امام بار ؟

— لا ، بل حلمت حلما غريبا . حلمت انني امام مخزن
كبير ، كله من زجاج . وانا اعرف ، دون غيري من الناس ،
انه مفتوح الابواب ، مهجور ليس في داخله احد . . او هذا ،
ما تراءى لي ، وانا واقف امامه . واهم بالدخول ، ويعتريني
فجأة خوف غامض . فاقف امامه او بالقرب منه مشدوها ،
حائرا ، لا اعرف هل اقدم ام احجم ، او لعلني انتظر ساعة
بعينها ، فرصتي الوحيدة . والانتظار يشلني . والناس الذين
يمرون بي قلائل ، يلتفتون الي او الى المخزن . واعرف ان

سري سينكشف ، وأن بقائي مصلوبا على خشبة التخاذل ليس
بصالحه . يجب ان ادخله ، ولو اقتحاما ، ثم لماذا «اقتحاما»
والابواب مشرعة ، ولا يعوقني عائق ظاهري . ولكنني لا
استطيع ان اتحرك ، او لعلي كنت اتحرك بعسر وببطء
شديد .. وعندما تؤاتيني الشجاعة ، وادخل الباب المفتوح ،
اجد امامي حبالا متدلّية اتصورها مشدودة الى مفاتيح
المصابيح . فأسحبها ، ولكن المخزن لا يضاء ، بل يبقى
على صمته وشفافيته الخادعة كقطعة من البلور . ويسقط
في يدي . وكأنها كنت اريد له ان يتوهج باضواء من صنع
يدي . فافشل . واحاول ان افر ، لانني تصورت فجأة انني
دخلت مخزنا محرما لا حراس له ، وفشلت في اقتحامه ،
او اضاءة الانوار فيه . واسير ، وكأنني مقيد الخطى ،
لهفتي في الهروب أقوى من طاقتي على الحركة ، حتى اجد
نفسي امام مصعد يشبه مصعد أو درج « اورزدباك » ولكنه
مزدحم بالناس ، وهم يعيقون سري واختفائي . وعندما اهم
بالحركة احس بفتاة ورائي تطلب الي أن اتبعها . التفت
اليها . فتاة نحيلة هيفاء مطلّية الوجه بمساحيق ثقيلة
كالقناع . وأنا لا اعرف لماذا احلم بفتيات يرتدين اقنعة ،
ممشوقات القوام ، قبيحات الوجوه . ولكن هذه الفتاة تسمح
لي بأن اعبث بنهديها ... واسترطب ، وابق من الثوم في
حالة تعسة .

قلت ضاحكا :

— حلمك حلم مركب .

— هل له مدلول ؟

تسأل بلهفة . قلت :

— لست مفسر احلام ، ولكن يبدو ان هناك قلعة تريد

ان تقتحمها ، عقبة تريد ان تتجاوزها ، ولا تستطيع .
— ولكن المخزن كان مفتوح الابواب ، وكل شيء واضح
فيه ، ولدي الجسارة على الدخول ، وجذب حبال الاضاءة ،
ولكن الضوء يخونني .
قلت :

— ربما هي ذريعة ، خيانة الضوء . فقد كان شفافا
كما وصفته لي .

— ذلك هو الذي يحير .. مضاء من الداخل ، ولكنني
انشد اضاءة الانوار .
قلت كالعاجز :

— ربما كان لذلك صلة بما يدور في داخل نفسك .
— في نفسي تتداخل اشياء كثيرة . السياسة ، المرأة ،
الاخلاق ، الفشل ، المستقبل ، الى غير ذلك .

— في السياسة تريد ان تقتحم شيئا صافيا تعرف فيه
طريقك ، ولكنك تعجز وفي الحب ايضا ...

— ليس هناك شيء صاف في السياسة ، ولا في
الحب ... ليس هناك شيء صاف على الاطلاق .

— ولكن من اين جاءت قطعة البلور التي وردت على
لسانك ؟

سكت جليل ، ثم قال :

— ربما من طفولتي .. طفولتي هي الوحيدة صافية ،
مثل ماء بحيرة من بحيرات العمارة .

وتعبنا من الوقوف ، والتنقيب عن تفسير معقول .
فدخلنا الى البار . ووجدنا قاعة صغيرة قرب المنصة ، وعندما
تعودت عيوننا على ضوء المكان الشاحب ، اكتشفت الى

يمينا قاعة كبيرة مملوءة بالدخان ، فتبدو وهمية كما في
الاحلام . قلت مازحا :

— من يدري ؟ لو توغلت في ذلك المخزن المضاء
خارجيا ، لرأيت خائفا على هذه الحال .
— اتعتقد هذا ؟

— لا أدري !.. كل شيء يتخلخل امامي ، ويخرج شيئا
فشيئا عن معقوليته . كل شيء يبدو غريبا لي ، مشوشا
ومخلوعا من جذوره ، لا تعرف منه الحابل من النابل .
— ومتى عرفنا الحابل من النابل ؟

— لا تنس لحظات الصفاء الفكري واليقين في الماضي..
ربما انت اصغر مني ولا تذكرها ..
— أتذكر ، ولكن بغموض . كأن قذى السنوات الاخيرة
يشوه بصري .

— ربما هذا هو تفسير غير مباشر لحلمك .

— لا أدري . كل شيء جائز .

— اتعرف ماذا رأيت اليوم ؟

— ماذا ؟

خفضت صوتي الى حد الهمس ، وقلت :

— رأيت رئيس وزراءنا ينزل من سيارته السوداء ،
ويقف عند نقطة شرطي ، وينظم حركة المرور ، تهما مثل
اي شرطي محترف ... رأيت بكرشه ، وبدلته الزرقاء
المترهلة يؤثر بيديه .. لم تعوزه الا الصفارة ! اهذا
معقول ؟

— قلت لك : كل شيء جائز .

— وماذا يدل ؟

— ماذا يدل ؟ — واطرق وحصر شفته السفلى بين
ابهامه وسبابته ، ثم قال :

— يدل اننا سنصاب بكارثة ... اذا لم يبق لرئيس
وزرائنا من عمل ، غير تنظيم حركة المرور فمعنى ذلك ان
اعمال الدولة متوقفة .. يعني لا دولة ، فراغ سياسي !

وحاولنا ان نبخلق في الفراغ الهولي الداخن امانا .
لاحت لنا مناضد ، واشباح سوداء منكبة عليها ، وجهرات
حمراء صغيرة تتذبذب فوق الموائد . والضوضاء المرسومة
تصطدم بالسقف ، وتتكرر شظايا لا لون لها ولا معنى . ثم
لاحت الوجوه كرات سوداء مبرقعة . الايدي المنتهى بعضها
بتلك ألجمرات المتحركة تصعد وتهبط بحركات عصبية . تحطم
شيء زجاجي . وابتلع الضوضاء لحظة واحدة . ولكن اي
حوت سيبتلع هذا الدخان . انزويانا في زاوية شبه مضاعة ،
وتريثنا لعل اصحابنا انفسهم يروننا ، ويقودوننا الى
مائدتهم .

مال جليل الي ، وهمس في أذني :

— اتعرف ان اخاك في المعهد يلعب لعبة خبيثة ؟

— ماذا يفعل ؟

— هجر خطيبته ، ومال الى فتاة اخرى اجدى له في سنة
التخرج هذه .

باستغراب قلت :

— هل كانت له خطيبة ؟

— او من كانت تعتبر كالخطيبة . فتاة رائعة صاحبها
طوال سنوات المعهد . والان يلعب على فتاة اخرى .. اتريد
الصدق ؟ لقد نبهته الى الامر .. ان لي قصة مع هذه الفتاة ،
او قل ان لها قصة معي .

— ولم ياتفت الى ارشادك ؟

— اخوك مصاب بهوس عاطفي ... احيانا ينتقدني الناس على صلاتي العاطفية .. ولكنني مستقيم ، ولا املك هذه الخلطة العاطفية .

خلطة عاطفية !

هذه الكلمة رنت في نفسي رنين شؤم .

هل كتب علينا جميعا ، نحن ابناء عبد الواحد الحاج حسين ، ان نصاب بهذا الداء الوبيل ، وننشطر عاطفيا ، ونختلخل ؟ كنت اتصور ان اصفرنا سنا اكثرنا بعدا عن التعميد العاطفي . كان يبدو لي جافا ، اذا عصرته لم تطفر منه قطرة عاطفة ، فاذا به مرتبط ، مثل اخويه ، بامرأة يريد ان يستبدلها الان باخرى . خلطة عاطفية ! وفي حالته هذه انتهازية عاطفية ، اذا صح هذا القول ! وانا ، ماذا اقترفت في الماضي ؟ خلطة عاطفية أم جريمة عاطفية ؟ نعم ، تلك هي ، وان لم اقصدها . لم تكن حبال العصير بيدي ، لآحركها ، واضيء انوار المستقبل . او لعلني عجزت مثلما عجز جليل في تحريك حبال الضوء في مخزنه العجيب . كنت سجين نفسي ، رهين المحبين : الكبت والاختفاء ! وكانت هي تقدم لي الفطور والشاي . والظاهر ان اهل البيت وثقوا بها ، فمهدوا اليها برعايتي . كنت اتسلم الشاي بيد مرتجفة . سرى الارتجاف الى يدها ايضا . ثم بدأت اشم رائحتها . رائحة ريفية صافية ، ذكرتني برائحة تعود الى طفولتي ، ايام كنت اشترى الحليب من حلابة . رائحة تشدك الى الأرض ، وتبعث زوابعها في شرايينك . وقد شدتني هذه الرائحة شد الاسير باصفاده ، وجعلتني اطلل استيقافها اكثر فاكثر متحدثا احاديث تافهة ، سائلا اسئلة فضولية .

من اين انت ؟ ومن عندك في قزرباط ؟ يعني العائلة كلها
 هاجرت ؟ بقيت خالتك وجدتك ؟ طابت لكم بغداد ؟ بغداد .
 تبطلع كل شيء . وكانت تنظر الي بعينين رائعتين عطوفتين ،
 كأنها تنظر الى عجل ولد لتوه . وكنت احس بغوران الدم في
 شراييني ، وهي ترمقني رمقاتها القصرة الساجية . وكانت
 تاتيني بالمجلات التي يشتريها أهل البيت ، واغلبها مصورة
 صادرة من ارض الكنانة . وتشير زهرة الى بعض الصور
 المترفة ، وتقول : من هؤلاء ؟ وكنت اجلسها الى جانبي . واقرأ
 لها ما تحت الصور ، واحس بدفء جسدها يحمي مجسات
 جسدي ، ورائحتها الصحية المعافاة تملأ خياشيمي . وكنت ،
 عن لؤم ، احاول اثارة فضولها لابقيها الى جنبي أطول وقت
 ممكن ، ثم تتنبه الى نفسها ، وتقول : اوه ، فات وقت
 الطبخ ! او ورائي تل من الغسيل . وتفر تاركة اياي في ذروة
 النشوة والاحلام . واحيانا كنت اخلع مسوح وقاري ، والحقها
 في المطبخ ، والاحقها بالصور : « انظري هذه ، وانظري
 تلك .. » . ولم أكن ادرك معنى ما اقوم به . كنت منجرفا
 بقوة طاغية لا ترد في أن استرسل فيها لا اعرف ما اقصد ،
 ولا الى ما ينتهي اليه . كنت مدفوعا بتلك القوة الهائلة
 التي كنت احاول ان استنزفها من قبل بالبهلوانيات
 الجسمانية ، والان اقوم ببهلوانيات من نوع آخر ، اريد شيئا
 لا اعرف ما هو على وجه التحديد ، نوعا من الاثبات على
 انني لم أمت أو اتحجر جزئيا ، وانني مثل سائر البشر ، اعيش
 بكل طاقاتي .. وذلك ايضا نوع من الحماية ضد المعجز الذي
 يهاجم المريض والسجين والمفلول والمتيسس في وضع لا ارادي .
 كنت ، ربما ، اريد ان أثبت انني لم انس ما يزاوله الآخرون ،
 وما زالت لي القدرة على مزاولته . ذلك هو التحدي للمقدور ،
 كما قرأت فيها بعد . سجين زندا يتحدى البئر التي سجن
 فيها ، ويعارك قضبانها .. هذا ما ارتسم في طفولتي المبكرة

لهذا أفلم العميق التأثير في نفسي . أنا سجين زندا ، وفي الليل أحضر الخطط للهروب الخيالي من القضبان الصدئة الكالحة التي تثقل على روحي . كيف سأثير فضولها ؟ كيف أمسك لحظات تقاربنا ، وامتزاج انفاسنا ورائحتنا ؟

صرت اتعجل اهل البيت ليخرجوا . وحين يمكنون يوما كاملا في البيت ، يصيبني السأم حتى اود لو اصرخ بوجوههم ان اخرجوا . . . أنتم جالسون على روحي كالحجارة . واحسب انها كانت « تتكرض » مثلي في مطبخها هناك ، او هذا ما كنت اتخيله . ثم جاءت « مرحلة » النظرات الطويلة التي كانت تصعدها في ، وتحقق بعينيها الساجيتين . تقف امامي ، وقد ارتخت المجلة بين يديها ، وراحت تحديق في . واحيانا كانت تلاحظ شيئا في ، ثم راحت تعلن عن وجوده . بإشارة من يدها الى هنا وهناك من وجهي ، وشعري ، وهيئتي . واعتبرت ذلك نصرا « مؤزرا » لي . يعني انها بدت تهتم بي . نظراتها تتفحصني . ومرة . . . مرة أمسكت يدي ، وقالت : اظافرك طويلة . ولعلها فطنت لهذه المحاولة الجريئة ، فسحبت يدها بسرعة ، وكان هذا اول « تماس » غير عرضي بيننا . قلت مهتلا الفرصة :

— ساعديني في تقليدها .

— وانت ، ألا تستطيع بنفسك ؟

— أستعمل اليد اليسرى صعب علي .

وفي يوم اخر جلبت مقصا — وكنت قد نسيت فمكرتي الجريئة — وجلست على مقربة مني تقلم اظافري . أمسكت يدي بيدي ، ومضت باليد الاخرى تبتر الزوائد الميتة الحية من جسدي ، في حركة ناعمة احس بهرجوعها في ظهري دغدغة دافئة . ويومها رغبت لو كانت لي مائة اصبع لتمتد هذه

العملية المخدرة للذيدة ، حيث استطيع ان اغمض عيني ،
وانسرح في أحلام ، واتخيل حقولا مشمسسة ، وشواطئ
رملية ، وبساتين وارفة الظل ، وانا وهي .. والافلاك تسبح
في مداراتها بعيدة عنا .

هل كان اهل البيت يشكون في العالم الخاص الذي
صنعناه لانفسنا خارج حياتهم المنزلية ؟ لا ادري ! ولكن رب
البيت قال لي ذات مرة : كانك على طلعة ! رأيت حليق الوجه ،
معطرا ، مقلم الشاربين ، نظيف الثياب . قلت : تفاعوا
بالخير تجدوه . ورأيت شررا يقفز من عينيه ، وكأنه إمارة
تواطؤ . ورفع من الطاولة مجلة مصورة ، وخيل الي ن
ابتسامة رفت على شفثيه . لا بد انه تذكر نفوري القديم
من المجلات المصورة . كنت اعتبرها مضيعة للوقت ، مثل
الاستماع الى اغاني عبد الحليم حافظ ، وأحلام وهبي ،
وهيفاء حسين .. والان تتجمع كل المجلات المصورة تقريبا على
طاولتي قرب الراديو الصغير الذي كان يهيس بالاغاني
العاطفية . عزوت ذلك الى الضجر . يفتت الصخر ، فكيف
بقلب ضعيف كقلبي ! ولعله هو الذي جعل الناس يبتكرون ما
لا يخطر على البال لمحاولة طرده عنهم ، لا قتله ، فالضجر
غير قابل للقتل كليا .. اي ، نعم !.. قالها بحيادية مشوبة
بظل خفيف من الدعابة الساخرة ... ومن ذلك اليوم كانت
تتناوب هي واهل البيت في جلب الشاي والطعام الى مخبئي .
وكانوا اذا خرجوا ارسلوها في مهمة تقصدا او لغاية في
انفسهم ، يريدون ابعادها عني وعدت الى اهمال حلاقة
ذقتني . ولم اعد ادير الراديو الا لسماع نشرة الاخبار الملة .
وتساوى الليل والنهار ، كما كانا في السابق . ولكن العاطفة
التي كانت تعلن عن نفسها باشكال عديدة ، بريئة وخالية من
الاذى ، انزوت في القلب تنخر فيه ، وتخطط لمشروعات

انتحارية . صرت ادير في ذهني ، ماذا سأفعل اذا اسعدني
الحظ ، وجاءت قادمة بشاي أو طعام . اكبر عدد ممكن من
الامعال الهوجاء فتقتها العاطفة المكظومة ، اطيل امساك
يدها ، امسد على شعرها السبط ، اتغزل بعينيها
السجواوين ، اضع ذراعي على كتفيها متمتا : « عاشت
يدك » أو ... أو ... اطبطب على خدها ، اقرب وجهي
من وجهها في الشروع بقبلة .. مع وقف التنفيذ . كل شيء ،
كل شيء فيه أقدام ونكوص في ان واحد . وكانت احيانا تهز
رأسها ، وترفع اصبع التحذير ، ولكنه تحذير حلو خال من
العتاب ، بل تصورت فيه حثا لا مسؤولية فيه ، حين تقف
عند الباب ، وتنظر نظرة باسمه مبرة من الغضب ، وكأنها
عادت تراني في رياضتي البهلوانية ، ايام كنت انهب الدرج
قفزا ووثبا ، واقلب « عقربا » ، والاكم الهواء ... ومرة ،
في لحظة خاطفة ، مثل نزول نيزك ، مرقت شفتي عن الخط
الذي كنت الزمها على الا تتعداه .. و .. مست شفتيها مسا
رقيقا ... لثما ، حتى احسست بأنها مرت على زغب ناعم .

وكان ذلك بداية للانهيال الجليدي .

(الطلاب انفسهم متناثرون على المقاعد)

- شامل : (ينهض) يبدو أن النصاب كامل .
خالد : بل وفيه زيادة مباركة .
هيفاء : هل تجدونني زائدة بينكم ؟
اصوات : لا ، أبداً .
علوان : ستقومين برسم التابلوهات .
شامل : الآن عرف كل واحد دوره الخاص ، كما ان كمال
قبل بأن يمثل دور الابن الاكبر . والتفاتت قبلت بتمثيل
دور الزوجة الهاربة .
جلال : رغم ما فيه من تعقيد .
شامل : وفكرة المسرحية واضحة عندكم ، كما اعتقد .
جبار : على الشرط الذي اتفقنا عليه في الجلسة السابقة .
شامل : اتفقنا .
جبار : اسمحوا لي (يرفع يده) بما ان الامر يخصني ويخص
زوجتي ، وهي عقدة المسرحية ولبابها ، فيجب ان
تفهم وجهة نظري .
شامل : تفضل .

جبار : سبب هروب الزوجة غامض . لماذا هربت ؟ هل بسبب سلوكي ام لعوامل اخرى ؟ .. دعني اكمل ، لا تستعجل ! أن ذلك يمكن ان يفهم من سلوكي ، من علاقتي معها . هل لانني أهملتها ، وصرخت في وجهها : انت عاقر ؟ هل — واسمحوا لي بأن استعمل كلمة لا يستعملها الجاهل من امثالي — هل فركتها ؟ يمكن ان يكون ذلك ، فيبرر ، ولو قليلا ، انجذابها الى أخي الكبير ، السيد كمال ، الله يحفظه ، ولكن هذه قضية معقدة ، واصبع الاتهام يمكن ان تشير الى اكثر من جهة . ولهذا يجب ان توضح بشكل لا يحتمل اللبس .

(الانظار تتجه الى شامل)

جبار : (يتشجع ويردد بصوت مسرحي) من المسؤول عن فرارها ؟ انا ام الآخرون ؟ اجب عن هذا السؤال يا مؤلف المسرحية .

علوان : المجتمع طرف اخر في القضية .

جلال : الأب والام والعمات والخالات ، وحتى الجيران . قلت لكم ان العقم يا ما دمر عوائل ، وخرب بيوتا .

شامل : الحقيقة انني في الفكرة الاولى لم ارد ان اؤكد على هذه الناحية . كنت اريد أن ارسم عائلة غير متماسكة .

خالد : لا اظن ان هناك سببا لعدم التماسك .

شامل : التشتت واستقلال كل فرد بذاته .

خالد : لا ، اقلع هذه الفكرة من رأسك . هرب الزوجة ليس كارثة . انها نتيجة طبيعية ، رد فعل مقبول .

علوان : حسنا ، لناخذ رأي التفات . لماذا هربت ؟
التفات : لو كنتم تريدون رأيي ، فهذا هو . ما كنت قد هربت .
بل جلست الى زوجي ، وبحثنا الموضوع فيما بيننا ،
وتوصلنا الى قرار . واخر الدواء الكي ، كما تقول
العرب ، اي الطلاق .

شامل : ولكنها من بيئة اخرى ، لا تفكر تفكيرك .
التفات : وليكن ! كان يمكن أن يتخذ هو قراره . . تطليقها .
والعذر واضح ومسوغ شرعا ، على ما اعتقد ،
وهي انها عاقر . ولكن يبدو انه يحبها .

شامل : ولماذا هربت ؟

التفات : اجد هروبها دليل حب له . على الاقل تركته مع
نفسه ليقرر ما يشاء ، وتبقى لها ، بعد ذلك ، شعرة
الامل الدقيقة ، وهي أن يحس بغيابها ، ويحن
اليها ، ويسعى الى اعادتها . اعتقد ان هروبها
مسوغ من وجهة النظر هذه .

جبار : ثم من يدري اية ضغوط كانت تتعرض لها .
جلال : من جانب الام والاب ، والعمات والخالات .
شامل : الا تجدون سببا اخر لهروبها ، شعورها بالعار
لعلاقتها بأخيه ؟

جلال : انت مخطيء في محاولتك لجعل ذلك حدثا مسرحيا ،
ولو كان لمسرح اللامعقول . لانه يطرح اي مدلول
فكري .

كمال : ثم أنا ، الابن الأكبر ، لا اجد هذه العلاقة قائمة
ومبررة . انني ، كشاب مثقف ، قادم من الغرب ،
حيث الهموم والتعقد الحضاري ، لا بد أن تكون لي
هموم العودة الخاصة بي ، مثل ايجاد موضع قدم

لي في ارض الوطن ، البحث عن وظيفة ، تفهم مجتمعي ، وما حولي بعد غياب سنين طويلة .

فكيف اترك كل هذه المسائل الحيوية ، وانخرط

في حب محرم لا اربح منه شيئا ؟

علوان : اسمع ، ربما ذلك يبرره الفراغ الذي وجد نفسه فيه .

جبار : الفراغ ذهول وضياح .

علوان : وقد اصيب الاخ الاكبر بها . ربما تكون فكرة شامل مفهومة من هذه الناحية .

كمال : الذهول ممن ؟ من جمالها الساحر ؟ امرأة مسكينة ، كما يصفها شامل ، أمية جاهلة من وسط لا يذل على رفعة تجتذب شابا خبر اوربا بكل ما فيها من لذات ، وتناقضات وحيل . فكيف يقع في حب ساذج ؟

حسن : اي خبرة تلك التي تتحدث عنها ؟ كلهم يعمدون بقلوب كلية ، وهم من الناحية العاطفية يمثلهم بيت امرئ القيس (لقد نقتبت في الدقاق حتى رضيت من الغنيمة بالاياب) .

جلال : يفتتح تاريخ عودته بارتكاب جريمة خلقية ؟

حسن : المفهوم من البداية ان شامل يدين الغرب . الم يتحدث عن العقد النفسية ، وما الى ذلك ، في اول طرح له لموضوع مسرحيته ؟

جلال : ولكن ماذا ندين في الغرب ؟ العلم ، التكنولوجيا ، الراسمال ، الاستعمار ، ام الطبقة العاملة ، الثقافة والمثقفين ؟ كل هؤلاء موجودون تحت سماء الغرب .

شامل : ولكنهم جميعا يستحمون في حمام حضاري واحد .

كمال : لا اظن ان هناك حماما عموميا لكل الطبقات .

شامل : انا اتحدث عن الاخلاق ، عن التسبيب ، عن الحرية
في ارتكاب الموبقات ، وتخطي الحدود .

خالد : تقصد الفساد . للفساد الوان مختلفة كالحرباء ،
وهو يحمل رائحة الارض التي عشش فيها .

لطيف : كأننا محرومون فسادا . تفضل ، واغرف منه كما
تشاء .

اميرة : لطيف ، للجدران آذان .

جلال : وللشعب السنة .

خالد : وللشباب سواعد .

جبار : كفاكم ثورية ، ولنعد الى موضوع المسرحية . فقد
تبلور ، كما يبدو ... يا رب ، اخلق مسرحية
عراقية !

حسن : اتعرفون ماذا سمي خالد بن صفوان الدعاء ؟
سمناه مجانيق الضعفاء ، وحذر الناس منها .

جبار : لنعد الى الموضوع اذن . الكلام لكامل الآن .

كمال : لا ادري . شخصية الابن الاكبر لا تعجبني في
حالتها هذه . لماذا لا تجعل له عقدة اخرى ،
يا شامل ؟

شامل : مثلاً ؟

كمال : لا ادري بالضبط . ربما كان له حب مقطوع الجذوع
في غربته ، فرأى في زوجة اخيه شبيهاً ما بتلك التي
غادرها مطعون القلب .

شامل : (بسخرية) يعني لا يفرق بين القطط السود
والقطط الشقر ؟

كمال : اقصد ان تجعل له شيئاً من هذا القبيل يواشجه

مع شيء مفقده في بلاد الغربة .. او اجعل له
عمرا ضائعا يتحسر عليه ، عقدة نفسية اخلت
بتوازنه .. اجعله مكلوم القلب .

حسن : ولي كبد مكلومة من يبيعني

بها كبداً ليست بذات كلوم ..

شامل : تورطه في حب آثم يدل على جرح نفسي عميق .

كمال : ولكن لماذا يعتدي على اقرب الناس اليه ؟

حسن : هذه عادة قديمة عندنا ، نحن العرب لان « ظلم
ذوي القربى اشد مضاضة على النفس من وقع
الحسام المهند » .

شامل : اسمعوا ، ستجعلونني اغير وابدل ، حتى تنتفي
متعة الخلق ، وساكون تعيسا .

جلال : على العموم ستكون احسن حالا من ذلك العامل
الذي اعترف بأنه لم يصنع طيلة حياته سوى الجزء
الثامن عشر من الدبوس .

شامل : لن تكون هذه المسرحية مسرحيتي .

علوان : نحن في عصر تقسيم العمل .

شامل : عندئذ لن تعبر المسرحية عن افكاري .

حسن : ستختنك افكارك .

شامل : لا ، لا اريد .

جلال : يقول كونراد : ان عملا ملهما ، مهما يكن متواضعا

يجب ان يحمل تبريره في كل سطر ، كشرط للفن .

وانت ما هو تبريرك في سلوك افكارك ؟

شامل : سقوطهم .

علوان : ولكن لماذا تجعلهم يسقطون ؟

شامل : السقوط ايضا تجربة حياتية .

خالد : اسمع ، لماذا تدافع عن شخصياتك ، وكأنها شخصيات حقيقية ؟

شامل : انطعت في ذهني حتى صارت شخصيات حقيقية، ولا استسيغ تغييرها .

جبار : انا متنازل عن اعتراضى . من اجل المسرح تسوّغ كل الاشياء . دعوه يخلق التصادم الضروري ضرورة عفاف المرأة .

علوان : (بصوت تمثيلي مضخم) : عفاف المرأة زي عود الكبريت ما يولعشي الا مرة وحده ! صدق رب المسرح القديم يوسف وهبي !

خالد : ولكننا نناقش عفاف الرجل .

علوان : عفاف الرجل كالولاعة يظل يولع حتى يخلص البنزين .

لطيف : يا ربي ، متى يخلص بنزين شامل ؟ اقصد احتراقه في جذوة افكاره ؟

جلال : لن يضعف شامل .

علوان : « ايها الضعيف ، يا من اسمك امرأة ! »

جلال : ما دمت عرفته بهذا القول الشكسيري فلن ينزل عن بقلته .

شامل : اتحسبني لا اعرف المسرح الشكسيري ؟

جلال : تعرف ، تعرف كل شيء الا نفسك .

لطيف : هيكل بلا شكل ، وظل بلا لون .

شامل : انا لا افهمكم .. هل انتم ضدي ام معي ؟ لقد طلبتم مني موضوعا ، وقد عرضته عليكم .. وها

انتم تعترضون ، وكأنكم في برلمان ياباني .

اميرة : لا تقلبوا المسرحية الى مهزلة . يجب ان نفهم من نمثلهم . انا ايضا اعترض على دوري كأم . امهاتنا اللواتي ربيننا بروح التضحية والتفاني لا يمكن أن يكن مثل تلك التي تحدث عنها شامل .

لطيف : هيكل بلا شكل ، وظل بلا لون .
قوة مشلولة ، وايماء لا حركة ، على حد تعبير اليوت .

شامل : وهل انكرت انا عليها روح التضحية ؟ ولكن لمن ؟
هذا هو السؤال .

اميرة : التضحية لاولادها ، لعائلتها . والعائلة ، كما يقولون ، لبنة المجتمع . انا اعرف عوائل اصببت بنكبات ، فوقفت الام كالطود الاشم ، وكانت المونة التي تشد بناء العائلة . فكيف تريدها مائعة ، تتصرف هذا التصرف المبتل . ثم ماذا سيكون موقفها من هروب كفتها ؟

لطيف : موقف الحياة والكنة موقف كلاسيكي .

جبار : تقول لها : الى حيث القت .

اميرة : وتسهم جو العائلة ؟ انا لا ارضى لها بذلك .

شامل : انت ، انتم .. لقد خرجتم جميعا من وراء ظهري مثالين منزهين ، وتركتموني وحدي اتخبط في حياة التجريح والادانة . وخرجتم انتم اعفاء تنشدون المثل والاخلاق السامية . فيا لكم من ممثلين من عهد سوفوكل ، وشخصياته من انصاف الالهة . اما البشر وسقوطهم فلا تتعاملون معها .

حسن : اضاعوني ، واي فتى اضاعوا
ليوم كرهية وطعان خلص
علوان : لا ، لن نضيع فنانا ، فتى المسرح العراقي
الطعان .
خالد : فقط ان يكف عن تحاملاته .
علوان : سنتحملة على تخاملاته .
شامل : (بعد برهة من الصمت) : بشكل عام ماذا تريد
الانسة اميرة الهندي ؟
جبار : مع حفظ الالقاب .
اميرة : اريد ان امثل دور العراقية المتفانية التي تجابه
المشاكل بشجاعة .
شامل : تفضلي ، جابهها بشجاعة . الا تبكين ؟
اميرة : ربما ، ولكن البكاء ليس عيبا . بل هو هزة حنان .
حسن : اذا اخذتها هزة الروع امسكت
بمنكب مقدم على الهول اروعا
لطيف : لو كان البكاء انسانا لقتلته . انه يشوه وجه
الانسان .
خالد : وانا ايضا اعلنت عدم رضاي عن شخصية الاب الذي
امثله . الاب رخو لا يمكن ان يضع لبنة على لبنة
... بينما يقول مؤلف المسرحية انه انتقل من حي
بغدادى قديم الى حي جديد .. يعني اشاد وعمر .
علوان : بطريق الحلال ؟ هذا هو السؤال .
خالد : بطريق الحلال بالتأكيد . لان الحلال يتقطر قطرة
قطرة ، يسير بتؤدة .
لطيف : بينما الحرام يقفز قفزات الجبابة .

شامل : انا لا انكر على الاب عصاميته واستقامته ، ولكن
اريد ان اعطيه ضعفا ازاء اولاده او بعضهم .

خالد : ماذا جعلهم يفعلون ؟ انت تحرمه حتى من فضيلة
ان يترك ابنائه يختارون لهم زوجاتهم .

جلال : هو ، كيف سيختار زوجته ؟

علوان : من بين زهرات المجتمع .

جبار : يا اخوان ، لا تخوضوا في امور شخصية .. ها
هي سناء قادمة . (تدخل سناء فيخاطبها جبار) :
يا سناء ، ما رايك في العائلة التي خلقها شامل ؟

سناء : وهل خلق شامل عائلة ؟ خلق حقدا لغرض في
نفسه .

خالد : خلقها مشوهة عن عمد .

علوان : (يتأفف) الحقيقة ان مسرحية شامل متعبة .

حسن : كلنا متفقون على ادخال تعديلات عليها .

جلال : لننفخ فيها روح التفاؤل في المستقبل .

شامل : لتكون ميلودراما على الطريقة المصرية .

خالد : اغلب الظن انك لا تملك فكرة واضحة عن مسار
المسرحية ، وكيف ستنتهي .

اميرة : هذا ما يبدو واضحا .

سناء : اسمحوا لي أن ألقى سؤالا .

جبار : تفضلني .

سناء : لقد جعل شامل الزوجة تفر . وهذا المنطلق
والبداية . ولكن مصيرها ، مصير هذه الفتاة التي
اراد لها شامل التعاسة ؟ اغلب الظن انه لا يريد
ان يفكر في مصيرها .

شامل : عادت الى احشاء المجتمع التي خرجت منه على غفلة .

سفاء : انظروا . اعطاها للضياع مثلما اعطى الاخت الكبرى .

اميرة : لن تضيع امرأة بمثل هذه السهولة .
خالد : كلنا يهنا مصرها .

جبار : لنبحث عن مصرها . مصرها بيدنا .
علوان : لن ندعها تضيع .

جلال : وهل احشاء المجتمع متاهة ؟ سنجدها حتما ،
ونعطيها حقها .

شامل : حقها في ماذا ؟

اميرة : حقها في ان تتحمل قسمتها في بيت وادع .
شامل : انت تدافعين عن العقم ؟

اميرة : لا ، ولكن هل لنا الحق في قتل كل من ولد ومعه
علة قلبية او قصور في قلب ؟

خالد : هذا محال ، يا شامل . للعاهر ايضا حق في الحياة .
العقم ليس وباء لنقضي عليه بالمبيدات . العقم
حالة فردية . فلا تصدر حكك ضدها .

هيفاء : (ترفع يدها) هل لي ان اتدخل في موضوع
لا يعنيني ؟

حسن : تفضلي ، فقد قال مورك العجلي : لقد سألت الله
حاجة منذ اربعين سنة ، ما قضاها لي ، ولا يئست
منها : فقيل لمورك : ما هي ؟ قال : ترك ما لا
يعنيني . وانت لم تسالي الا مرة واحدة .
شامل : حسن ، لا تخجلها بأمثالك الفجة .

جلال : كلنا من ذوي الحاجات المستعصية .

جبار : تفضلي ، هيفاء .

هيفاء : من اجل خلق روح للمرحية يجب ان يظل شبح
الزوجة الهاربة يسيطر على المرحية كلها .

خالد : لطيف جدا . يطارد ابطالها مثل شبح كونترفيلد .

سناء : هذا اقل ما يمكن من رد الاعتبار لضياعها .

هيفاء : هل توافقيني على ذلك ؟

سناء : كل الموافقة ... لنجعلها شوكة في قلوبهم .

تخزهم ، تخزهم بلا رحمة .

علوان : يا لانتقام المرأة الشنيع !

جبار : المرأة تضر وتعبى نفسها بالبارود ، ثم تنفجر
وتفجر .

جلال : سناء تكلمت بحرقة . كأنها هي الضائعة .

سناء : نعم . انا ايضا ضائعة في تمثيلي لدور الاخت .

اليس حبسي في المطبخ ، في الصفوف الخلفية ، لا

أرى احدا ، ولا يراني أحد ، اليس ذلك حكما في

الضياع ؟

جبار : يبدو ان مسرحية ضخمة في طريقها الى التكوين ،

ما دام قد خلق فيها شبح . من اين لك هذه الفكرة ،

يا هيفاء .

هيفاء : من اعتقادي بأن في كل واحد منا تقريبا شبحا

يطارده . نحن مطاردون من شبح الماضي ، من

خوف الفشل ، من التورط في الخطأ او الخطيئة ،

من الموت قبل الاوان .. لا يوجد في الدنيا احد غير

مطارد .

كمال : هذا صحيح ! لقد وقعت على حل لمشكلة الابن
الاكبر . لنجعل له شبحا يطارده ، وهو الذي
يعصف بتوازنه العاطفي .

حسن : معادلة مقبولة .

سناء : وهذا الاحساس بالمطاردة من اين ينبع ؟ ما
مبعثه ؟

هيفاء : هاجس داخلي غامض ، تراكم لاشياء ..

سناء : ما هذا الهاجس الداخلي الغامض ، اذا كانت
المطاردة واضحة للعيان في اغلب الاحيان ؟

هيفاء : نعم ، يبلغ ثقل هذا الهاجس الداخلي على النفس
حدا يجعل الانسان يتصوره واقعا حقيقيا .

سناء : لا ، المطاردة واضحة ، ولا علاقة لها بالاشباح .

هيفاء : تعنين في المسرحية ؟

سناء : اعني في الحياة .

خالد : دعونا من الحياة الان ... علينا بالمسرحية .

سناء : الحياة مسرح ، والمسرح حياة .

جبار : لكن شامل يعطينا افكارا مجردة .

سناء : لا يغرنكم .. انه يعطينا الواقع الحقيقي بلا

اشباح ، الواقع الدنس الحقير .. انا اصرخ في

وجهه ... ابصق !

خالد : كفى ، يا سناء ، ستخرج المسرحية من ايدينا ..

سنعرف كيف نتصرف فيما يطرح علينا من خطط

وافكار .

سناء : ستجملون الواقع ؟

جبار : سنصرخ في وجهه مثلك ، اذا كان دنيئا .

سناء : وتتركون الزوجة ضائعة ؟
جبار : سنبحت عنها ، وسنجدها .
علوان : سنحتضنها ، ونعطيها الحق .. المسكينة ،
المغلوبة على امرها .

سناء : هذه الوصفة لها ... المسكينة ، المغلوبة على
امرها . ان مجرد هذا القول حكم عليها بالهزيمة
في معركة الحياة . ولكنها ستثبت وجودها ،
كرامتها ، حقها في الحياة والمستقبل ، شخصيتها
سواء اكانت في الصف الخلفي ، في المطبخ ، او في
الغيب ، في دروب الخفاء . المرأة لن تخفى عن وجه
الارض المباح لكل انسان حي ... لن تضيع .

حسن : احسنت دفاعا ، يا سناء . ما ضاع صاحب حق .
هيفاء : (كالمعتذرة والمرتبكة) : انا اسفة ، اعذروني .
لم اكن ادري انني اؤجج اشجانا .
علوان : كلنا الان في صلب المسرحية . وبهذا نجح شامل .
اما في البقية فقد فشل .

شامل : (كالمراجع) : انا اعطيتمكم موضوعا فقط .
جبار : واعطينا اناسا مدانين مذنبين . وهذا ما اخطأت
فيه .

سناء : اما نحن فنريد اناسا اقوياء ، يصمدون للشدة ،
ويتجاوزونها مطاردين بأشباح او باناس حقيقيين .
هيفاء : يبدو ان كلمتي قد أغثتك .
سناء : لا ، ابدأ ، كنت اعني المطاردة . لم تأت بشيء
جديد .

هيفاء : اية مطاردة ؟

سناء : مطاردتك لشامل .

هيفاء : انا اطارده ؟ معقول ؟

سناء : او هو الذي يطاردك . لا فرق عندي .

هيفاء : عيب عليك ، يا سناء ! اي كلام هذا ؟!
سناء : أم ماذا تعتبرينها ؟ الاشتراك في تحضير امتحان
واحد ؟
شامل : سناء ، ارجوك .
سناء : صرت تتدخل في كل شيء لتخلق المواقف الدرامية
او الهزلية !
خالد : لا حاجة لذلك .
علوان : ستفسد المسرحية الاصلية علينا .
جبار : صرنا نحن مسرحية .
جلال : لنسدل الستارة .. زادت المشاكل .
حسن : تأتي المكاره حين تأتي جملة
وترى السرور يجيء في الفلقات .
كمال : كفى ، الى جلسة أخرى أصفى وأكثر مصارحة !

خلال كل هذه السنين الطويلة التي انقضت من عمرها لم تشعر ، ولا تريد ان تشعر بأنه قد كبر وتزوج وانجب ، وذرف على الخمسين . ما أرادت ، ولم ترد ، ولا تريد ، ولن تريد ان تعترف بذلك . كانت ، في اعماق نفسها ، تحس بأنه ما يزال لها ، مرتبطا بكامل عمرها ، بكل ذكرياتها الهنيئة قليلا ، والخائبة في أكثر الاحيان . الناس يكبرون ، ويتزوجون ، وينجبون ، وحتى يشيخون ، ولكن تبقى حسرة العمر حبيسة في صدورهم الى يوم الممات . وهي حسرة العمر بالنسبة لها ، الحسرة التي لم تخمد ولن تخمد في صدرها الى الابد ، الحسرة التي كلما اطلقتها في سرها ، احست بأنها تزداد تأججا ، وبأنه سيأتي اليوم الذي تطلقها للمرة الاخيرة مع روحها الى الابد . كانت تبدو منذورة له ، او لعله كان منذورا لها . ومن اجل ذلك كان الناس ، في حبههم القديم المحافظ ، يستغفرون الله ، ويتفاضون عن أشياء كثيرة بينهما . وحتى ابوه الذي حج آخر عمره ، ربما تكفيرا عن خطيئته نحوها ، كان اذا أراد تقريره يقول له « اليوم يدك لا تعرف كيف تمسك بالمنشار ؟ تفكر بنعيمه ؟ رح لها ! هي هناك . خاتلة لك وراء عربة عموري ! » . وكانت تراقبه حقا ، وراء أي حاجز واه ، مستسلمة للذة المباغطة ، والتقاء العين بالعين . كانت مشدودة اليه بكل كيائها ، وكان هو يبدو منساقا لها . كانت تريد ان تسترضيه بكل وسيلة ، وكان لا يبدو انه يستنكر اية وسيلة تقترحها وكانت لها

ابتسامة ملعونة ، كما قال لها ذات مرة . وفي الخرابة ،
في الطابق الاول المهجور من بيت ذي طابقين كانت تتكشف
له عن مفاتن جسدها في ذلك الفضح المبكر . وكان يتبعها
كالكلب قافزا عبر علب المعلبات الصدئة والزجاجات المهشمة ،
وقطع الاوراق المكورة الصفراء ، عبر نفايات الدنيا كلها . وهناك ،
كان الحائط القصي يشهد خلوتها . كانت تريد ان تشده
اليها ، وتلتصق به ، وتظل مترقبة ومتلهفة لشيء
لم تكن تعرفه على وجه التحديد ، ولكنه
لذيذ ، ويستحق المجازفة ، ومهم يجعل للنساء
وزنا في اعين الرجال ، ولزعلن اثر الفاجعة . وحين كان
ينفر كانت لا تياس ، وتظل على ثقها بأنه لها ، وهي له
على مدى الحياة . حين كانت ترقب قامته تمتد ، وعينه
تكتحلان بسواد لا يقحم ، وتمتلئ شفقا بعناد كافر ...
« النا » عنده « نا » ! وكانت تحبه على ذلك ، وتطبق
صمته المستطيل ، لانه كان ينتهي ببسمة الرضى . كان لا
يكفر بالنعمة . وظلت هي على املها الصبور ، تغزل شرائق
نظراتها المبطنة النافذة ، وتحسب انها تغالزه بها . كان
يكتمل امام عينيها رجولة وصبا وامتشاق قوام . وكم ودت .
عند غياب ابيه ، ان تمسح العرق المتصبب من فوق حاجبه
الكثيف متقطرا على خده رغم انها كانت تخشى النظرة
المفترسة في عينيه ، والتقطيع الرادعة على وجهه ،
تخشاها لحظة ظهورها ، ثم تظهر لمعة الرضى وانفراج
الانس والاستلطاف فتبتسم له ابتسامتها المبطنة ، وكأنها
تذكره بأشياء محرمة تعرفها عنه ، اشياء مشتركة بينهما ،
خلال سنين طويلة . ايحسب الان ذلك عبث اطفال ؟ ليس
هناك اطفال في سن العشرين ، بل شبان يشتهون ويشتهون ،
على ابواب زواج . وكان الناس يظنون ان خطبتهما واقعة
لا محالة ، وبعضهم كان يقول : خلوها يتزوجان ويخلصانا .

على الاقل سدا للافواه ، وصونا للعرض ، وقبولا بالامر الواقع . ومن كانت اكثر ملاحاة منها وشطارة وقدرة وحيوية ، من بنات الحي كله ! امرأة بيت ! كانت تعرف بذلك منذ صغرها . ستسعد الرجل الذي يختارها . وقد اختارها عبد الواحد ، وسيفلح ، وستنجب له البنين والبنات ، وتدير البيت . وكان عبد الواحد مستسلما لهذا اليقين ، وميالا له .. واذا ...

على غفلة لم يعد يتعامل مع ابتسامتها لا بالرضى ولا بالنظرة المفترسة والتقطيية الرادعة ، بل كان يفيض الطرف، عنها ، يتركها وراء قفاه ، كأنه يتحاشاها ، او كأنه لم يرها على الاطلاق . واخيرا عرفت من النساء ان الحاج حسين « الكافر بن الكافر » اختار لابنه عبد الواحد زوجة من عائلة بائع سجاجيد ، وانه سيزف اليها قريبا . وكان الخبر تتناقله افواه النسوة كالزغردة ، وكان ذلك نكاية وشماتة بها ، وبوالدها العجوز الذي كان قد اجر دكانه وباعه « سر قفليه » لاحد اصدقائه واعتكف في البيت ابتعادا عن كلام الناس وتقولاتهم . ولكن نعيمة — بعد نوية البكاء الطويلة في بيتها لدى سماعها الخبر لأول مرة — مسحت دموعها او بقايا دموعها بأطراف « جرعدها » ، واحسنت بصفاء ذهن عجيب ، احسنت وكأنها عادت طفلة تتعامل مع الاشياء لأول مرة ، احسنت ببراءتها المفقودة تعود اليها . دقت على خشب السرير دقات قوية ، وماعت مواء قطرة يريدون ان يطردوها من الركن الهادىء الذي استقرت فيه . وبعد ايام خرجت الى الناس بنفيس الابتسامة المبطنة ،

والنظرة الغازلة ، حتى أحس الناس بالذهول ، لا سيما بعد ان سمعوا انها هنأت الحاج حسين بزواج ابنه ، بل وقيل انها باركت عبد الواحد نفسه بزواجه . وسارت الحياة كما كانت تسير ، بكثير من الضجيج والحركة ، وقليل من العجين والبركة . ولكي تثبت للناس ان عبد الواحد لم ينل منها ما لا يسترد ، تزوجت اول من تقدم اليها « السكران بن السكران » المرحوم زوجها . لقد تقبلت زواج عبد الواحد كمزحة من مزاحاته الكثيرة ، والزواج ، على كل حال ، قسمة ونصيب ، وتبقى حسرة العمر حسرة العمر . وانجب عبد الواحد ، وانجبت هي ايضا ، ابنا ولو ولد اشرم ، وكأن ذلك تذكير لها بأن زواجها من غير عبد الواحد شذوذ . ولكن طاحونة الدنيا ظلت تطحن الطحين ، وتوزعه على الناس حسب ما « يقطع » عقلها . وانشغلت هي بهومها اليومية المستديمة ، بتربية ابنها ، بنوبات زوجها في السكر حتى يمرض ، وفي السكر حتى يبيت على الطوى ، ويتعاقب الليل والنهار دون ان تعرف طعما وراحة لاي واحد منهما . . حتى نسيت جرح قلبها ، وتغاضت ، ورضيت بقسمتها ، حتى لم يعد عبد الواحد غير ندبة في القلب . وحين رأت عينيه السوداوين تتوسلان اليها ، لأول مرة ، بعد تلك القطيعة ، وقد لمحت فيهما بريقا مغلفا بالصدأ ، لا يحتاج الا الى الجلي ، استيقظت كل حواسها ، وعاد اليها هوس حبها القديم ، عادت حسرة العمر تقرض قلبها ، فاستهانت بكل ما اقامته السنون من سدود ، لتسترد الامل الغامض المشوه . . على الاقل لتسترد كرامتها الجريحة .

وأعدت الخلوة له ، لتذكره بماض قبر وهو حي .

ونكت عبد الواحد مرة أخرى ، وصد صدود الكذابين
لا الاولياء . وجرحها اكثر من جرحه الاول لها . كانت في
البداية تريده كله لها ، والان تريد ان تشمه ، ان تنتسم رائحة
الماضي ، وحتى في هذه خانها ، ولكنه ايقظ لواعج المرض
القديم . كأن الجرثومة التي مرضت بها قديما تمثلت لها الان
شخصا كاملا يستعصي عليها . ومثل شخص مرض بهذه
الجرثومة عادت اليها الروائح والطعوم الماضية نفسها ،
واستيقظت الوسوس والنعاد مع المرض ، والصراع ،
والمشبهات الممنوعة والتوقعات ، وكل ليل لا بد ان ينجلي
عن نهار جديد لا يشترط فيه ان يحمل منفصات النهار
الماضي وتباريحه ، لانه يحمل الاصرار على المقاومة ..
وكانت نعيمة تقاوم بتردها المستمر على الزقاق الذي يقع
فيه دكان عبد الواحد ، وكأنها تثبت انها غير قابلة لان تقهر ،
وانها تستهين حتى بحسرة العمر ، حتى بالهزائم ، حتى
بالنصيب التعيس . كانت تتعمد المرور على دكانه ، وترفع
صوتها قبل ان تصل اليه ، لتقول : انا هنا ، ما يزال صوتي
يشق الهواء . وكانت تكلمه كلمات قليلة عابثة ، وكأنها لتثبت
له ان كل شيء لا يززعها ، ولا يفال منها . انها اقوى منه ،
فالخائن دائما ضعيف ، رغم مظاهر القوة والثبات في سلوكه .
وكانت ، اذا خلا المكان ، تلقي كلمات غامضة فيه نفمة
اطمئنان .. وتشبكه بشرنقة نظراتها . ما الذي جعلني في
هذه الحال ؟ لانني احمل هموم الناس اكثر مما يحملونها هم
انفسهم . كأننا نذرت قلبي للناس . هذه قسمتي !

اقبلت اليوم من الجانب الايمن من الزقاق ، وارتفع
صوتها عند الجراح .

— عيني ، مهدي ، ما شفت جعفر اليوم ؟

هز مهدي الجراح رأسه نفيا ، وقال من وراء خماره :
— وهل انا سارح فيه ؟ انت تعرفين زواغيره .
— لو كنت اعرف لما سألتك . استاذة يبحث عنه .
لم يطلع للشغل منذ يومين .
خلع الجراح خماره ، ونظر اليها بعينين مبتسمتين
وقال :

— في ملهى ليالي الصفا تعمل فرقة راقصة يونانية .
ربما رأته مصادفة فأمسكت به لتستفيد من مواهبه على
المسرح — ثم ضخم صوته وأشار بذراعه وقال بجذبة : —
اخبري الشرطة قبل ان يأخذوه الى اليونان !
— اها ! اخبر الشرطة ، كأنه ولد ضائع . لولا شرمته
لكان له شارب بسمك العقال . اين الياوان هذا ؟
— قريب من قلعة عفج . انا لست قويا بالجغرافية .
نصحتك ان تخبري الشرطة . فهم يعرفون الجغرافية احسن .
— ألعن أبو الجغرافية واللي سواها جغرافية . انا
اريد ابني . وسأجده . — ورفعت صوتها ليصل الى دكان
عبد الواحد — استطيع ان القى ابرة بشليف من التبسن ،
فكيف بابي شرمه ؟

وتركت الجراح قائلة بصوت اعلى :

— سأجده ، واجد غيره . اين يذهب عني ؟ لا احد
يفلت من يدي .

وتريثت عند دكان عبد الواحد ، وقالت بصوت لا
يضرر أي ضغينة :

— اللهم صل على محمد ! أبو ماجد ، هذا الطقم لبيت
عبد المحسن ! اذا الله ما كذبني .

— لهم ، يا ام جعفر ، لهم .
دائما يذكرها بابنها الاشرم ، دائما .
— انا خطبت لابنهم .. واحدة بنت حلال . خطبتي لا
تخطيء .

ورأت في عينيه ومضة اسف، لمعت لحظة ثم اختفت تحت
جفنيه الاسمرين، وكأنها خجل وخباها عنها. وتشاءمت نعيمة
وكانه ابعدا عنه مسيرة يومين .. انه لا يريد ان يشاركها
مشاعره ، ويخفي عنها ما في قلبه . تحملت ، على عادتها ،
ولم ترد ان تهزم ، فوقفت في مكانها مرفوعة القامة . وجاءها
الانقاذ من صبيح ، اذ قال لها مازحا :

— ام جعفر ، الخطبة طوق لطول العمر .
قالت صادقة مع ما في قلبها .
— كل شيء لطول العمر .
— اذن ، لماذا لا يحن قلبك علي ؟
— الصدق صبيح ، الصدق . هذا الذي يعوزك .
— لا ، والله . بس اليد قصيرة .
وكان عبد الواحد واقفا بينهما كالصنم . العينان نصف
مطبقتين ، وكأنهما تخفيان ذبولا :
— ابو ماجد ، هل انت مفتوث من شيء ؟
فتح عبد الواحد عينيه ، وكأنه فوجيء بوخزة :
— لا ، أبدا .

واحس بثقل في صدره يمنعه من الاسترسال معها ،
ربما هو شيء يمت الى الندم بصلة من جراء هفوة . وشملتة
بنظرة متفحصة ، وانتهزت فرصة ذهاب صبيح بقطعة خشب
ليركنها في الجانب الاخر من الشارع الضيق :

- عيناك تخبرانني بأنك لم تنم الليل .
- الليل احيانا طويل .
- ليل الذين يقرون ويحسبون .
- وهل في الدنيا احد بدون حسبه ؟
- والمحروس كيف ؟
- كما هو .
- قال بحيادية تامة ، وكأن الامر لم يعد يهمه .
- ما يزال يريد المحروسة
- ان شاء ما ارادها . اخر عمري راح يغلبنني .
- وفهمت اليأس الكامن وراء هذا السؤال . حسرة .
- حسرة ! شجعتته :
- عمرك طويل . والموت وحده يغلب الانسان ، لا
- تصدق ان انسانا يغلب انسانا . على الاقل مرة يغلب ومرة
- يخسر .
- ما عدت اهتم بغلب ولا بخسارة .
- لا تجر حسرة ، ابو ماجد . انا وعدتك ، ووعد
- الحر دين .

ورات ومضة التفكير او الاسف تعود الى عينيهِ بهروقتها
 الخاطف نفسه . ام لعلها ومضة حذر وتوجس ! ملامحه
 ما تزال قاسية متكبرة ، مثلما كانت حين غادرها وحيدة
 مخدولة في بيت الخلوة ، ولكنها ، وهي الخبيرة بما تنبئ
 الوجوه ، وجدت فيها آثار ارهاق وانقطاع رجاء . كأنما
 قضى وقتا طويلا في بحث متعب وغير مجد ، ووصل الى
 مرحلة تبرؤ من كل شيء . ربما كان صادقا حين قال :
 ما عاد يهمه غلب ولا خسارة . وانه الان يستثقل وجودها

على مقربة منه ، ويمج كلامها ، ويريد ان يغمض عينيه حتى لا يراها . ولاول مرة احست نعيمة بأنها امام رجل خدمت ناره ، وتساوى عنده كل شيء . حركت عبايتها على رأسها حركة عصبية ، ورمشت بعينيها متضايقة واهتز جسدها بشحنة قوية من المشاعر التي تهد الكيان الحي . فانصرفت مهدودة ضاغنة . ولربما ليس بين الحب والكراهية غير حد رقيق مثل حد الشفرة . وكم اجتازته نعيمة وجرحت نفسها به . ولكن يبدو ، من تلوي قسّمات وجهها ، انها تجتازه الان ، لآخر مرة ...

وانصرف عبد الواحد الى اشغاله بعد ذهابها ، ولم يفكر فيها ، ولا في شيء مما قالته .

لم تعد تعنيه كثيرا . عادت الى حجمها الطبيعي كما كانت . انه على وشك الاستغناء عن مساعدتها . لقد كذب عليها . ما يزال يبحث ، ويعنيه امر كفته كثير العناء . لكنه وجد دربا جديدا يدلّه على الهاربة ، اسلم واجلب للستر ، واقترب الى نيل المراد . كان عبد الواحد قد تعود ان يخرج كل اسبوع او عشرة ايام في سيارته ليتسوق من خارج بغداد ، في المسيب ، او الحلة ، ويشترى لحما ودهنا وبيضاً ودجاجات وخضروات . فان ذلك ارخص مما في بغداد ، واكثر طزاجة . وذات مرة التقى امرأة كانت تبّيع بيضاً ودجاجاً . ماحكها على السعر . قالت :

— اشترى الدجاجة بربع دينار مستقبله العربيات من خارج البلدة من مسافة لا يقطعها خيال ، فكيف ابيعها لك بثلاثمائة فلس ؟

ضحك عبد الواحد ، وقال :

— تعجبني صراحتك . لهجتك بغدادية .

— قضيت عمري في بغداد . اسمع . انا اعرفك .
الست عبد الحميد النجار ؟

— عبد الواحد .

— ابنك تزوج بنتا من عندنا .

— من عندكم ؟

— يعني ، بنت المرحوم ... أوي ... نسيت .
عمتها زكية . الظهر واحد .

وضع عبد الواحد الدجاجتين اللتين كان يزنهما بيديه .
وسأل :

— الله يرحم والديك ، اين زكية الان ؟ الم تريها ؟

— لا ، لم أرها .. بل رأيت حسيبة .. ولكن من
زمان ..

— حسيبة ؟ اين رأيتها ؟

ومن الانشداد والدهشة اللذين تفجر بهما سؤال عبد
الواحد خشيت المرأة عاقبة فلتة اللسان .. قالت :

— اظن انني — رأيتها هنا ، في المسبب .. لا اعرف
بالضبط .. ربما جاءت مع زوجها للتسواق .

وتسمر عبد الواحد ، وتقلص حلقومه ، او ربما نمت
فيه عظمة . لقد تصور هو الآخر انه ، اذا استرسل في
السؤال ، فانه سيسمع ما لا يليق . عاد يسأل عن آخر
سعر تقبله للدجاجتين . فقالت :

— يا ابو فلان ، لماذا يحاسب الذين يملكون على
الفلس والفلسين ؟ من يعطيه الله لا يبخل به على المحتاجين .

— لم يعطنا الله ، ونحن قاعدون في بيوتنا ! اعطانا ،
والعرق يتصبب من الجبين .

— ونحن لا نتعجب ؟

ورأى عبد الواحد ان مراس هذه المرأة صعب .
تساهل معها . ضحك في مصالحة . واعطاها ما ارضاها .
وتوقف لحظات ينظر اليها من فوق . رأس معصوب بعصابة
سوداء ، وشعرات بيض تبرز من زلفيها ، ووجه ينم عن
مجاهدة ورصانة ، وعينان سمحتان مشغولتان بالتنقل بين
الدجاجات النائمات ، والمارين والواقفين على الرؤوس ،
ولا شغل اخر لهما .

سألها بخفوت صوت :

— وكانت وحدها ؟

— من ؟

— حسيبة ؟ .

— قلت لك رايتها . صدفة ، ولم اتحدث اليها كثيرا .
اظن انها كانت تبحث عن صديقة لها قديمة تدعى سعدية
تشتغل في معمل الحرير قرب السدة .

والتمع في ذهنه هاجس مفاجيء منقذ ، هتف له بانها
تشتغل هناك . وأصيب بذهول خفيف ، وكأنها التقاها وجها
لوجه دون ان يهيء نفسه لذلك . ولم يثقل على المرأة
بالاسئلة ، بل قال لها مستبشرا بعلاقة تعينه في مسعاه
الخفي :

— شكرا ، أم فلان . صرنا معاميل .

تمتت بكلام خاطف ، لان احد المشتريين وقف فوق
راسها يسألها عن ثمن البيض . وانسل عبد الواحد
كالمختطف شيئا ، لاثذا بمفتاح السر . وفي السبارة سال
نفسه : هل يذهب الى سدة الهندية راسا ، فيعيدها مع

مشترياته من الدجاج والخضراوات والدهن الحر ؟ واحس
بقلبه يدمدم ، وبأنفاسه تتلاحق ، وكأنه يحمل ثقلا مرهقا .
انها هنا ، اذن . لا بد ان يعود الانسان الى اصله ، ويختفي
في الخيمة التي خرج منها . وكم شقى وتعب واشتاق لان
جددها ! ولكن طيف نغمته القديمة عاد يتذبذب امام خياله ،
ايام كان يقول : زرنا في حديقتنا شجرة عقيمة . لا نسل ،
ولا ذرية ! وضرب عبد الواحد على دفة سيارته ، وضغط
على المنبه ليمنع راكب حمار من ان يتوسط الجادة . فارس
مغوار ! انها تشتغل في المعمل ، اذن . عافت البيت لتشتغل
عاملة ، تغزل الحرير بدلا من ان تلبسه ، تأكل من عرق
الجبين ، بعد ان كانت فضيلة تطعمها من فاخر الزاد ، لا
تريد منا ، ولا شكورا . وزفر عبد الواحد ، وشعر براحة
غامضة تسري في طيات صدره . ربما ، لانه سيجدها ،
ويحاسبها على العقوق ، يجدها دون ان يضطر الى التضرع
الى بشر ، دون ان يدخل في مساومات . وبرز في خياله وجه
نغمة البيضوي ، وطرده من خياله بتلوحة من ذراعاه ،
وكانه يطرد ذبابة . واحس بأنه قد خرج نهائيا من شرنقتها .
وسيعود الى سابق حياته . لا قلق ، ولا محارم ، ولا نبش
لماض ممسوح من الذاكرة ، ومطمور تحت طبقات من الهموم
والكدح والمعاناة ، الانراح والاتراح . وزفر عبد الواحد
مرة اخرى مستجيبا لصفاء هب على قلبه مثل نسمة باردة
هبت من بطن ليل صيفي وعر ، وتالق ذهنه حتى سامح
حسية على رعونتها وعقوقها . ستعود الى البيت بدون
كثير عناء ، سيقول الناس : انها عادت من نفسها . الكبار
يخطئون احيانا فكيف بالصغار ، وعرفت قيمة دفء البيت ،

بعد ان ذاقتم وهشة الضياع . وسيعود البيت الى سابق طمأنينته وهدوئه ، ايام كان اهله يلتفون حول التلفزيون ، ويضحك فاضل ملء فمه ، ويناغي حسبية ، وهي قابضة جنب فضيلة على الزولية المفروشة على الارض . وبعد ذلك يصعد الزوجان الى فوق . وتهللت اسارير عبد الواحد ، وكأنه رأى ذلك رأي العيان ، ومسحته نفحة خفيفة واسيفة من الفرح والجون وربما الغيرة ايضا ، حين قال لنفسه . لكن هذا الصعود كل ليلة في ساعة مبكرة ... تثاؤب مفتعل ، ثم نهوض !

وجد عبد الواحد نفسه متجها الى بغداد ، مخلفا سدة الهندية وطويريج وراءه ، والمرأة التي باعت له الدجاجتين ، وزكية ، وحسبية العاملة في معمل الحرير . كان منطلقا الى بيته في بغداد ، ویتھيا في اليوم المقبل الى سفرته الحاسمة .

ضغط على منبه السيارة ، وانتظر لفتح له ابنته انباب . وتناعب تعباً ، وقد اهدت السفرة لعينيه سنة من نعاس . اغمض عينيه ، واراد ان ينكب بوجهه على دفة القيادة ، ويسترخي . تعب وخدر في المفاصل ، ورغبة طاغية للاسترخاء ، الا انه تنبه بقوة لاواعية فاجأته ، وكأنما خشى بالفعل ان يغفو في السيارة . فتح الباب بنفسه ، وساق السيارة الى الدهليز الذي ما زال مشبه ابيض مع سمرة خفيفة من تلويح الشمس . ثم رأى فضيلة تبرز من الباب في ثوب زاه لم يرها لابسة اياه من قبل . وسمع لفظا عند فتحها الباب . بادرها :

— عندك قبول ، ان شاء الله ؟

اشرق وجهها كله بابتسامة ، وقالت :

— نعم عيد ميلاد ! يعني وحدي أظل من غير عيد ميلاد ؟ كل الناس عندهم . وضحكت فرحة كاشفة عن اسنانها كلها ، ولسانها . وابتسم عبد الواحد ابتسامة من خلال جهد عاجز ، فقد كان يعرف ان ابنته لا توفر لنفسها هذه النعمة : اقامة قبول لعيد ميلادها ! ولكنه ، في الضوء الشاحب ، رأى لمعة الهناءة في عينيها الصافيتين ، وكأنها مقبلة على امر عظيم يحدد مستقبلها ، فقال في سره : لو كان عرسها لما كانت بمثل هذه السعادة . وحس الوضع ، وهو يسمع الاصوات النسائية تتسرب اليه عبر الباب المفتوح . اصوات غضة قوية ، منبعثة من صدور لا يثقلها هم ، وحجرات لا تتحشرج فيها عبدة من ندامة وضيق . اصوات كان يسمعا كثيرا في حيه القديم ، حيث تختلط الاصوات ، وتتمازج الانفاس ، في صيحة واحدة متعددة الترانيم ، كأنها خارجة من صدر يضم قلوبا كثيرة . وتيقن من حدسه . لا بد ان فضيلة تنشد زوجة جديدة لاختها فاضل . وخامره غم خفيف . وقال لنفسه : انها استقرت على رأي ، وليست مثلي اللوب لوب الغريق في بحر الحيرة والوسواس . ترى ، ماذا ستقول لو عرفت بما عرفت اليوم ؟ هل ستكف عن قبولها هذا ؟ واحس بنفسه موزعا بين قرارين : قرارها الثابت هذا ، وقراره اللاهث وراء المجهول . وتضخم غمه ، وكأنه خسر في لعبة مخجلة . وسأل نفسه : ايها اسهل عليه ؟ ان تأتي حسبية ام يقنع فاضل بزوجة اخرى ، بعد ان تعتبر الاولى مفقودة ؟ وضبط نفسه يميل الى القرار الاول ، ولو كانت له منغصاته ... ثمه الذي لا يعرف له حدا ، ذلك لان مجيء حسبية هو رد الامور

الى سوابقها ، التدثر بالدثار المعروف : الستر ! كان يؤمن بالمثل القائل : لا تكشف عورتك للناس ! لا تدع الآخرين يتفرجون على كركتك ! واذا كان فاضل عقيما — اوه ، كم ينغصه هذا الشرط المخرج ! — فلا حاجة لاثباته بدليل اخر ، بتجربة اخرى . لا تفضح واقع ابنك ، ايها المعجوز ! يجب ان تستسلم للقدر ، ولا تكشف الماساة بكل ابعادها ، ولا تتلامس مع جيل الفضائح ، جيل الفتنة . ذلك جيلهم . اما جيلك فمكتوم ، يعيش داخل نفسه ، يلعنها اذا اتت سوءا ، ولكن لا يفضحها امام الناس !

انسل عبد الواحد عبر باب الحديقة ، بعد ان اغلقته خلفه . واخر ما رآه كان وهج الثوب الحريري الذي تتألق فيه فضيلة ، وهي تقف كالشمعة قرب الباب ، والمواد الغذائية قريبا لا تعيرها اهتماما ، مستسلمة لشيء غريب وملهم ، مشرقة النفس بالرضى .

كانت فضيلة في اليوم الماضي قد ذهبت الى حيها القديم ، ودخلت بيوتا ، وجمعت كل من تعرفهن من المؤهلات للزواج ، قائلة في ابتسامة تملأ وجهها كله :

— المناسبة ؟ عيد ميلادي ! يعني حرام احتفل بعيد ميلادي ؟

ومع الاصيل توافدن عليها . كان الشاي قد هوى ، ومع الكعك والكيك والتفاح والحب بنوعيه الابيض الشجري والاحمر البطيخي . كانت كل واحدة زهرة زاهية مقبلة على مغامرة مع القدر ، لا تعرف ما يخبىء لها ، ولا تريد ان تعرف . فقط ان ترسل نفسها معه في لعبة مازحة ، لا تملك عليه رفضا ولا اعتراضا . واسكرتهن الضيافة الممتازة ، والهواء الساري من ارض خضراء خالية ، واصوات سيارات

منطلقة مراحة الضجة في الشارع الكبير ، فأردن ان يأتين
بأمر يناسب المقام ، ضحكة مجلجلة ، اغنية ، تورد خدين
بعد جملة متوهجة ، امتداح اهل البيت . وبعد التلهفات
الاولى ، وافضاء ما في الصدور من شجون الحديث ، عدن
الى اخبار الزيجات والمواليد والوفيات :

- سنية بنت حسون تزوجت شرطيا .
- اها ! من اين جاءها هذا الشرطي ؟
- شرطي ، ولكن متعلم ، انهى الصف الخامس . لم
تعد شرطتنا من العمارة فقط .
- أتدريين ؟ سيهدم هادي بيته ، ويبني فندقا .
- ومن سينزل في هذا الفندق وسط الخرابه ؟ وكيف
سيصل الناس اليه ؟
- امانة العاصمة تكلفت بفتح خط لغاية الدربونة .
- بس مو بالسيارات .
- ما ادري ... يمكن على مطايا .
- فخرية ترقّت ! صارت تتسوق من بيروت .
- وكيلة معتمدة لسوق صرصر او ما اعرف اسمه ،
مثل سوق الشورجة بغير تشابيه .
- ابنها في الكلية ... يبيع مرطبات .
- وابنتها مخطوبة لعرضالحجي قرب القصر الابيض .
- لا ، ابدأ .. الناس تحب تحكي . بعدها مريمسة
مثلنا .
- وهل نحن مرميات ؟ والله لاطلع سفورا ، واسبي
الناس سبيا .
- سميحة دخلت مدرسة الامية ...

— صار لها ثلاث سنوات بصف الاول .

— راح تنمحي محوا .

— كل يوم اسمع ابنة وفيه تعلمها باب ، بابان ..
كان الابواب قحط .

امتلاأت البطون بالشاي وبطوفان الكمك وكرز الحب،
فخلدن الى ارتخاء ممل ، متوقعات الشيء الغامض الذي
حدسن ، بغريزتهن ، انه سيعقب كل هذه التوقعات على
آلات موسيقية منفردة . ولكن لا شيء . واحست فضيلة
بالاضطراب ايضا ، لم تنضب مثلهن ، بل توهجت وقلقت ،
واكثرت من الالتفات ، وكل حواسها على الباب . وكانت
قد تركته مفتوحا ليدخل فاضل ، ويرى الشموع تتوقد له ،
في غرفة التلفزيون ، فيختار منهم من يشاء . الم تخلص حسية
لبه في مثل هذا اللقاء العابر ؟ دخلت عليه بصينية تحمل
اقداح الشاي ؟

وكان فاضل في مكان اخر لا يدري ما يدبر له . كان قد
اتخذ مجلسه مع صديقه عباس في عنق السينما الصيفية
المهجورة ، وبينهما صندوق مقلوب ، وعدة انعاش الذكريات
وتفريخ الاحلام . وكان عباس قد نفخ من خدين ممثلين ،
وزفر زفرة طويلة فيها رائحة مستكى . ونظر الى عنق
السينما المظلم نظرة طويلة ، وكأنه يراقب الملائكة تلعب
« السنبيلة » فيه ، او كأنه يتوقع ان ينحدر منه والد هذا
الصبي الكبير . مثلما انحدر ذات مساء ، ولامه على عشرة
السوء ، وطعمه بمدية غير مرئية . وكان صدر عباس قد
امتلا او ضاق من تلك الاحاديث العاطفية المتكررة المتبذلة .
مثل نوح ثكلى خرساء .

نظر فاضل الى تلك الكرة السوداء التي هي رأس صاحبه وقال :

— ها ؟ كلامي لم يعد يعجبك .

استدارت الكرة السوداء ، وظهرت على جانبها الاخر ملامح وجه انساني مكفهر . وقال :

— اسائل نفسي احيانا : الى متى ستستمر هذه الحال ؟

— الى اخر العمر .. الى ان التقى بحسبية .

— ألا التفت مرة فيما حولك ؟

— ماذا حولي ؟ .. فراغ !

— لا ، بل تعاسة . ألم تفكر مرة في الجحر الذي نعمل فيه ؟ بين القاذورات والنفائات نقبع كالجرذان ، وصاحب العمل يطل علينا في نظارته اللامعة كالديك المستعد للمراك .

— تفكيري لا يجدي شيئا .

— وماذا يجدي تفكيرك في زوجتك ؟ ليت لك ربع ذلك الاصرار في البحث عن مخرج . ليتك التفت الى الواقع العام ، وتحسست المعاناة ولو قدر ربع معاناتك من هروب زوجتك . فالنقمة نصف الشجاعة .

— لو كنت اعرف ممن انتقم

— المهم ان تحس بالنقمة ، وستعرف ممن تنتقم . شعورك بالامتعاض والظلم والقسوة يغذي فيك التطلع الى حال احسن .

— ولكنني ناقم .

— انت لا تنتقم ، بل تنوح . وهناك فرق كبير بين النقمة

والنواح . انت توجه الطمعة لنفسك ، وتفرق حياتك بالدموع .

واحس فاضل بتعاسة صلبة غامضة ، تعاسة من يمسكه شخص غريب من مخانقه ، ويذله اذلالا لا يناسب الهفوة التي ارتكبها ، قال في دفاع يائس :

— لا ادري ، لا ادري ماذا افعل .

— ستدري اذا عدت الى صوابك ، وفكرت فيما انت فيه .

— وهل تحسبني لا افكر ؟ كلما اضع راسي على المخدة تراودني افكار سوداء ، فأريد ان اصرخ ، ان ابكي .
فأشفق عباس على هذا الصبي الكبير الذي يستخدم كلمات عاجزة . فأراد ان يرتفع بالامه ، قال :

— أتعرف ؟ احيانا اتصور ان زوجتك الهاربة هي ضميرك المعذب .

— بالضبط ، ضميري المعذب .

— والنواح العاجز يزيد من عذابك . يجب ان ترتفع عن ذلك .

لم يفهم فاضل جملة الاخيرة . قال بدون رابطة :

— أتعرف ؟ انني بصراحة لا تهمني الان عودتها ، بقدر ما يهمني مصيرها . اين هي الان ؟ انها من طبقة كادحة مثلي . . فلو كنت اعرف ماذا حل الدهر بها ، ماذا جرى لها . بصراحة ، ربما لم تكن تحبني ، لا ادري . فلو كنت اعرف اين هي الان ؟ جائعة ، ام شبعى ، مستقرة ام متشردة ، حية ام ميتة ، لارتاح ضميري .

— التماسك ، التماسك ، وستعرف . تخل عن التفرج .

— سأتخلّى عنه منذ الليلة — وأبعد يده عن انكأس التي كان يهم ان يمسك بها — سأسمح الدموع من عيني ... ها .. اها !

وبدا ارعن في هذه الحركة أيضا . ولكن عباس تبسم من هذه الحركة التمثيلية . قال سريع الكلام :

— لنترك اثاره الشجون ، ولنذهب الى مكان ما .

— الى اين ؟

— الى جنة او جهنم .. اقصد الى ملهى .

— الى ملهى ؟

— نعم ، ولم لا ؟ نستطيع ان ننسل انسلالا ، وننتفرج كيف يكرز الناس الفلوس ، وكأنهم يكرزون حبا .

وبعد ان افرغا كأسيهما في جوفيهما ذهبا الى السعدون . كان باب الملهى محروسا بشرطي وانضباط عسكري . وكان الناس يدخلون اليه مرفوعي الايدي ، وكأنهم يستسلمون للشياطين الزاعقة في الداخل . في الدهليز شبه المظلم كان الليل يمد رواقه الى المسرح الملون بأضواء زاعقة فيبدو مثل صندوق مسمر بمسامير حمراء وخضراء وصفراء . والارض هشة تحت الاقدام المرتخبة . وعندما وصلا الى القاعة المكشوفة كانت تغطي المسرح امرأة تكشف عن نصف صدرها الشبيه بحجارة هائلة ، وثوبها ينشق بين الساقين . كانت تغني نائحة من حنجرة تنحمل اكثر من طاقتها . تعودت عيونهما على المصابيح الخافتة ، فرايا الموائد عامرة بالمعتلين والحاسرين ، بذوي العباءات واربطة العنق . قال عباس :

- هل رايت في حياتك مثل هذا المهرجان ؟
- الفلوس تحكم .
- الان ترى بعينيك كيف عاد الشيوخ الى عروشهم السابقة .
- همس فاضل :
- بلا ضمير معذب .
- انظر الى ذلك الشيخ المعقل كيف يحتضن فتاة احنية . مثل ابنته .
- الشيوخ مغرمون باللحم الابيض .
- اتعرف ان استاذي السابق ، ارسلني بعد الثورة بأربعة ايام الى اوتيل ريجنت لاصح بعض الدواليب . وفي الحادية عشرة صباحا كنت اراهن في حجراتهن المفتوحة الابواب عاريات ربي كما خلقتني ، بسبب حر تموز الجهني .
- سكت فاضل ، كان ينقل بصره بين الموائد .
- ذلك السمين سيخفق البنت الصغيرة تلك .
- هن متعودات على العصر .
- جعلها تجرع الكأس كله .
- تذكرت . كانت زجاجات البيرة تسد عتبات حجراتهن في ريجنت مثل القنابل .
- اوه ، سيخفقها .
- لا تقلق . انهن متعودات على هذه الملاحظات الخسنة وراها فلوس .
- يده تلفت على خصرها كالحية ، والاخرى اين ؟
- لا يهيك .
- كيف لا يهمني ؟

— كل انسان على قدر فلوسه .

احتدم الرقص على المسرح . رقصة غريبة . ما اكثر البنات ! يتناوبن على المسرح بلا انقطاع . لكل راقصة جمهورها . راقصات سمراوات ، راقصات بيضاوات ، راقصات سوداوات . صغيرات ، ومتوسطات العمر ، وشائحات تقريبا . من مختلف الحجوم والالوان . عانتق ، حسب ما تشتهي . فقط ان تكون لديك فلوس . كل انسان على قدر فلوسه . العن ابو الفلوس . واجال فاضل بصره في النساء المعروضات ، وبدأ عملية صعبة في ذهنه ، او هي التي بدأت تتمثل في رأسه . نضا عنهن ملابسهن الخليعة ، والبسهن ملابس محتشمة . وبدأ الشبه صارخا مع تلك التي تملأ خياله . ماذا كانت هنا حقا ، بين هذا الحشد الصارخ الهائج المحتدم الاعماق بالشهوة ، والمتملىء الجيوب بالدنانير ؟ في هذا الماخور الملطخ بالاضواء القبيحة الغابية ؟ وبدأ فاضل يحس بوجودها ، وكأنها تقترب منه ، طالعة من سدف غير مرئية ، متخطية الموائد اليه ، مادة ذراعيها نحوه ، مستغيثة ، مستنجدة .. سيمسكها ذلك الشيخ من يدها ، ويجذبها اليه ، ويجلسها على ركبتيه ، ويفعل بها ما يشاء .. اواه ! وتلمل فاضل ، وأمسك رأسه بيديه ، وكأنها يخاف عليه من الانفجار . كانت الاصوات تتضخم في اذنيه ، وتتحول الى ما يشبه الصراخ ، الاستغاثة ، طلب الرحمة . وتصور انه يجب ان يأتي بحركة ، يتراجع او يهجم ، ان يمسك بشيء يوشك ان يفلت منه . وجفل من ضحكة عباس المفاجئة ، وسرت قشعريرة في ظهره . التفت

فراى عباس ملطخ الوجه بمساحيق الاضواء السيالة كبصاق
ملوث .. تقزز ، اذار وجهه ، وقال في زهى :

— انا ذاهب .

— الى اين ؟

— سأختنق ، لا يوجد هواء هنا . يوجد بخار .

ولم يصطبر حتى يخلص صديقه نفسه من الزحام .
عجنت قدماء ظلام الدهليز ، وكأنها تغوص في فراغ هش .
واستقبل الشارع كما يستقبل غريق نشقة الهواء الاولى .
كانت الرؤى تطارده مثل قطيع من الذئاب الوحشية ، واذاها
ممثلتين بزعيق يتعقبه كنباح كلاب .

ظل يضرب بقدميه في شوارع مظلمة متربة تحف بها
بيوت منغلقة على نفسها . وكانت سورة الخمرة قد خفت ،
ولم تبق غير المرارة العتيقة ، والانسحاق المتخلف من منطقة
نائية من نفسه ، الانسحاق من انه اتى امرا منكرا ، اشترك
في لعبة خبيثة لا وجدانية ، وكان يشعر بثقل في صدره ،
وارتخاء في ركبتيه . ود لو كان الان في غرفته الصغيرة ، في
الطابق الثاني ، مع الاطيان وذكريات حسية ، والامل في
انبثاق فجر جديد ، وكان يتصور ان اهله نائمون الان . وكان
اكثر ما يخشاه ان يجد اباه متيقظا ، ينتظره . وجوبه بالباب
مفتوحا ، والاضواء متألقة في غرفة التلفزيون ، وكأن حسية
قد عادت ، او لم تهرب البتة ، بل كان كل ذلك اصفاء
احلام . ولكنه فوجئ بضحكات نسائية ، واصوات يقطع
بعضها بعضا . وعن له ، اول ما عن ، ان شيئا جديدا قد
طرا على البيت . واقتنع تقريبا بأن حسية قد عادت ، وانهم
سahرون ليزفوا له البشارة . طافت عيناه بوجوه نضرة
متألقة غريبة ، ابتسمت له ، وكأنها سخرية من خيبة ظنه .

وكان حمرة الخجل او الخيبة القوية لونت الوجوه بلون
قرمزي غامق . فكانت تشبه الطلاء الاحمر الذي
رآه بكثرة قبل حين ، في الملهى ، حيث تعرض
الاجساد لقاء دنائير . وادلهم وجهه ، حين لم يجد الوجه
الحبيب بينها ، وكاد يتعثر حين طلعت فضيلة من بين البنات
قائلة بصوت متهلل طافح ببشر عصبى .

— مالك مستعجلا ؟ لا احد غريب بيننا . كلهن من
بنات الطرف .

جابه ابتسامتها العريضة بتجهيمة قاتلة ، وناح مع
نفسه :

— انت مثل عباس ، تريدان ان تبعديها عني .

وعافها ، وهرع الى غرفته في الطابق الثاني ، الى
غرفتهما ، الى مخدع عرسهما ، مخلى المناغة والمساررة .
وعندما انطرح على سريره بكامل ملابسه ، وزفر زفرة
عميقة ، احس بأن الخمرة تزايله نهائيا ، وتخلف طعما
ماسخا في فمه ، ووجعا واخزا في ركبتيه . ارتخى واضعا
يديه المشبوكتين تحت يافوخه ، واحتوته تلك الرائحة
الغريبة التي كانت تنبعث من اعماق سكير نفسه ، رائحتها
الخاصة ، نكهتها . كان يشمها كلما خلا الى نفسه . كانت
تحضره ، تسوره ، تلتف حوله كالوشاح الناعم الشفاف .
استسلم لالفتها الطاغية ، وكأنما قضى حياته كلها في صحبة
تلك الرائحة . وحاول ان يتذكر حياته الماضية . لا شيء
يستحق الذكر . . فراغ . . بدأت حياته بليلة عرسه ،
ليلة جرح فيها يده . الدم انبتق منه ومنها . وعادت الى
ذاكرته تلك الليلة . هي متشبثة برمانة السرير ، وهو جالس
في الطرف الثاني . كان ثوبها الحريري يلمع في الضوء
الخافت ، مصباح النوم المريح للاعصاب . . خطان ابيضان
على فخذها ، كرتان لؤلؤيتان على نهديها ، التماع على

زندها . فأكهة مشتهاة . الليل له صولته ، واصوات اهله
تترامى « ما هذا التطويل ؟ شباب هذا الوقت ! » وصوت
ابيه الماجن « خمس دقائق ما طالعت عندي ! » . واخرج
السكين ، وغرزها فوق المعصم . اذا كان الدم ما يبتفون ،
فليكن الدم ! لا بأس ! كوني مطمئنة ! وقعت على بياض ؟
وسأوقع الى يوم القيامة . توقيع وراء توقيع . تفضلوا هذا
هو الدم الذي تريدون . واسبل ردن الدثداشة على رسغه
المضمد .

وبعد تلك الليلة صارت حياته شيئا اخر ، طعما
اخر . صار مرتبطا . من قبل لم يشعر بأنه مرتبط بشيء ،
ولا بأحد . حتى الالهة التي كانت فضيلة تطلقها حين يتعمشى
خارج البيت ، كان يحس بها اسفا على جهد ضائع اكثر مما
هي حنية . اما بعد زواجه ، صيرورته الثانية ، فقد أحس ،
لاول مرة بأنه مرتبط بكائن حي ، ينتظره ، ويقاسمه الرغبة
والسرير ، ويخضع للمسات اصابعه . وعندما ينتهي من يوم
عمل لاغب يحس بأنه هو الماوى والملاذ ، المغطس الذي
يزيل عنه غبار التعب ، وتتنشق انفاس الراحة . زوجته
هي رجولته ، المعلنة عن نفسها ، الحقيقة ، المستديمة .
رجولة ؟ وارتدت اليه هواجسه . هل من الرجولة ان لا
تنجب ؟ تضاجع كل ليلة ولا تنجب ؟ ولكن هل من المؤكد ان
الذنب يقع عليها ؟ ربما هو الذنب ، صاحب الجولات
الفارغة ، والبذر الذي لا ينبت . ربما كذب الاطباء عليه ،
وواسوه مواساة كاذبة لقاء دراهم تقاضوها . داروا
رجولته المنهارة ، واحساسه بالذنب . كان يذهب اليهم

كالمستغيث ، متخضعا متشبثا كأنه يملئ عليهم نتائج
فحوصهم . ربما رأوا رجلا مسكينا على وشك الانهيار
فأشفقوا عليه ، وخشوا من العقوبة . بينما كانت هي
تقول انها مستعدة لان تكشف عن نفسها . ولكن اليس عارا
ان تكشف امرأة عن نفسها امام شخص غريب ، ولو كانت
طيبة ؟ من هو العاقر ، هي ام هو ؟ ثم اليس هروبها هو
الاثبات بعينه ؟

كان يحس وكأنه يملك طير الجنة الذي رآه في احد
الافلام القديمة ، وهو صغير . كان مسؤولا عنه ، يغذيه ،
ويدفئه ، ويداعبه . كان يمتلكه . كان عندما يستيقظ ،
احيانا ، في بعض الليالي ، ليشرّب ماء ، كان ينظر الى تلك
النائمة الى جنبه ، ويقول : كلها لي ! وكان يسند رأسه على
يده المرفوعة على المرفق ، ويتأملها نائمة نوما هائئا ، ملكا
حلالا له ، فيحس بأنه يتحمل مسؤوليتها . وهذه المسؤولية
تشعره بالثبات ، وبديمومة الحياة . تتعاقب الايام بالثقل
والاصرار نفسها ، ويتجدد كل صباح ، ويولد الامل من
المستحيل . كان في قرارة نفسه يأمل .. ربما هذه غفوة
جسد ، ضعف عابر ، وسيأتي يوم تسر فيه النبا العظيم .
وكان ينتظر ، والايام تمر . نهار ملغوم بالتعب ، وليل من
الاسترخاء اللذيذ ، وصباح جديد . لولا تلك العنفات
الناخرة التي تجري خارج ارادته ، اثناء غيابه ، ولولا تلك
الاشارات الواخزة النافذة الى القلب كالابر السامة .. لولا
ذلك النعيق المشؤوم .. لولا تلك الصفعات التي القتها ،
اخيرا ، خارج البيت .

وحقق فاضل ، وفي تلك الليلة الساهرة تعاورته
شياطين النعمة .

واحس ابوه بتغير سلوكه التام : صومه عن الطعام ،
انقطاعه عن المجيء الى البيت ، نوبات سكره العابثة التي
لم تعد تحفل بمهابة اب ، ولا التياح ام ، ولا انتخاب اخت .
وعاد عبد الواحد الى جولاته خارج بغداد ، يطرق ابواب
المعامل ، يتسكع امام باعة الاطعمة . يتلفت في الوجوه .
وصار الباعة يعرفونه ، ولا يتحمسون لظهوره كثيرا ، لانه
لم يكن يقبل عليهم اقبال مشتر ، بل كالباحث عن شيء لا
يعرفون ما هو ، ولكنه بالتأكيد ليس البضائع التي يتداولونها .
وعثر على سعيدة اخيرا ، وسالها عن حسبية . ارتسم
الرعب والشك في عيني الفتاة ، ورددت : « لا ادري ، لا
ادري . جاءت مرة ، ثم اختفت . انها عندكم في بغداد » .
وبغداد تتكور امامه كالطلسم ، ومنافذه فيها قليلة ،
وكم احس بالفرج ، حين اسرت اليه ام جعفر ذات مرة :

— وجدتها ! الم اقل لك انني ساجدها ؟

ونظر الى عينيها . في نظراتهما المبطنة تواطؤ وزلق
لا يجعلك تمسك منها بفكرة محددة . دنا منها ملقيا الخشبة
التي كانت في يده .

— اين هي ؟

واحس بان حنكها يختلج ، وكان حسبية قريبة منه ،
وراءه ، ما ان يلتفت حتى يراها . وقد تلفت بالفعل .

— لا تستعجل ، ابلع ريقك !

واوجس بانها تضرر شيئا على عاداتها ، تطالبه بثمن .

ولم يكن في مثل حصانته الاولى . كان البحث قد اضناه ،
والطرق قد سدت في وجهه ، بينما ازداد شعوره بثقل
مسؤوليته ازاء عذاب ابنه . تتمم :

— لن انسى معروفك . ستسعدين بيتا كاملا .

تأوهت :

— السعادة ؟ ايه ! السعادة !

— السعادة في راحة البال ، واطمئنان الضمير .

— ليتها تمسك باليد ، مثلما ستمسك حسيبة بيدك .

ولاذ بالصمت . شعر بأنه محرج ومهزوم امامها .
مقاليده بيدها . وهي تتشبث بالقشة . لا تريد ان تهب راحة
البال الا لتوقر الضمير بعذاب أشد . وقف الماضي امامها
كمفازة يستحيل اجتيازها . وبدا وكأن لفح الريح جفف
حلقيمها ، فأطرق هو منكثا على الخشبة التي ألقاها من
يده ، شاعرا بأن نظراتها تسبره ، وتخزه كالدبابيس . وكان
في صمته اعتذار وعجز ودعوة خافتة الى المسامحة
والغفران . واخرجته من تهيمه سائلة :

— هل تعرف محلات بغداد الجديدة ؟

— سأسأل ، اذا لا اعرف .

وخفضت صوتها على طريققتها التأميرية الهامسة ،
واطالت وصف العنوان بصوت كالفحيح . وتركته على عجل ،
مخلفة وراءها كلمة « موفق » لا هي لليسر ولا هي للعسر ،
خافتة الصدى ، باهتة المعنى ، ثقيلة الوقع ، مثل زفرة من
فم غير نظيف . ولما خلا الى نفسه قال في سره : « لا بد ان
حسيبة تعمل خادمة في ذلك البيت ، والا فما الذي القى
بها في تلك الاحياء الجديدة الغامضة ، المترفة بالتأكيد ؟ .

وعاد ينحي باللائمة على نفسه ، قائلاً لها : انا اتحمل جزءاً من الذنب ، ولكن كنت أريد الخير . اوه ، لا ينفع الندم الآن . يجب ان اذهب اليها .

واغلق دكانه عند العصر ، قبل الوقت المحدد للاغلاق ، متعللاً بأنه يريد الذهاب الى زبون في بيته . وكان قد تعود أن يخرق شوارع الاحياء الجديدة في سيارته « البيك آب » مفتشاً عن بيوت جديدة بلا عناوين واضحة ، ليصنع لهذه ابواباً ، ولتلك شبابيك ، وليأخذ مقاييس الاثاث الذي يصنعه لاهل البيت الجديد . كان آتئذ يبحث ، ويسأل بطمأنينة وثقة ، اصحاب الدكاكين والسابلة ، وكل من رآه واقفا امام بيته . كان يذهب الى مهمة واضحة . وكان غالباً ما يجد الزبون واقفاً قرب بابه في انتظاره ، مرحباً فرحاً باستقباله ، وكان يلج بيوتاً مفتوحة له ، مشرعة الابواب يترك فيها اثراً منه ، مكملاً راحة اهل البيت ، مذكراً اياهم به . اما الآن فمهمته اصعب ... غامضة ، وغير مأمونة الجانب ، تمتحن فيها رجولته ، وقدر نفسه .

الشوارع نكرات مقصودة ، ضائعة في فراغ موحش . والناس قليلون يسرون وسط الشارع ، ولا يحفلون بالسيارات . ووجد « الفلكه » على بعد دقيقتين في السيارة من محطة البنزين ، ثم استدار في سيارته يساراً ، ووقفها عند ارض فضاء بين بيتين . ونزل منها ، وسار مشياً ، وانعطف بعد دكان صغير لبيع السكاثر ، حتى وجد البيت المقلط الا من رقع صفر مختلفة الاشكال ، ذكرى من لونه السالف . وقف امام الباب الحديدي الاصم ، وتردد قبل ان يدق الجرس دقتين متتاليتين . وشعر بأنه يدخل في مؤامرة خفق نعال خلف الباب الخارجي ، وسمع « من ؟ » رجالية .

— ام عزيز ، ام عزيز .

رد كما اوصته نعيمة . وفتح الباب قليلا ، بالقدر الذي يكفي لان يدلف بجسمه الضخم فيه . ووجد طارمة خاوية تطل عليها نافذتان كبيرتان تغطتا من الداخل بستائر صفراء كثيفة . وتكشف الباب عن غرفة استقبال واسعة كالحلة عارية الارض والجدران ، صفت فيها ارائك خشبية قديمة لا تناسب المقام ، ولا توحى بأنه بيت ماهول . طلب اليه ان يجلس ويستريح . انتظر خافق القلب ، يتلفت في الجدران . كان البيت يبدو كالمهجور . جدران باردة موحشة ، وصمته مريب ، وفرش تخوته مسحوقه متسخة . ظن ان حسية ستفتح له الباب ، ويتم اللقاء قرب الباب ، بعيدا عن الرقباء . اما الان فيبدو كالمتروط ، لا يعرف ماذا سيدفع له القدر من باب نصفه الاعلى من الزجاج المغبش . لن تكون حسية ، بالتأكيد ، ما دام قد فتح له الباب الخارجي رجل ، وقد جاء لمقابلة « ام عزيز » ربة البيت . وحين طال انتظاره خشى ان يكون ذلك خلوة اخرى قد دبرتها له « ام جعفر » مع « ام عزيز » هذه المرة . يئست منه ، فأسلمته الى « ام » اخرى . وتأنف . ونهض ، وفطن الى انه يجلس في غرفة شبه مظلمة كالمنبوذ . وقع بصره على كرسي قديم الطراز مخسوف القمر ، حائل القماش ، ذكره بالكرسي القديم الكسيح في دكانه ، واعاد له بعض الالفة . وعلى افريز الشبابيك بعض اصص الزهور الجافة ، وفي الركن جرة ضخمة خضراء اللون . والى يساره كان زجاج الباب المغبش يشف عن ضوء لؤلؤي محبب . ساورته الشكوك مرة اخرى ، حين استطال انتظاره ، واحس وكأنه واقع في شرك نصبته له « ام جعفر » . وانبثقت في داخله قوة لارادية تدفعه الى

الانصراف ، حين انفرج الباب الزجاجي ، ودخلت منه امرأة ، واضاعت مصباحا واحدا خافت الضوء ، قائلة « اهلا وسهلا . امر ، خدمة ؟ » كانت سافرة ، ممثلة الجسم ، غليظة الرقبة ، في ثوب ازرق فضفاض ، واساور من ذهب ، وابتسامة تجارية تنفرج عن سنين ذهبيتين في جانب من فمها العريض . تساءل :

— أم عزيز ؟

— بالخدمة .

— جئت اليك قاصدا .

— تفضل ، تفضل ، استرح .

كانت تبدو بشوشة بشكل مبالغ فيه .

— حسية ، اريد حسية .

— حسية ؟ من حسية ؟

— لا تخفيها علي . انا اعرف انها تشتغل عندكم ،

اعرف ذلك من مصدر موثوق ، هو الذي دلني على بيتكم .
الظاهر انه صديق مشترك .

— اهلا بك وبه .

وعادت ابتسامتها الذهبية التجارية تطل من شق فمها . يبدو انها لانت ، واطمأنت ، وبدات تفكر تفكيرا واقعيا . اعترفت :

— حسية وجماعه .

— لن اثقل عليها . ساكون لطيفا معها ، قسما بشرفي .

قالها ، وكأنه يتوسل ، حتى اضطرت أم عزيز لان تقول له :

— يبدو انك رجل طيب .. عيني ، نحن اناس مستورون ، ونخاف من القيل والقال . والسنة الناس طويلة .

— اعرفها . اخشن من المبرد .

وانفتح الباب الزجاجي عن صالة مربعة الشكل ، فيها تختان ، كانت تجلس على احدهما فتاة وثبت على قدميها متكلفة الحياء ، حين رأت رجلا مدلهم السحنة ، عظيم الجرم يدخل وراء ام عزيز . هرولت بردفين رجراجين الى غرفة في اقصى الصالة . فتحت ام عزيز باب غرفة الى اليسار ، ونادت :

— حسية ! جاءك خطر .

في الضوء الشاحب ارتفع رأس اشعث من سرير ، ولبظت ذراعان . وجمدت « آهة » نصف منطوقة معلقة في جو الغرفة المحتبسة الهواء . كان ضوء اللغروب الهزيل المتسرب من الشباك العريض كافيا لان يجعل حسية تعرف من القادم ، ربما من ضخامة جسمه ، ومشيته والطريقة التي دخل فيها الغرفة . تشبثت بحاجز السرير عاجزة عن ان تأتي بحركة ، وان تند منها اية صرخة . شلتها المفاجأة . كأنها فتحت عينيها فرأت عزرائيل ، ملك الموت ، فوق رأسها . وتساوى عندها الموت والحياة .

قال عبد الواحد ، وهو يغلق الباب دونه :

— لا تخافي . انا لم اجيء لاذيتك ، قسما بالله .

كان صوته متهدجا مشحونا بعاطفة كظيمة ، وكأنما يريد ان يسترخي طفلا زعلان . وجلس على حافة السرير وديعا شابكا اصابع يديه ، وكأنه لينفي عنه اية نية لاحاق اذى . لملت حسية نفسها ، والتصقت بحاجز السرير .

- سمعت انك مريضة .
- نكست رأسها عن وهن وذل ، ولم تجب . فعاد يقول لها :
- لم كل هذا ، يا حسية ؟
- زادت من أطراقة رأسها :
- كنت معززة مكربة . انت وفضيلة تسرحان وتمرحان في البيت . هل اجعناك مرة او حرمنا عليك شيئا ؟
- رفعت رأسها للوحة واحدة ، وخفضته قائلة بصوت مخنوق :
- والكلام الذي ينغرز في القلب كالخنجر ؟
- ذلك من حرقة قلبي .
- وهل تتصور ان قلبي لا يحترق ؟
- عليكما كليكما . كنت اريد ذرية لي .
- وانا لا اريد ؟
- احبانا يبكي الانسان سوء نصيبه .
- وكم بكيت انا ، في الغرفة ، وحدي !
- وانشأت تبكى بصوت خافت مخنوق ،
- نحن نربي اطفالنا لنفرح بهم . هم ظلنا على الارض ، كما يقول النحويون . ليتك تعرفين كم تعبت على فاضل .
- فاضل مسكين .
- منذ البداية كان يختلف عن اخوته . صاحب نزوات . يفعل كل ما يطرا على عقله .
- كفر حين تزوجني . هذا الذي تريد ان تقوله .
- لا . كل شيء قسمة ونصيب .
- قسمتي ، ام قسمته ؟

- قسمتكما كليكما .
- انا اعرف انكم جميعا ضد زواجنا .
- ابدا . انا لم افكر في ذلك . قبلت منذ البداية .
- واذا كان الذي حصل ، فنحن لا نعلم ما في الغيب . هذه تسمية .
- ترامت من الصالة اصوات رجالية ، وضحكة انثوية فاجرة . رفع عبد الواحد رأسه مستفزا ، ونظر الى تلك المتكورة في الجانب الاخر من السرير . وسأل :
- ماذا تفعلين في هذا البيت الغريب .
- اشتغل .
- عودي الى بيتك ، الى زوجك . فأنت ما تزالين مرتبطة معه بعقد شريف امام الله ورسوله .
- بعد كل الذي حصل ؟
- وطفقت تبكي ، واختلط بكأؤها بنوبة اخرى من الضحك المججل .
- اراني بنفسك ، واراني بفاضل . انه يضمحل . يذوي .
- لن يقبلني . اين اخبىء وجهي منه ؟
- انه يبحث عنك . وخير لك ان تعودى قبل فوات الاوان . سيقتلك ، ويقتل نفسه .
- الموت خير لي .
- الموت لا يمحو عارا ، اذا لحق بانسان . وانا لا عين رات ، ولا اذن سمعت .

صمت مهزوم ، ونشيح مخنوق . ومن وراء الباب ترامى
صوت ام عزيز :

— حسية ، ماذا جرى ؟

— لا شيء .

— اقسم لك بشرفي ، وبشييتي .. انا لم اتوسل
الى امرأة طوال حياتي . سيكون كل شيء على ما يرام .

— لا اريد .. اخاف .

— خير لك من الذل في بيت ..

وتحير بماذا يصنف هذا البيت الغريب . كانت
الضحكة الفاجرة ما تزال ترن في اذنه رنيناً منحوساً .
ولكن قلبه ما زال يضرر فضلة من سماحة وايمان . وكان
يشعر بأنه اقدم على عمل جريء غير مأمون ، ولكن يجب
ان يمضي به حتى النهاية ليثبت ، لنفسه على الاقل ، انه ادى
واجبه ، وكفر عن اسأته ، وانقذ نفسيين من دمار محقق .
وكان في وسعه ان ينطلق منطلقاً اخر مع هذه المتشبهة
بحاجز السرير ، وكأنها تخاف ان يختطفها . فالقانون الى
جانبه ، وهي المخطئة اولاً واخيراً . الا انه دخل اليها بقلب
صاف مستعد للففران ، وحتى لتحمل بعض المساءة .

ارتفع صوت ام عزيز :

— حسية ، يظهر عندك حساب وكتاب ؟

— تعالي معي ، يا حسية — قال لها الاب المكلوم
القلب — الان ، البسي عباقتك ، وتعالي . وستجدني فاضل
في انتظارك ، فاضل المسكين ، الذي لم يرتكب خطأ في حقك ،
بل تعذب اكثر ... اكثر ...

وكنتم تنمة جملته مخافة ان يزيد من نشيجها الذي ارتفع

مثل نواح على ماض لا يمكن ان يعود سليما كما كان . وقد
أحس عبد الواحد بذلك ، وكبح تلك الرغبة العنيدة غير
المتبصرة في ان يعود بها الى البيت ، وتراجع قائلاً :

— او اعطيني كلمة شرف على انك ستعودين غدا او
بعد غد نظيفة مستورة ، كما كنت . وعفا الله عما سلف .
ولم تجبه ، ولكن انقطاع نشيجها الفجائي اوحى له
بأنها قد تمالكت نفسها ، واتخذت قرارها النهائي . العودة .
نهض ، وهو يقول :

— سأتركك في ستر الله . واذا لم تعودي ، فسأجيء
اليك ثانية ، وسأجذك في هذا البيت او غيره . ولكن سأعود
عند ذاك بقلب اخر ، غير الذي جئت به اليوم .
في الخارج فتح عبد الواحد رثيته لهواء الليل ، واحس
به يملأ صدره كالملطهر .

في البيت رآهم مجتمعين في غرفة « التلفزيون » .
انزلت الام رجليها المطويتين تحت فخذها على الاركة .
حين رآته يدخل ، ورفعت اليه وجهها اللهوف . ورفع ماجد
جذعه ، ووضع كتابه على طاولة صغيرة محتويا وجود ابيه
الركن المغمم بمكنونات نفسية بينها وقفت فضيلة عند الباب
مائلة بجذعها الى عضادته ، منتظرة كلمة من ابيها ، في ذلك
الحيز الذي تتمكوك فيه بين المطبخ وغرفة التلفزيون ، في
الاقوات الفاصلة بين وجبة طعام واخرى . نظر عبد الواحد
اليها ، وطلب قدح ماء ، وهو يهم بالجلوس على الاركة ،
ثم عدل عن ذلك ، لانه احس بلزوجة وعرق . ذهب الى
المغسلة تحت السلم ليغسل يديه ، ويسكب الماء على
وجهه . وعاد فجلس قبالة زوجته ، وزفر زفرة مريحة قال
بعدها :

— وجدتها .

حدقت فيه ست عيون ترك نظراتها معلقة وراء جفنيه
المغمضين ، حين تناول القدح من يد ابنته ، وشرب الماء ،
وهو يفكر في الطريقة التي سيلقى بها النبأ العظيم .

— من ؟

قالت الام ببلاهة وبرود ، وكأنها كان لها طيلة الوقت
ما يشغل بالها غير هروب زوجة ابنها . رد عبد الواحد
بسخرية :

— زوجة الحسن بن علي .

وجوبه بصمت مبهور استمر لحظات استطالت حتى
غدت كالعمر ، خيل اليه فيها انهم ماتوا وبعثوا احياء مرات
عديدة ، وهو وحدة قائم بينهم متقطع الانفاس من ثقل
العبء ، حيا الى درجة التعذيب ، مفصولا عنهم بجدار من
الريب وشر الظنون ، كذلك السلطان الطريد ، في القصة
الشعبية التي يحفظها وطالما رواها لاولاده ، ايام كانوا
صغارا . ترك وحده يسبح ضد تيار الماء لينقذ ابنه من برائن
الذئب . ام لعلهم كانوا لا يصدقون بأنه سيجدها ؟ ظنوا
انه كان يبحث عن سراب ، ويحاول المستحيل . والان ،
حين فاجأهم بالخبر ، تسمروا ، وغادرتهم الحياة . اخذته
العزة بالنفس ، ورغبة حادة في التحدي ، في المضي فيما
خوض فيه ، ولات حين رجوع . قال بصوت اعلى من المعتاد :

— وجدتها ... حسية ... هل تتصورون ان شيئا

يضيع في هذه الدنيا ؟

دبت الحياة في الام :

— اين هي ؟

— ستأتي غدا ، او بعد غد .. الى هنا .
راسما بذراعه دورة في الهواء تنتهي باصبعه الهابطة
على ارض الغرفة ، وكأنها يضعهم امام حقيقة واقعة . وتلفت
في الوجوه يستنطقها . رآها مخددة بهول المفاجأة ، منقبضة
عسيرة عن الفهم . وللمرة الثانية احس بوحدته ، وبخذلانه
في ساعة التنفيذ .

قالت فضيلة :

— اهلا بها ، ولكن هل ستأتي كما كانت ؟
صرخ بها ، ورجفة باردة تنبعث من اعماقه :
— ماذا تعنين ؟

— ستأتي متكبرة منتصرة .
— لا — صاح ايضا — ستعرف قدرها . لا بد ان
التشرد والخدمة في البيوت قد علماها الشيء الكثير .
قالت الام :

— ستقول جاني ابو شيبه برأسه ، يتوسل الي ان
اعود .

صاح عبد الواحد :

— يعني لا تريدان عودتها ؟ اتريدان ان تقولي انني
كنت مخطئا في الوصول اليها ؟ كأننا لم نقض اياما طويلة
نفكر كيف نصل اليها ، كأنك لم تتشبهني بالرائح والاتي ،
كأن ...

وتوترت اوداجه ، ولم يستطع ان يكمل جملة . خفت
عنه زوجته قائلة :

— لا تغضب ، عبد الواحد . وعسى الله ان يجعلها خيرا .

— لا اريد ان يقتل ابني نفسه .

— ولا اريد انا .

— اذن ، اسكتي .

ثم التفت الى ابنه ماجد بعد فترة من الصمت ، وقال :

— وانت ؟ لماذا لم تفتح فمك ؟ ألم تكن تدافع عنها ؟

— انا ، انا ... الرأي رأيكم ...

اسأل نفسي احيانا : لماذا اكتب في اوراق منفصلة ،
ولا اسجل افكاري وذكرياتي بين دفعتي دفتر مضموم ؟
الأنني اضمن لنفسي امكانية التخلص من بعض اوراقتي
بتمزيقها وحرقتها ؟ هل انا اخجل مما خطته يدي ، ولا اجد
في نفسي الشجاعة لادافع عنه ؟ شبح الماضي يطاردني
دائما ، والحاضر غير مستقر بما فيه الكفاية والمستقبل على
كف بهلوان . وانا اتأرجح في فراغ البطالة . ومع ذلك ،
فأنا ما ازال احتفظ بكل ما سجلته ولم احذف منه سطرًا
واحدا . هذا الاخلاص للنفس هو الذي يريحني ، ويلهمني
الشجاعة على الاعتراف بالخطأ . ولكن هل كنت قادرا .
نفسيا وجسديا ، على ان اتفادى ما سميت به بالانهيار
الجليدي ؟

كنت استيقظ من النوم فأجد نفسي متوترا ، كنت
احس وكأنني مقبور حيا . ضاقت الحجرة بي ، ولم تعد
لدي الشجاعة لكي اطل على باحة الدار من اعلى الشباك .
كنت انتظر مجيئها بفارغ الصبر ، متخذا اوضاعا شتى .
وما من واحد منها ينفس عن جزيئة من التوتر الذي يشد
كياني . كانت احلام الليل تجعلها تتلون امامي بألوان غريبة ،

وتتشكل اشكالا متناقضة ما بين حورية وسعلاة . وكنت احلم بها ، وهي تقدم لي الصينية ، ولكنها حين تبتسم تظهر لها انياب طويلة متباعدة . وكنت احلم بها ذات جمال صارخ ، وضافتها الطويلة سارحة على صدرها الناهد تشع لونا حنائيا شفافا ، وحين امسك تلك الصفائر تفتت في يدي ، وتتحول الى رماد . كنت احلم احلاما لا نهاية لها . حلمت مرة انني اتمشى معها في شارع ابي نؤاس ، والجو ساحر ساج ، وانا في منتهى النشوة ، ولكنني افطن فجأة الى حقيقة انني مختف ، وان خروجي من البيت خطر علي ، وان الشرطة تتبعني لا محالة ، فاجفل ، واستيقظ من نومي . ولكنها كانت دائما تأتي في الصباح مختلفة تماما عن كل حلم رأيته . تأتي الي حية ، حقيقية ، من لحم ودم ، دافئة طازجة سمراء كالرغيف الذي تقدمه لي كل صباح . وجودها الثابت الصلب ، ورائحتها الحية التي تشيع الحيوية في كل عصب في كياني . اغراؤها ، وامتناعها ، وما يكتنفها من الخطأ والصواب ، والفضيلة والرذيلة ، كل ذلك يحتويني ويصعد الدم الى رأسي . اذا مسستها شعرت بدفئها ينساب في يدي، وبلحمها يرتد بين اصابعي ، وانفاسها تغمر وجهي . يعمر عالمها الحافل صحراء وجداني .

ظلت بعد تلك « الحادثة » اياما كثيرة تتحاشى المكوث في الحجرة اكثر من دقيقة . واظنها لو كانت تستطيع ان تعتذر لاهل البيت عن توصيل الطعام لفعلت . اما انا فقد تركتها ريثما تستفيق من « الصدمة » . وكنت ، انا نفسي ، حائرا لا اعرف كيف اتصرف . لم يكن خجلا ذلك الذي كنت احس به، ولا ندمها، ولا حراجة، بل كان صحوا عاطفيا شفافا،

كأنه من نشقة مكثفة من سقوط الحواس ، يجعل لي يقينا وجدانيا في ذاتي التي كانت مخفية تحت ركام من العواطف المهزوزة والجامدة ، الخيرة والشريرة ، البسيطة والمستحيلة على التحقيق . وكأني افقت على نفسي بعد سبات او شرود او ملاحقة سراب ، او واد النفس في مقبرة احلام اليقظة ، فاذا بي اجد بعدا اخر من ابعاد المتعة . وتملكتني رغبة آسرة في الاحتفاظ بلحظة الصحو هذه ، لحظة الشبع والامتلاك ، مبقيا على الزمن بلا حراك ، خائفا من التفكير او الاستغراق في الاحلام ، او الالتفات الى تلك الوسوسة التي كنت اسمع دبيبها احيانا يدمم داخل جدران نفسي ، وكأني ذلك الفقير الذي فاز بجائزة « يانصيب » واخفاها عن اهله واصحابه ليحتفظ بالجائزة لوحده ، وبالحلم ايضا . ولم نكن نتبادل غير كلمات قليلة ، خائفين من زلة لسان ، او اشارة عابرة ، او تلميح غير مقصود . وكانت هي تبدو خائفة معقودة اللسان ، تتعجل مغادرة الغرفة ، ولا تلقي أي سؤال من اسئلة المجاملة التي تعودت ان تلقيها صباح مساء . وبقيت انا محتفظا برصانتي ، لا اريد ان افسد الصحو النفسي الذي كان يتسرب ، دون ان ادري ، من يوم لآخر ، او حتى بين صباح ومساء ، كما يتسرب الدفء من جسد كان تحت دثار . وبدأ القلب الخاوي يستجدي كلمة ، نظرة ، لمسة . وصار الجسد الموتور يحس بالجوع . ذات صباح ، وكان ذلك يوم جمعة ، جاءني صاحب البيت بالطور . تشاءمت . قال :

— كنت اود ان اتحدث اليك .

— تفضل (بصوت مرتجف) .

— ربما كان ذلك بعد فوات الاوان .

— اي اوان ؟

— كان علي ان استشيرك او انبهك قبل ان ادخل
خادمة الى البيت .

(الان هل تريد ان تفتزعها مني ؟ !)

— لا بأس . مر الامر بسلام ، على ما يبدو .

— لا ، هي ، مأبونة ، وقد اختلقنا لك قصة . كانت
زهرة تخدم عند صديق لي ، ولكن زوجته غارت منها
(وضحك ضحكة ثقيلة) . واستنجد بي (لم اكن أدري انه
يقص حكايته معها كما عرفت بعد ذلك) وعندما اعطيت الكلمة
غاب عن بالي انك في بيتي . تركنا للمصادفة (وضحك مرة
اخرى) سأكون حذرا منذ الان .

ونظر بابتسام . بسمته جارحة كالنصل ، ولعلت عيناه
الكابيتان لمعانا غريبا عليهما ، كأنه حشاشة اهل اخير في
الحياة ، اخر ومضة في عمر قد ولى ثلثاه ، كأنه يضمن لنفسه
حصاة من غنيمة غامضة غريبة ، تواعد على اغتنامها مع
لصوص مجهولين ، خارج تلك المغارة التي انزوي فيها ،
منقطعا عن العالم والناس والاشياء . وفي ذلك الصباح
دخل في حياتي عنصر العذاب ، عنصر القلق ، وسأوس
الشیطان . هل ان عبد المجيد السماوي يعرف سرنا ؟ هل
شك فيما خضنا فيه ؟ والان ، يقول لنا : انا هنا ، بالمرباد .
ويلكما لو تنسيان انكما مراقبان ... صديق ، وزوجة تغار
عليه من « زهرة » . وهو ، ما علاقته بالمسألة ؟ وطوال
اليوم كانت تتراءى لي بسمته الباردة كسلاح ابيض حاد
الشفرة ، لماع كلمسان الانمى ، مراوغ قتال . ولكن « زهرة »
جاءت بالفطور في اليوم التالي ، وبدت طبيعية هادئة طازجة

لم تشترك في معركة الظنون التي خضتها لوحدي يوم امس
كله ، وقضيت الليل مؤرقا ، ائن من جراحاتي . كانت متئدة
الحركات ، موزونة ، نضرة ، لامعة الخدين ، او هكذا بدت
لي ، كأنها استيقظت لتوها من نوم عميق مريح بلا احلام .
تتصرف تصرفا حياديا ، وكأنها لا ترتبط معي
بتاريخ قريب او بعيد . وعندما جاءت
لتأخذ الصحن الفارغة ، رايت على وجهها الاسمر الوقور
شيئا ملحا كالاستفسار ، شيئا يوشك ان يفيض . وشجعني
ذلك لان اقول لها :

— اتعبتك من صعود الدرج .

لم تجب . ورايت جبينها عند منبت الشعر يحمر ،
ويكتسي بحبات بيض لؤلؤية . قلت :

— هل انت زعلانه مني ؟

هزت رأسها نفيا ، بعد ان راتني احدى فيها .

— لم هذا السكوت ، اذن ؟

انتصبت بقامتها الفضة الميالة الى القصر ، ونظرت
في وجهي نظرة زائفة لا تستقر في موضع .

— البارحة ... (صمت لنصف دقيقة) ماذا تحدثتما

عني ؟

— مع عبد المجيد ؟

— هو وحده الذي صعد اليك .

— لم نقل شيئا خاصا .

— ابدا ، ابدا ؟

— سوى انك كنت تشتغلين عند صديق .

— اي صديق ؟

— صديق كانت تغار منك زوجته .

لوت رأسها ، وحدجتني بنظرة متسامحة ، وكأنها تقول « خلف الله عليك ! » وبدت اكبر من سنها بكثير ، امرأة فنكتها السنون ، ولم تعد الاحابيل تنطلي عليها .

وتصورت انها تنطوي على سر تتردد في البوح به ، ولو كان يعذب قلبها ، فتركها وشأنها ، قانعا بأنني تركت صدعا في جدار اصم كان يفصل بيننا ، وأن صدوعا أخرى ستحدث ، وينهار جدار البرودة القطبية ، وتبزغ شمس الحب في سماء حياتي .

اي حب هذا الذي اردت ان اتحدث عنه في الليلة الماضية ؟!

القلب كم هو مهمل في حياتنا ، نحن الذين كنا في مقتبل العمر في اواخر الخمسينات . القلب عاهة ، القلب لعنة ، القلب براءة من كل المبادئ النبيلة التي كنا نفخر باننا نحمل أو شحنتها . القلب ونزواته سبة وضعف وهزيمة وانهيار . القلب انحراف يميني ، مرض طفولي ، يجعلنا في معسكر واحد مع المائعين والتافهين والراكضين وراء الاوهام ، والمستهترين الهازئين بالأم الناس . كانت السياسة تلتهم عواطفنا كثيران المجوس ، وكان كل شيء خارجا هباء وضياعا وانتحارا . وانا ، حين أؤرخ حياتي ، لا أؤرخها بأول حب (أين هو اول حب ؟) بل بأول مظاهرة خرجت فيها ضد الحلف الباكستاني التركي ، وحلف بغداد ، واثاء التضامن مع مصر تأميم القناة والوحدة وعبد الناصر . وحين ارجع بصري في صحراء عمري لا اجد زهرة حب واحدة يمكن ان اتذكرها ، بل اجد احلاما صبيانية هوجاء ، واستغراقات في علاقات وهمية رعاء ، كتلك التي كنت اعقدها مع نساء

حديثات الزواج ، ايام كنا في حينا القديم ، في بيتنا المتواضع
 المنزوي في رحم بيوت اخرى . كنت اشعر بهن جريئات ،
 متفتحات ، مشدوهات ، خضن تجربة العمر الفريدة ،
 وتخطين الحاجز النفسي الذي يعلو مع تقدم الفتاة في العمر
 دون زواج . فأشعر بهن فرحات مستشرات ، وكأنهن امسكن
 بمفاتيح الجنان ، ولم يعدن يعبان بشيء ، ولا يخشين من
 شيء . وكن يتبرجن لي عمدا ، انا الصبي المراهق ،
 ويكشفن عن سيقان بضة ، وهن وراء طشوت الغسيل ،
 وكان ذلك يفجر الزوابع في دمائي ، ويجعلني ابلغ مبلغ
 الرجال قبل الاوان . واقضي ساعات من ليلي مسهدا ،
 اتقلب على فراش من الاشواك . هيهات ان انسى
 « مغامرتي » مع واحدة منهن كانت تتردد على بيتنا ، وتراني
 اقرا دروسي عند اسفل الدرج ، حيث الضوء والهواء
 المنعش ، والشمس تتسلق بيت الجيران ، فأفيس بها
 الساعات . كانت تنحني علي حتى تغمر انفاسها وجهي ،
 وتغم رائحتها خيشومي ، لتقول : « ماذا تقرا ؟ » بصوت
 يحتضني ، وينشرني ويطويني . وربما لهذا السبب امتلك
 هذا الاحساس العنيف بالصوت ورائحة الجسد حتى الان .
 ما ازال احس بهما شيئا ملموسا محسوسا ذا طعم ونكهة ،
 وكيان ، وعمق ، وسعة ، اصططبه معي في فراشي
 واهدده ، واسهر معه ، والتهب بناره . وكانت تبدو
 وكأنها تعرف ذلك ، وتتلذذ به ، وتبالغ في تسعير خيالي
 المحموم ، وتنتهز كل فرصة لتلفني بردائها . وذات مرة ،
 وكنت وحيدا في البيت ، انقل دفترا استعترته من احد
 التلاميذ . وكانت امي قد ذهبت لزيارة اهلها بصحبة فاضل

وفضيلة ، وكان شامل مستغرقا في نومه المبكر ، على عادته ،
بعد العشاء . وابي في المقهى . وجاءت « نجية » ومعها
ابنها الرضيع — ما اسرع ما يكون لديهن رضعاء ! — وبركت
على الارض بالقرب مني . كنت منكبا على الارض مغمورا
بالنقل ، مستخدما الحبر الاحمر لاسماء الاعلام ، والازرق
لبقية الكتابة . وبدأت نجية تلقي علي اسئلتها التي لا
تنتهي :

- اين امك ؟
- عند جدتي .
- ماذا تفعل ؟
- مريضة .
- من المريضة ؟ امك ام جدتك ؟
- امي .. لا .. جدتي ..
- لماذا لا ترفع رأسك حين تجيبني ؟ ولماذا تنكب
بهذا الشكل على الدفتر ؟ ستمعى .
- خالد بن الوليد .
- شنو ؟
- عمرو بن العاص .
- شنو ، شنو ؟
- عقبة بن نافع .
- اغظتني .. لولا ابني لهجمت عليك ، وعضضتك .
- اليرموك .
- ما هذا الذي تقوله ؟

— القس طاط .

— ساهجم عليك .

— القيروان .

وضعت رضيعها على الارض ، ووثبت علي ، والفت ذراعها حول رقبتني ، واطبقت وجهها على وجهي ، وعصرتني عصرا عنيفا . توهجت ، وتلظيت . لم اجابه ، طوال عمري ، بهذه الدفقة المحرقة من اللهب الانثوي ، ولم يحتوني خباء طري مدوخ برائحته كخبائها الملتهم النابض . جابهت صراعا بصراع ، والرائحة والطراوة والصوت الدافق قرب اذني ، تلهمني العرامة ، وتطلق الحرية ليدي وشفتي ، واشياء اخرى من جسدي . تقلبنا على الارض . مرة هي تحت ، ومرة انا تحتها ، وتشابكت ارجلنا واذرعنا ، ولهت انفاسنا ، وانحسرت ثيابنا ، ولاول مرة احسست بلمس العربي الانثوي ، البضاضة المغرية ، بالايغال عميقا عميقا ، الى حد الدوخة والانبهار ، وتقطع الانفاس ..

وكانت موقعة « الجمل » هذه اول و آخر موقعة انتصرت فيها . وبعد ذلك صارت نجية تخاف مني ، وتتحاشى الانفراد بي ، بينما تلبسني شيطان حبها ، ولج بي ، وارق خزانات دموعي ، ايام كنت ازيح « الدشداشة » عن جسدي ، اثناء استلقائي في الفراش ، واتحسس مواضع لمسات جسدها على جسدي ، وقلبي يتمزق حشرات .

تلك بعض « مغامراتي » العاطفية الكسيحة ، حينما كنت ، كلما ابصرت امرأة دافئة ، حديثة العهد بالزواج . « انصب لها اشراكا من الحلم » على حد تعبير الشاعر العربي القديم .

ولو قورنت تهويماتي بغزوات « جليل » مثلا ، الذي

يصفرني خمسة اعوام ، لكنت بمثابة منارة سوق الغزل ،
بالنسبة الى برج ايفل !

ذهبت الى المقهى المعتاد . كان جليل يجلس على تخت
خارج المقهى ، يلتهم بعينه كل فتاة عابرة ، كأنه يبحث عن
واحدة تبل روحه الصادية ، مرة والى الابد ، كما يقولون في
اللغات الاجنبية . وكان يؤيد يقلب جريدة « العرب » هازا
رأسه قائلا : « عجيب ، عجيب ! » . هبطت الى جانب
جليل . رد على تحيتي ، والتفت الى مؤيد ، مربتا على
فخذيه ، قائلا :

- ماكو في الدنيا عجيب .
- ماذا فيها اذن ؟
- الاعتيادي الممل ، المبتذل الرخيص .
- بينما عينك تبحثان .
- عن الكبريت الاحمر .
- سشى ! هذا من المتفجرات !
- لا توسش لي . اصدقائنا عرفوا من نحن ، فلا تخف
منهم . نحن الاممية الخامسة ! ما رايك في ذلك ؟
- الجمعيات ممنوعة .
- لا . ستجيزها الحكومة ، اذا سميناها بهذا الاسم
.. مرحبا ، محمود !
- والتفت الى الورا ، وسلم على شخص وراءه . رد
الشخص بـ « هلا » وبابتسامة مقحمة . قال جليل :
- صوتي مسموع زين ؟
- خذ راحتك .

- نريد ان نكون اممية خامسة .
- لو كنتم تؤلفون اممية ، ولو كانت عاشرة ، لما
اخبرتموني .. نحن نعرف .
- شفت ، مؤيد ؟
- رد مؤيد بلهجة جدية :
- لا ، صحيح ، سيد محمود ، نريد ان تؤلف جمعية
تسمى جمعية القرف من الجلوس في المقاهي . ما رايك ؟
- قال محمود بلهجة عليم :
- هذه الجمعية قائمة .. نحن نعرف بها .
- اسكت ، مؤيد ، لا تضع يدك في فم الاسد ..
- واين اضعها اذن ؟
- وعادت عينا جليل تمشطان الراحات والغايات . ثم
نهض فجأة ، وقال لي : « قم ! » .
- الى اين ؟
- نتسكع . وفي طريقنا نمر على مكتب الاعلان .
- كان جليل قد وجد له عملا في هذا المكتب كمصمم
اعلانات . صعدنا الطريق المحفر المجدر ببتع الماء الاسود ،
ميمين صوب « ابي نؤاس » . كان الوقت عصرا .
استقبلنا النهر ببسمته الغرينية الدسمة . والشمس تعصف
ذوائب النخيل والاشجار في الجانب الاخر من النهر .
مشينا صامتين بضع دقائق ، ثم بادرني سائلا :
- هل وجدت عملا ؟
- لا ، بل سحبت اوراقي من مديرية الري العامة ،
وقدمتها الى معمل المكائن الثقيلة . فلعل وعسى !

— نأمل ! دوستويسكي يقول : اذا فقد الانسان
الامل ، ولم تكن له غاية في ذهنه استطاع الضجر المحض ان
يحوله الى حيوان .

— اما انا فاعرف كلمة لتشخوف يقول فيها « ان فقدان
الايمان في عصرنا اسهل من فقدان قفاز قديم » .

— او نعال قديم ، بالنسبة لنا ، لاننا لا نستخدم
القفازات — قال جليل بحماس هازا راسه هزات قوية
متوترة — وفقدان الامل نجده في كل عطفة شارع ، في كل
سطر في جريدة ، في كل نظرة من عيني . ضياع !

وضخم كلمة « ضياع » مشيعا فيها معنى اصدار حكم ،
جاعلا اياها كاللعنة . ورنق بصره لحظات في المدى الصقيل
لجسد النهر البنى ، ثم عاد زائغا على الرصيف . وفجأه
ارتد جليل ، وتخلخل في مشيته ، كمن اصطدم بجدار ،
حين وقع بصره على فتاتين قادمتين من الجهة المقابلة .
كانت الاولى تشده النفس بجمال وجهها الرصين ، ونضارة
بشرتها ، والاخرى تثير في النفس احساسا مقبضا اشبه ما
يكون بفقدان الامل الذي كنا نتحدث عنه . كان تنافر تقاطيع
وجهها ، انفها الكبير المكور ، عيناها المفجوعتان الكبيرتان ،
شفتها السفلى الغليظة المتدلّية يشعرك باللاعذالة في توزيع
نسب القبح والجمال بين البشر ، ويعتورك اشفاق يعصر
القلب لشعورك بظلم الطبيعة الخالقة وتجنّيبها .

تدلى راس جليل الى الامام ، وكان فقرات رقيقة قد
انحلت ، وغاب عني في ذهول وهمود ، خرج منها بعد
لحظات ليهز راسه ، وكأنها ليترد عن وجهه ذبابة لجوجا .
وقال :

— الان انا بحاجة الى مسكن .

نظرت الى وجهه الجامد التقاطيع ، وقد التصقت
عليه البشرة مشدودة الى حد التوتر .

— لا بد انك تعرفهما .

هز راسه بغموض ، ورد ردا غير مباشر :

— اخوك شامل يحوم حول واحدة منهما .

— من ؟ الجميلة ؟

— لا ، الاخرى .

وشعرت بوخزة في خاصرتي .

— لعلها تلك التي حدثتني عنها سابقا ؟

— هي . انه يلعب لعبة قذرة . هل يريد ان يسبب

لها انهيارا عصبيا اخر ؟

وضرب جمع يده بباطن كفه الاخرى المبسوطة . كان

يتعذب ، ويكتم ، بلا شك . اثار اللقاء تداعيات مؤلمة بي
نفسه .

— يبدو انك ملم بالموضوع جيدا .

— ليس ذلك بمستغرب على رجل تخرج في معهد

الفنون قبل سنتين . ثم من لا يعرف هيفاء مطلوب ؟ رسالة

ممتازة . وبعد مداعبات اخيك اخذت تميل الى التمثيل .

— والاخرى ؟

— الاخرى !.. الاخرى هي الفواية .

واخذت استدرجه مدفوعا بقوة السحر المبهم الذي

يكتنف عالم العلاقات بين الرجل والمرأة ، متلمسا طريقي

بمسابر اعرف من طريقي الخاصة انها تثير مكانم الشعور ،

فتطفح النفس ببواطنها ، مثلما افعل انا ، احيانا ، مع القلم ،
حين يخز مسبر شكوة ذكرياتي ، فتندلق على الورق .

لولا حسية وهروبها لما دلقت نفسي خفاياها .

اهذا صحيح ! .. لا .. صحيح ... غير صحيح .

الم تكن اللعنة تلاحقني طيلة سنوات ؟

احمل الجرح معي ،

الاثم ،

الندامة ،

تبكيت الضمير ؟

ولكن هل كان لذلك محل في تفكري آنذاك ؟

كانت الدنيا تختزل الى اوقات لقيانا . وكان الصفاء
قد عاد بيننا ، صفاء مشوب بحذر ، ونظرة في العينين ،
وفترات تغوص فيها القلوب ، وكأنها تغور في بئر لا قعر
لها . كنت قليلا ما افلح في اجلاسها ، ويداي مطبقتان على
ذراعيها الدافئتين ، على الكرسي قبالي ، كما كانت تقعد
هي بنفسها في السابق . وكان يبدو وكأن شيئا خاصا يدور
ويتلولب في خلدها ، وهي تنظر الي بعينيها النجلاوين ،
تستقرىء ملامحي ، هيئتي . وفجأة سألت على حين غرة :
— لماذا تحبس نفسك في هذه الغرفة ؟ لماذا لا تخرج ؟

تنحنت ، وارتبكت ، وفركت صدري بيدي مستنظفا

بديهتي جوابا . وقلت دون ان افكر :

— عندي حساسية .

— ما معنى حساسية ؟

— صدري يضيق من بعض الروائح ، في اشهر معينة
من السنة فاعزل الدنيا .

نظرت الي بعينها الدعجاوين ، ورفت بسمه فاترة
على شفيتها .

— ألا تصدقين ؟

— أصدق ... بكل شيء أصدق .

— حقا ، يا زهرة ، هناك بعض الناس يشمون روائح
لا يشمها الناس الاخرون .. هذه الروائح تطاردهم كقطيع
من الذئاب .

— ربنا يستر .

ولم يخامرني ادنى شك في انها لم تصدق هذه الكذبة .
ولكنها كذبة خفيفة ، رمزية ، املت ان اطورها في لقاءات
اخرى . ثم انني كنت على يقين من ان اهل البيت اعطوها
تبريرهم الخاص . وصدق يقيني ، فقد سمعتها تقول لي ،
وهي تضع قدح الشاي على المنضدة :

— عبد المجيد يقول انك هارب .

جفلت . وشعرت بوجهي ينتفخ بالتساؤل والتوجس .
أوضحت زهرة :

— هارب من اهلك : لانهم عازمون على تزويجك من
خطيبتك منذ الصغر ، وهي ابنة عمك .. ولكنك لا تحبها .
ارتخت قسماتي بابتسامة مستسلمة :

— صحيح .

— ولكن امك تزورك بين حين واخر .

لا اعرف كيف اسعفتني بديهتي فقلت لها :

- امي الى جانبي ، ولكن ابي يصر ، ويبحث عني .
- في بغداد ايضا يحدث هذا ؟
- في بغداد يحدث كل شيء .
- ومرة اخرى سالتني :
- من هي ؟
- من ؟
- الفتاة التي تحبها ، ومن أجلها هجرت خطيبتك .
- من هي التي احبها ؟
- لا اعرف . . عبد المجيد يقول ان لك حبيبة انت مخلص لها .

- أهذا ما قاله عبد المجيد ؟
- هزت رأسها ايجابا . فقلت :
- عبد المجيد يجيد تسقيط الكلام .

وما اكثر ما كان يملأ ذهني به ! كان يأتي ويتحدث عن اشياء غريبة ، شائعات ، مفاجآت ، تغيرات في العلاقات بين هذا وذاك من الذين في دست الحكم ، فضائح ، تحولات غير معقولة . كل شيء معرض للانكشاف . كل شيء نهب للزوابع والتقلبات . لا شيء مضمون في هذه الدنيا . الاختفاء لا يرضى غير غرور النعامة . وهيت لك !

واكتشفت انا انها لن تأتي ورب البيت موجود فيه . كان هو يحمل الشاي والطعام والجريدة اليومية ، وفي احيان قليلة تقوم زوجته بذلك ، اضطرارا ربما . وسرعان ما اكتشفت انني واقع بين ثلاث قوى متنافرة ، كل واحدة تدور في مدارها المرسوم ، وتحوم حول غاية . كنت اثلثمس

ذلك في الميون والحركات او انصاف الجمل ، والكلمات
المطاطة ، والاشارات والهمهمات . وفقد الجو براءته ،
وتدبقت الحياة ، واكتشفت تغيرا متصاعدا في سلوك زهرة .
صرت المح تباطؤا متخاذلا في حركاتها ، ذبولا مقهورا في
عينها ، صمتا متوجسا مثل مراجعة النفس يطل من قسّمات
وجهها ، ذلك الوجه الذي كان يتقنع من يوم لآخر بقناع من
الجدية المبكرة ، كانت تطيل النظر الى وجهي ، وكأنها
تستنطق ملامحه ، وشفتاها توشكان ان تقولوا شيئا يعذب
ضميرها ، ولا تجرؤ على الافصاح عنه ، شيئا يشغل
خلواتها مع نفسها ، كما يخيل الي . وكانت يدها ترتجف
حين ترفع الصحون من المنضدة ، وتغرق في صمت ثقيل ،
متباطئة في الرد على اسئلي الصغيرة . كان وجهها يستطيل ،
وملامحها تتغير نسبها ، وكانت تكثر من قول « الله كريم ! »
وكأنها عاجزة عن رد مصيبة توشك ان تقع . وكانت تسأل
ثم ترد بنفسها على سؤالها ، كأنها لتؤكد شيئا تشك فيه .
ثم سألت ذات مرة : كم اخاك ؟ قلت : اثنان ، واخت
واحدة . لوت رقبته مهونة الامر . تذكرت ما قالت لي في
لقاءاتي الاولى : في قرى العراق ومدنه الصغيرة ينجبون
كثيرا . عشرة بطون ، اثنا عشر ، وحتى ثمانية عشر . الملا
خميس صاحب ابي في المسيب ، وفي قزرباط ايضا ، حيث
انحدرت هي واختها الكبرى للعمل في بغداد ، تاركة اباها
المتورم الركبتين . وكانت في ايامها الاخيرة رقيقة وعصبية .
تفوه باشارات مبهمّة . وكان الصباح احيانا يرتفع من قعر
البيت .. واخيرا ... انقطعت عن الصعود يوما ، ويومين ،
وثلاثة ، واربعة . وانا لا اجسر على الاستفسار ، وحتى

على اظهار قلق . صارت الزوجة تصعد الي . واحسست
لاول مرة بثقل وجودي في البيت ، بالفراغ ، وكأنني معلق في
وسط بئر . وفي يوم حزين اسرت الزوجة الي الخبر :
« زهرة تركت البيت » .

— نهائيا ؟

— جمعت اشيائها وخرجت ، ونحن خارج البيت .

قاتلتها بلهجة ارتياح دافعة تراعها الى فوق ، وكأنها
تريح ثقلها عن صدرها الى غير عودة . وقوى ذلك شكوكي
من ان الزوجة كانت ترتاب بوجود علاقة مريبة بين زهرة
وزوجها ، وانها قد تخلصت من شبح خيانة كان يكمن في
بيت الزوجية .

الخيانة ، كالموت ، تترصدنا في كل منعطف .

وجليل يحلو له ان يقسمها تقسيما بديعا : خيانتها
انفسنا ، وخيانة الآخرين . ويقول : اننا نمارسها بسهولة ،
ولا نشعر بالخسارة والندم الا بمقدار ما نشعر بهما عندما
ندخن سيكارة زائدة تعقبها نوبة سعال طارئة ، وحكة في
الصدر .

اليوم عرفت قصة الفتاتين اللتين التقينا بهما في شارع
ابي نؤاس . الغريب ان صورة القبيحة انطبعت في ذهني
أكثر من صورة الجميلة ، ربما لان الجمال الصارخ لهب
يذهب بالابصار لحظة ، ثم تبقى ذكرى حلوة وغامضة .. اما
صورة القبح المروع فتبقى كالوشم في ذاكرة الانسان .

كان جليل قد ابدى اهتمامه بمعرض شخصي صغر
اقامته « القبيحة » في حجرة مهجورة في المعهد ، وكتب عنه
نصف عمود في جريدة « العرب » . وكان لا يرمي بذلك الا

اثارة زوبعة صغيرة من تلك الزوابع التي تثار بين التكتلات المؤقتة بين الطلبة ، وتثير الاخذ والرد ومختلف الظنون والتفاسير . وقوى « نصف العمود » صلة جليل بهيفاء التي كانت تريد ان تضفر من خوصة صغيرة سلة من الامال . قال جليل لي :

— كأن الامر يفلت من يدي في الحقيقة . كنت لا اريد غير تشجيع فنانة تملك حاسة فنية طيبة ، وحساسية مفرطة ازاء نصيبها الاعجف مما يزين بنات جنسها . وكانت كل التفاتة تؤول من جانبيها بأكثر مما يحتمل ، وكل نظرة توقظ شيطاننا من قهم عواطفها الحبيسة في صدرها . اما انا ، العربيد المتفجر بالحمم ، فقد وقع جنوني على درة تاج الجمال التي ترافقها . ورحت اخطط للاستيلاء عليها . صارت كل كلمة توجه لمنى دون غيرها ، ولو قيلت لهيفاء عينا بعين . كل اشارة تنسج شراكا ، كل همسة تنطلق لفرض تأمري . وصارت لي ولمنى لغتنا الخاصة ، اشاراتنا ، غمزات اعيننا ، كلمات السر . وقد استولت علي نشوة الانتصار الرعناء ، فاستخدمت كل رصيدي في اجادة حركات الالتفاف ، وجر البساط من تحت الارجل . واخيرا ، صارت لي لقاءاتي السرية مع منى . . . استطعت ان اقسم الثنائي الذي كان يبدو للاسنان الاعتيادية جوزة تعز حتى على « كسارة الجوز » ! انها لعبة خطيرة ، ربما تتصورني لم اكن اشعر بسفالتها . ولكن الذي يمز في بحر الفوايية ، قلما يكثرث من اقراش الاثم المتربصة به . كنت مستسلما الى خدر لذيد يغبش علي وجهه الواقع . . حتى حلت الكارثة . رائنا هيفاء نسير في شارع السعدون — لعل واشيا وشى بنا ، ولم تكن مصادفة — وحين وقع بصرها علينا تهشمت ملامح وجهها المتنافرة وخلت انها ستستساقط

كفناح من خزف سريع العطب . وبعدها اختفت هيفاء
المسكينة من الكلية ، ومن كل مكان ، حتى سمعنا انها قد
اصيبت — المسكينة — بانهيار عصبي .

سرنا دقائق صامتتين غارقتين بأفكارنا الخاصة . وكان
رأس جليل قد تدلى ، وتلك امارة تظهر عليه كلما طلع خاسرا
في معركة الافكار التي تضطرم في داخله . قلت هازا رأسي:
— أنت فارس غزوات . .

— غزوات فارغة — ورفع رأسه والتفت الي ، وعيناه
تتفرسان بنهم وابتئاس — ولكن ما العمل ؟ لي قوة تهز
الجبال . هذا ما اشعر به . ولكن ايامنا ضائعة ، ضائعة .
اريد ان اغرق نفسي في شيء يستحوذ على كياني كله ،
اهبه له . اريد ان اغامر . روح المغامرة والتضحية تعربد في
شراييني . ليتني انتمي الى منظمة ثورية لاهبة ، واذا لم
تكن في العراق ، ففي فلسطين المعذبة على الاقل . احب
معانقة الخطر ، ولو ان تشيخوف يقول ان معانقة الخطر
لعبة ضد الضجر . حسنا ، يا اخي ، انا ضجر من حياتي
الراهنه حتى النخاع .

رددت :

— الضجر تتصوره من ركود العالم . لا حركة .

— اتصور العالم فراغا . والفراغ يدفعك الى ارتكاب
اكبر الموبقات . اريد ان احرك شيئا من هذا السكون المبتذل ،
ولو بفتيلة تنسف نفسي مع بعض دعاة الخمول . . . الجمود
يحطم اعصابي .

— لا بد ان حركة تجري في الاعماق ، لا بد من وجود
قوى تعمل في الخفاء .

— بالتأكيد . والا فهل هذا بلد يحترم نفسه ؟ تعيش حكومته على موارد سباق الخيل والكوكا كولا ؟ بلد تفتح فيه صالونات الحلاقة للسيدات اكثر من كل المشاريع والمؤسسات والمدارس مجتمعة ؟ ولكن اين تلك الحركة ؟ اريد ان احتويها ، انغمر فيها .

وركل حجرا بقوة ارسله كالفنيفة الى الجانب الاخر من الطريق ، ثم ثنى بآخر بتسديد غير موفق ، فأثار غمامة من الغبار وتدلى راسه من جديد ليرفعه بعد دقائق ، ويسأل :

— لو كنت في مكاني ماذا فعلت ؟

— في اي شيء ؟

— في مسألة هيفاء ومنى . هل تستسلم للغواية ، ام تتمسك بأذيال الفضيلة ، ولا اقول بتلابيبها ؟

— احيانا يستسلم الانسان لثقل اللحظة المعاشة ، ويدور في فلكها .

— يعني مع الاغواء ؟

لم اجب . كنت اجد تبريرا للافكار التي صارت تتابني كلما تذكرت قصتي مع زهرة . في حينها لم افكر في الخطأ والصواب ، كنت اعيش اللحظة الراهنة ، واخضع لخدر الفراغ . كانت ايامي ، قبل ان اراها ، متشابهة ، كأسنان المشط ، على حد التشبيه المشهور ، متشابهة رتيبة مثقلة بوقر الانتظار . ثم هبت في حياتي الراكدة كالنسيمة ، واطلت في ظلام اختفائي كنور القمر الذي يقال انه يفعل في بعض النفوس فعل الخبل والجنون . كنت كقط جائع — لم اكن ذئبا على الاطلاق — حبس في غرفة مع قطعة لحم موضوعة

تحت غطاء شفاف من الزجاج . وما ان اندفعت مدفوعا على
تبع الموجة الاولى من الرغبة ، حتى انغمرت ، ودخت وفقدت
توازني الى ان القنتي الموجة التاسعة محطما ملقى على
شاطئ الذهول والحسرة . في الايام الاولى تعللت بانها
ستمود . لعلها سافرت الى قزرباط لزيارة ابوها الكسيح ،
او ذهبت الى اختها الكبيرة هنا ، في بغداد التي كانت علي
محرمه آنذاك . ولو ان لهجة الزوجة القاطعة تجزم بانها لي
تعود .. ذهبت الى غير رجعة — دفعة مرد وعصاة كرد
(لماذا عصاة كردي ؟) — وكانت تأمل ذلك من اعماق
قلبها . وكنت آمل العكس ! ومعي يأمل الزوج . كان يصعد
الى غرفتي كسير الخاطر ، ويطرح اسئلة غريبة ، ويرد
عليها حين ابتاطا بالرد ، ويقول « مسكينة » ، ويبتسم
ابتسامة مبطنة ، ويجعلني ذلك اشعر بالتماسة والانقطاع .
وثقل القيود التي ارسف فيها . كنت انبطح على فراشي ،
حالما ينصرف ، واشبك يدي ، واضعها تحت رأسي ،
واحاول ان استرجع ما فات عني التقاطه من تصرفاتها ،
وضعها ، هيئتها ، المتفرق من كلماتها ، تنهدياتها ، الساجي
الفايق من نظراتها ، ومضيت اترقب عودتها . كنت التقط
الاصوات الصادرة من بئر دنياهم ، واطرصد الحركات بأذني
وإخيالي ، بلهفتي وحنون انتظاري ، محاولا ان اميز الصوت الضائع
الناعس المطيب بالدفع والانكسار والعتاب المضر . ولكن الايام
تمضي ، وزهرة لا تعود . والبيت ينتقل الى قبر ، كما كان
سابقا ، ولكن بفارق واحد ، هو ان الميت الذي فيه قد
بعث حيا بكل جوارحه ، وهو في انتظار منكر ونكير ليحاسباه .

كنت اقول لنفسي : لقد جنيت عليها . في ساعة من

ساعات الضعف البشري حطمت حياتها . وربما لهذا السبب
للمت حاجياتها ، وخرجت خوفا من الفضيحة . جمعت
حطام عفائها ، وابتعدت عن طريق حياتي لتجنب نفسها
الاحراج ، ولتجنبني الاذى والعقاب ايضا . لم تعاتبني . لا ،
عاتبني . لم تعاتبني بصريح العبارة ، ولكن العتاب كان
يطل من كل حركة تبديها ، من كل نظرة متيمة تلقىها ، من
كل آهة تفلت منها ، من كل اشارة دالة تبدر منها . ومرة
تحدثت لي عن عبء الاولاد . آنذاك بدا الحديث طبيعيا
ينسجم مع ما كنا نخوض فيه . وهو الان يبدو ذا قصد ،
ومنبعا من قلق كان يتلدد في الاعماق .

وتأسن مقامي في البيت ، وتجسم لي البرود في كل
تصرف من تصرفات اهل البيت . والصمت تنين يعيش داخل
النفس ، ويمتص الهواء من الرئتين ، ويكاد يخنق صاحبه
من الداخل . عافت نفسي كل شيء . زهدت بالقراءة ،
بالتأمل ، وحتى بالامل في انفراج الوضع خارج البيت . لم
يعد يهمني شيء . تساوت مختلف الاحتمالات . لا ابالية
عجيبة ! خدر من حقنة يأس قوية . الان ، توجد في مكان ما
من هذه الارض الواسعة فتاة تتعذب بسببي لما زرعت في
احشائها ، وربما تلقى نفسها في تهلكة .. وهات ، با عذاب
الضمير !

واحيانا ، في لحظات نادرة ، تطل ومضات صفاء
غريبة ، يتحرر الذهن من تساؤلاته او تهاويله ، ويرضى
بحالة من القناعة الغيبية ، فيتوهم ان أي شيء لم يحدث ،
وان زهرة غادرت البيت لان صاحبه يغازلها ، او لمجرد انها

ظفرت بعمل اروح ، واخف اعباء ، وانها الان طليقة تهرح في دنيا الطلقاء ، وتضحك بخلو بال ، صافية القلب ، فارغة الاحشاء ! ولكن هذه كانت مجرد لحظات عابرة يتحایل فيها الضمير ليلتقط انفاسه . وبعدها تعود الافكار السوداء . وقد مرت لحظات كنت مستعدا لان اهيب نصف حياتي في سبيل لقاء خاطف معها . . ربما ذلك ايضا من الانانية ، لاحرر نفسي من اشواك الظنون التي كانت تمزق داخلي ، ولارسو بزورقي القلق الى شاطئ اليقين ، لامنح نفسي لحظة براءة تعقبها ساعات وايام وليال من الشعور بالذنب ، وارتكاب الجرم المشهود . وكان العجز جزءا من روتيني اليومي ، عجز عن الحركة ، عجز عن التفكير ، عجز عن الثبات على راي ، عجز عن النوم ، وكل هذه الالوان من العجز كالاماعي تذيقني ضروب السموم واللدغات .

ثم حان وقت الخروج من قوقعة الاختفاء . فقد حصل ابي على وعد في اعطاء جواز سفر لي لغرض الدراسة في الخارج . في ذلك الحين كان السفر الى الخارج كالنفسى ، كتقديم براءة ، كتخلص مسموح به من عنصر ازعاج . ترددت كثيرا . الشيء الذي حلمت به كثيرا اثار في صدري المخاوف . ساتعلم المشي من جديد ، والكلام مع الناس من جديد ، ساجابه الواقع من جديد . اطلقت شاربي ، ووضعت على عيني نظارة خضراء داكنة . وفي الليل انتقلت من البيت الذي قضيت فيه خمسة اشهر ، من الاختفاء الى بيت اخر ، الى حياة شبه علنية . وخلال المدة التي كان يسعى فيها ابي ، بالواسطة والرشوة ، للحصول على جواز كنت

اتصرف كالمراقب . كنت اسير متعثرا ، وأرى نفسي في
وجوه الآخرين . كنت قليل الكلام لا أرد الا بالكلمات
الضرورية . ولكنني كنت واثقا ثقة غيبية بأنني سأراها ،
أراها فجأة طالعة من بيت ، ماشية في شارع ، تتسوق
عند بائع مخضرات ، في رفقة رجل او امرأة . وكنت أخشى
هذا اللقاء وأريده في الوقت نفسه . كان قلبي ممثلا به ،
وكل كياني . كان شبحها يطاردني . كانت تتراءى لي في كل
مكان .. عينها الساجيتان ترمقاني عبر ابعاد غير
منظورة . وحتى حين كنت اخلد الى نفسي ، كنت اتصور
انها ستدخل علي حاملة صينيته . وقد حملت شبحها معي
في الخارج . وحتى الان ، بعد هذه السنوات ، حين دعيت
الى زيارة ليلية لبيت مشبوه ، كنت اتخيل انني سألقاها ،
في ذلك البيت . فقد قررت مصيرها بيني وبين نفسي ..
التعاسة .. السقوط .

خضنا برك الليل السوداء ، والاشجار تطل من فوق
اسيجة البيوت مثل رؤوس حيوانات مفترسة . كنت احمل
نفسي حملا ، كأنني ذاهب الى مصر معلوم . والليل يوهج
الفكرة التي تقض مضجعي . سأجدها ...

وجدتها ... هي .. غيرها .. ثوبها الوردى شمع
واعى عيني . جفلت ، تراجعت ، احاول الاختفاء .
ركبتاي ساحتا تحت ثقل جسدي الرصاصي ..

انا .. انت ... هو يدخل الاول . طاردني الصوت .
الضحكة . الحائط سحق كتفي . دفعت الباب . ارتيمت
على المقعد . غاص بي . كياني يهتز هزات مخيفة . هل
لحتني ؟ خفقت بنعلها وغابت . الصوت النسائي الاجش
يلاحقها . ما موقعها من هذا البيت . خادمة ام ماذا ؟ ان
بعض الظن اثم .. وكل الظن ؟ انتحار . الضحكات

تلاحقني الى قعر هذا المقعد الكسيح . كيف تورطت وجئت؟
سأكسر هذه الاصص الوسخة ، واهرب . اهرب ؟ لا هروب
بعد الان ، لا هروب !.. تمزق الضمير شر ممزق ! سأظل
مطاردا ، فريسة لمعركة الظنون والاشباح .

لا ، لا استطيع الكتابة .. سأمزق الاوراق البيضاء
الباقية .

اليوم حين سمعت ابي يقول لفاضل ستأتي الى بيتها،
وجدتها لك .. غاص قلبي الى رجلي . هل وجدها حقا ،
ام مجرد تعلقة ؟ وعلى كل حال ، صرت كمن صدر عليه الحكم
ببلع لسانه ... القلم لم يعد يسير ...

- ٣ -

(غرفة الدرس نفسها في المعهد . شامل جالس في استغراق سائدا رأسه على ظاهر اصابعه المطوية . ووراءه جلس ماجد يطوي ورقة بين اصابعه صائعا منها اشكالا مختلفة) .

ماجد : لم اظفر منك بتبرير حتى الان .

شامل : هناك اعمال لا تحتاج الى تبرير .

ماجد : مع ذلك فلست موقنا بأنك تتخلى عن حبك الاول بمثل هذه السهولة .

شامل : خطأ الناس ان يحسبوا ذلك حبا . ليس الحب هو الذي يبني علائقنا مع الآخرين ، بل شيء اخر اعمق .

ماجد : ما هو ؟ المصلحة ؟

شامل : الحياة نفسها . كل شيء يعود اليها ، وينبثق منها . ونحن نلعب لعبتنا في سبيلها . والخائب هو الذي لا يظن الى ذلك في وقت مبكر .

ماجد : وما المقياس في قبول الحياة لمنطقك ؟

شامل : وضوح الفكرة . وتشبع نفسك بها .

- ماجد : يعني ان لك فكرة واضحة في الحياة .
- شامل : كل الوضوح ، وهي التي تسيطر على حركاتي .
- ماجد : اليس هذا غرورا ؟
- شامل : بل نضوج مبكر .
- ماجد : مستهديا بالذرائعية ؟
- شامل : ولماذا لا تسميه دفاعا عن النفس ، هذا اقصى ما نفعله في الوقت الحاضر .
- ماجد : أوه ، لكم تغيرت ، يا شامل !
- شامل : الحياة تفعل الاعاجيب .
- ماجد : كنت تريد ان تكون شاعرا .
- شامل : كففت عن ذلك ، في زمن لا تحلق فيه غير الخفافيش ، ولا ينعم فيه بالعيش غير المقاولين .
- ماجد : هذا منذ زمان : اما ان تكون شاعرا او مقاولا .
- شامل :^{*} في زمننا هذا اكتسى هذا التناقض لون الدم .
- ماجد : اوف ... من اين لك هذه المرارة ؟
- شامل : هذه حصانة من الوقوع في المعجز .
- ماجد : لن تكون عاجزا ، اذا كنت تملك الوسائل .
- شامل : اتظنني املكها ؟
- ماجد : اعتقد .
- شامل : عسى ان يكون ذلك صدقا . وان تضمن ذلك معنى الادانة . لا يهم ! ادني ، يا اخي . الادانة هي الاخرى تنبئ عن بعض الاقدام ، وتتجرد من الحيرة والتردد .
- ماجد : وانت لا تريد ان تتهم بهما .

- شامل : اخافهما خوف الاعمى .
- ماجد : اراك قد كبرت ، يا شامل .
- شامل : من عاش السنوات القليلة الماضية ، فقد عاش
الدهر كله . لقد سافرت انت ، ولم تر ما يملأ
نفسك بالمرارة .
- ماجد : أتعمرني بتركي الوطن للدراسة ؟
- شامل : لا ، بل اخترت اهون الامرين ، على الاقل .
- ماجد : كائنني خرجت من المهد الى جنة الخلد .
- شامل : على العموم ظلت تجربتك ناقصة .
- ماجد : ربما اوافتك . ربما كانت احلامي اكثر من تجاربي .
- شامل : والاحلام لا تسمن ولا تغني عن جوع .
- ماجد : ولكنها ضرورية في البداية .
- شامل : بالقدر الذي لم يوفق حتى الان احد باكتشافه .
- ماجد : قد توفق انت .
- شامل : ابدأ . انا شطبتها من حسابي . الاحلام عجز ،
وانا اخشى المعجز اكثر من الشلل .
- ماجد : هكذا ، اذن .
- شامل : نعم .. قل لي ، يا ماجد : هل كنتم ، في زمانكم ،
تعرفون كلمة « احباط » ؟
- ماجد : كنا نعرفها ونستقبحها .
- شامل : اما نحن فنعيشها صباح مساء . وستعانيتها انت
الان ، في بحثك الخائب عن عمل ، في تحطيم
مشاريع صباك في رأسك ، بينما كنت مدللاً من

ابويك ، وصاحب مشاريع خيالية ، واحلام
طوباوية ، ولحظات في العمل الوطني ... اما انا
فلا شيء عندي من هذا . ادركتني الثورة ، وانا
ابن الخامسة عشرة ، وزينت صبائي بأحلام
غامضة . وعندما دخلت الفنون صرخ ابي في
وجهي : تريد ان تصبح ممثلا ؟ يعني « شعارا »
جعفر لقلق زاده ؟ بينما كان ينظر اليك ، وكأنك
مقتحم باب كبير . ستخرج مهندسا وتناط بك امال
العائلة ، لانك ستهندس لها مستقبلها الوضاء .

ماجد : ها انت ترى انني لا أستطيع ان اهندس حتى
مستقبلي .

شامل : عش كلمة « احباط » قدر ما تستطيع . وعندئذ
ستفهمني .

ماجد : لست قاصرا عن فهمك .

شامل : (ينهض ويقابل اخاه ، وينظر فيه مليا ليعرف هل
هناك ظل للسخرية في كلامه . ولما وجد رصينا
متجاوبا ، هز جذعه كالملوع) : سأقول لك مرة
اخرى ليتك كنت صادقا . ليتك تعرف معنى الاحباط
معنى تحطيم المشاريع . ثم ليتك تعرف كم يزخر
فكري بالمشاريع والاحلام ، في مجتمع هو ضد كل
هذه الاشياء . آه يا اخي ، انا مملوء تطلعات
ومشاريع . قلبي خزان للطموحات . ولكن ما قيمة
كل هذه اذا لفظني المعهد جنديا نفرا في جيش
العاطلين المتضخم ، او جعلني معلم نشيد في احدى

- مدارس ريفنا المحروس برعاية آلهة الجوع .
- ماجد : ولهذا تتخوف من مستقبلك .
- شامل : كل التخوف .
- ماجد : وتقيم اتصالاتك .
- شامل : هذه التي تسميها اتصالات لا تؤذي احدا .
- ماجد : ما الدافع اليها ، حسن النية ؟
- شامل : تقصد ما بدأنا الحديث به ؟
- ماجد : نعم ، هو .
- شامل : اهرب لحظات دفاء وأمل . وماذا يطمح الانسان اكثر من ذلك ؟
- ماجد : لعلها لحظات خداع ؟
- شامل : انت تستخدم كلمات اخلاقية اكثر من اللازم .
- ماجد : انا معني بالنتيجة .
- شامل : وليكن خداعا . فهو ايضا الهية في حياة جدباء .
- ماجد : اصبحت تضجرنى . ان ذلك عبث ، وسيوقعك في كارثة .
- شامل : (ببرود) اسمع ، يا اخي . اليس رائعا للفقير ان توفر له وجبة دسمة في لحظة من لحظات الترحم على الموتى ؟
- ماجد : انا لا افهمك .
- شامل : انا الوجبة الدسمة بالنسبة لهيفاء الفقيرة الى رحمة الرجال . وجبة لم تحلم بمثلها .
- ماجد : هكذا ، اذن .

- شامل : بصراحة واخلاص .
- ماجد : ولكنك ستحطمها .
- شامل : لا ، ابدا .
- ماجد : لعلك لا تعرف قصتها .
- شامل : اعرفها ، فهي ليست بخافية على احد عندنا .
- ماجد : وهي ، ماذا ترى في توددك اليها ؟
- شامل : لا شيء ، مجرد لحظات دفاء وامل .
- ماجد : والاخرى .
- شامل : دعها ، في الوقت الحاضر .
- ماجد : في الوقت الحاضر ؟
- شامل : هذا شيء يخصنا .
- ماجد : ولكن الحب والوفاء .
- شامل : لا قيمة للحب والوفاء والاشياء الاخرى اذا كنت انت بلا قيمة ، وبلا قدرة على التأثر في الاخرين .
- سأؤجل ايماني بالقيم الى اشعار اخر ، كما يقال في المكاتبات الرسمية .
- ماجد : ولكن الحب كيف يؤجل ؟
- شامل : كل شيء قابل للتأجيل ، ما عدا الحياة نفسها . انها لا تقبل الانتظار . ثم انني لا اريد حبا محبطا ، حبا عاجزا يتقاسم فيه الخيبة الزوج والزوجة .
- ماجد : انا لم اسمع بهذه اللهجة طيلة حياتي .
- شامل : ولم تسمع بالزوجات اللاتي طلقن ازواجهن من اجل وظيفة ؟
- ماجد : انت تهزل .

شامل : لا ، والله . قبل اشهر اعلنت وزارة التربية عن وجود بعض الوظائف الشاغرة للمعلمات شرط ان تكون مقدمة الطلب غير متزوجة . فتواطأت بعض الزوجات مع ازواجهن على طلاق اسمي ، حتى اذا ظفرت بالوظيفة المنشودة عاد شمل العائلة فالتأم من جديد . كل ذلك اضطرارا وفي سبيل لقمة العيش ، بينما انا . . . (وتلعثم وصمت برهة) انا على اية حال ، لم اتزوج ولم اطلق .

ماجد : ولكن تبدو وكأنك تقر هذه الطريقة ؟

شامل : لا اقرها ، ولكن لا اقف عاجزا ازاءها . الانسان قادر على التكيف والتخطي .

ماجد : ويبقى المعوق زارعا في طريقك آلاف الحواجز .
(تسمع ضجة . يصمت الاخوان . يدخل الطلاب في صخب مرح) .

خالد : ها هو شامل في صومعة الوحي .

جبار : متلبسا بهيئة تفكير عميق .

علوان : لا بد انه ما زال ضائعا في متاهة العلائق الانسانية .

كمال : سنخرجه اليوم منها .

جلال : ونريه طريق الخلاص .

خالد : اسمع ، يا شامل .

شامل : (يرفع رأسه)

خالد : لقد فكرنا في الموضوع طويلا .

جبار : وانتهينا الى حل .

لطيف : يريحك ويريحنا .

- علوان : ارفع رأسك عاليا ، يا شامل .
- جلال : فقد وضعت لبنة الى اساس مسرحنا العراقي .
- لطيف : المتضور جوعا الى النصوص .
- جلال : رغم قناني الحليب المجفف التي رضعها من المسرحيات المعركة .
- شامل : اتركوني وشأني .
- عدة اصوات : كيف نتركك وشأنك بعد ان قطعنا كل هذا الشوط الطويل ؟
- خالد : واعدنا المنطق الى مسرحيتك .
- شامل : لا حاجة اليها .
- جبار : كيف لا حاجة اليها ؟
- كمال : وكل شيء جاهز .
- جلال : "وما عليك الا ان تسمع .
- شامل : لا اريد ان اسمع .
- علوان : عجيب ! صرنا شخصيات تبحث عن مؤلف ، والمؤلف لا يريد ان يسمع .
- خالد : ولكن المشهد سيعجبك كليا . انه على مزاجك .
- شامل : كفوا عني .
- لطيف : (يتلفت في الوجوه) الظاهر انه محرج .
- ماجد : (بصوت خافت) يبدو انه محرج مني . دعمكم . اذا كان لا يريد ان يسمع ، فأنا اريد .
- جلال : الاخ له شبه بشامل .
- ماجد : انا اخوه .

علوان : اذن لا بد انك ستفرح . شامل ابتكر مسرحية .
ماجد : سمعت شيئا عن ذلك .
جلال : ولكنه تخطب في متاهة العلائق الانسانية .
كمال : فاعترضا عليه .
جبار : والان نقدم له مقترحات عملية لانقاذها ، فلا يقبل .
ماجد : اظنه سيقبل . باله مشغول الان ، ولكنه سينضم اليكم بفكره ، فيما بعد .
جبار : هيا ، يا كمال ، اشرح الامر ، فالاخ ...
ماجد : ماجد .
جبار : ... ليس غريبا بيننا .
كمال : حسنا . من ضمن التعديلات التي ادخلناها على تصورات شامل ما يخص شخصية الاخ الاكبر .
شامل : ارجوكم اجلوا الموضوع .
ماجد : ماذا بالاخ الاكبر ؟
كمال : حسنا ، رسمه شامل متورطا بعلاقة مشبوهة مع زوجة اخيه .
ماجد : عجيب !
كمال : هذه العلاقة يمكن ان تكون مفهومة ، لان الاخ الاكبر كان في الغربة ، ولما عاد رأى اخاه قد كبر وتزوج امرأة غريبة .
ماجد : ومع ذلك ، فالامر يثير تساؤلا .
كمال : حاولنا تخفيف هذا التساؤل بارجاع الامر الى عقدة نفسية .

ماجد : لا اظن اية عقدة نفسية تبرر تحللا .
كمال : حلمك معنا ! لقد قضى الابن الاكبر ردها من الزمن
في اوروبا .

جبار : وما اكثر العقد النفسية في اوروبا .
ماجد : ليس المهم ان تكون في اوروبا ، حيث العقد النفسية ،
ولكن المهم عند من كنت في اوروبا . انا نفسي كنت
في اوروبا . وقد علمتني اوروبا الكثير . في اوروبا لا
يمجد جميع الناس سقوط القيم وانهايار الاخلاق -
والهمم بالنسبة للغريب المقيم فيها من وماذا يختار
في اوروبا ؟

علوان : لا نريد ان ندخل في ايراد ومصرف . اردنا ان نجد
تبريرا .

كمال : وجعلنا البطل يحس بعزلة نفسية .
ماجد : ربما كان يحس بها ، فقد احس بها كثيرون ، وانا من
بينهم . ولكن لماذا تريدون ان تبرروا سقوطه بعمل
خارجي ؟

خالد : لكي نوقف المسرحية على رجليها . انا ايضا املك
الحق في ان ابدى رأبي في مسرحية شامل ، واجنبها
السقوط ، لانني امثل دور الاب فيها .

ماجد : وما هو دور الاب ؟
جبار : كان شامل يريد ان يكون متخاذلا ضعيفا ازاء اولاده
او بعض اولاده ، لانه .. لانه .. لماذا ، يا شامل .
شامل : (يصرخ) قلت كفى ! اجلوا الموضوع الى وقت

آخر .

جلال : كفى سياسة كم الافواه يا شامل .

ماجد : لماذا ، ايها الاب ؟

خالد : لانني سمحت لابني المتوسط بأن يتخذ له زوجة من

اصل وضيع .

جبار : نعم ، لانه سمح لي بأن التقط فتاة من اصل مجهول .

خالد : اليس كذلك ، يا شامل ؟

شامل : (بحق) كفاية ! لا تحولوا المسرحية الى مهزلة .

خالد : نريدك ان تدافع عن شخصياتك كما خلقتها ، او

تتخلى عنها .

شامل : لا تجرني الى الموضوع جرا .

ماجد : دافع عنها ، اذا كنت مؤمنا بها بالشكل الذي خلقتها

، به .

شامل : انا لم اخلق ، بل التقطت شرائح من الواقع .

خالد : وفسرته بالطريقة التي تحلو لك .

شامل : انا مقتنع بتفسيري .

خالد : دافع اذن .

شامل : لا اريد ، لانني قرف .

ماجد : ربما لانك محرج .

شامل : لا تتصور ذلك . انا استطيع ان ادافع عن افكاري .

خالد : وهذا ما نريده .

شامل : لقد رسمت شخصيات اهانت نفسها . انا ضد

اهانة النفس (يحتدم) .

خالد : حسنا ، لنرجع الى موضوعي . كيف اهنت نفسي ،

انا الاب ، وقد كونت عائلة ، حين وصفتني
 بالعصامي ، وجعلت لي ابناء شق كل واحد منهم
 طريقا له في الحياة ، واصبح مسؤولا عن نفسه .

شامل : اهنت نفسك ، لانك استجبت لنوازع ابنك المريض ،
 وسحت له بأن يلتقط نبتة عقيمة من احشاء
 المجتمع ، ويفرزها في حديقة دارك .

خالد : كان يسعدني ان اسعد اولادي . وما سعادة الاباء
 الا بسعادة الابناء ، كما يقولون .

شامل : ولكنها لم تكن الا سعادة زائفة . فقد هربت
 الناكرة للجميل بعد ان تكشف عقمها .

خالد : لم اكن اتنبأ بالغيب ، ولا زوجها .

شامل : واهنت نفسك ، لانك جعلت تبحث عن الزوجة
 الهاربة .

خالد : اين كان هذا ؟

شامل : في تصوري اللاحق للمسرحية .

جلال : انت تتصور ، وتتصور . ولا نهاية لتصوراتك
 المفرضة .

خالد : وليكن ، دعه يتصور .

شامل : الم تهن بذلك شيخوختك ؟

خالد : ابدا ، كنت اريدها شيخوخة مطمئنة لا فقد فيها .

شامل : واي فقد في زوال ما كان نسيا منسيا ؟

جبار : اسمع ، يا شامل ، هذا الامر راجع لي ، انا زوجها .
 ربما كنت احبها .

شامل : كنت متهاككا على جسد .
جبار : (يصرخ) افرض انني كنت مرتاحا معها . (ضحك) .
جلال : لماذا لا نفترض انه كان ظمآن في صحراء الحب فوجد
ينبوعا وارثوى .

علوان : وكم من اناس قنعوا بمن وجدوا في اسرتهم .
شامل : وجد سرايا . وذلك ثمن سقوطه .
جبار : يا اخي ، احببتها ، احببتها والله العظيم .
(تدخل التفات وسناء)

التفات : (تصيح بهيئة تمثيلية) : من احببت ؟ هل احببت
اخرى غيري ، انا زوجتك المسكينة الضائعة ؟
جبار : لك الى الابد .

التفات : هذا ما اتوقعه منك ، رغم كل الشامتين .
جبار : سأظل وفيا لك .
التفات : ارجوك ان تبحث عني في احشاء المجتمع ، على حد
تعبير شامل الموفق .

جبار : سأبحث عنك ، سأقضي حياتي كلها في البحث عنك،
بل ان شامل ، في لحظة من لحظات تقريع الضمير،
جعل ابي خالدا يبحث عنك .

التفات : صحيح ؟ شكرا ، يا شامل ، الف شكر .
شامل : اذا مضيتم في حواركم هذا ، خرجت من القاعة .
التفات : ولكننا نريدك ان تكون معنا .
جبار : خلقتنا وتريد ان تهرب منا ؟

خالد : لماذا هذه المعاملة السيئة لشخصياتك ؟
ماجد : يبدو انك ، يا شامل ، تفتقر لاي فهم للعائلة التي
خلقتها .

سناء : (تصرخ فجأة ، وكأنها كانت تتعباً بالغيظ طيلة
الوقت) : اية عائلة خلق ؟ هذه عائلته . ومن لا
يفهم عائلته لا يفهم العالم كله .
(الانتظار تتصوب اليها)

التفات : (بدهشة) أهذا صحيح ؟
جلال : (كالمخاطب نفسه) والله ، ما شككت في اننا كنا
نخوض في امور عائلية .

سناء : البارحة ، تسللت الى مطبخ بيته ، وتعرفت ، على
اخوته .

خالد : سناء ، الاخ ماجد (ويشير اليه) اخو شامل .
سناء : اهلا به (وتستمر في حديثها) لقد اوكل الي شامل
مشكورا ان امثل دور الاخت ، ربة المطبخ . لم
اتجاوز الاصول . بل تم ذلك بمحض المصادفة
المنقذة ، ولا اريد ان اكشفها .

شامل : سناء ، لا اسمح لك بهذا .

سناء : سمحت لنفسك بتوزيع ادوار افراد عائلتك علينا ،
ولا تسمح لنا بالتعرف عليهم ؟

شامل : قد تكون الشخوص واقعية ، ولكن الافكار من
عندي .

سقاء : آه ، من افكارك ... اسمعوا ، لقد دلتني المصادفة
على كنز انساني . اية فتاة هي ! حالمة تنظر في
وجه محدثها بشغف ، تذوب لخدمة الجميع ، وتتوقع
الخير من الجميع . اية رقة ! اي حب ! اي حنان !
لو وزع حنانها على البشر لما بقيت في قلب
انسان غلظة . تلك هي الانسانة التي تعرفت
عليها .

(صمت . الجميع محرجون)

خالد : (بصوت عاطفي) نحن اسفون ، ربما شططنا .
جبار : ربما اخطأنا في التفسير .
التفات : ربما حملنا القضية اكثر مما تحتمل .
ماجد : بل وربما وضعتم النقاط على بعض الحروف .

صيف ١٩٧٨

هذه الرواية

عندما صدرت رواية « النخلة والجيران » قبل ثلاثة عشر عاماً ، اعتبر صدورها مولداً للرواية الفنية المعاصرة في العراق ، واعتبر بعضهم كاتبها « غائب طعمة فرمان » (الأب الشرعي) لهذا اللون من الرواية . ومنذ ذلك التاريخ ، واستناداً الى ماض أدبي مشهور وطويل ، اصدر « غائب » روايات أخرى بوأته مكاناً طليعياً بين الروائيين العراقيين ، وربطت اسمه بالتطور اللاحق للرواية العربية في العراق . بل واعتبره « غسان كنفاني » « من أحسن الذين يمسكون القلم في هذه الفترة » .

و « ظلال على النافذة » هي الرواية الخامسة لهذا الروائي العربي العراقي ينحو فيها منحى يختلف بشكله الفني عن رواياته السابقة . انها رواية بثلاث طبقات مشحونة بلحظات التوتر لاختيار الموقف ، حتى لو كان يمر عبر المعاناة والعذاب والتضحية . والصدق مع النفس يبدو ، أحياناً ، الشاهد الوحيد على هذه التضحية . و « الضمير » الذي يبدو ، في روايات غائب كلها ، البطل الحقيقي والخفي ، يسيطر هنا على الرواية بكل ما فيها من آلام . انه صنو الصدق مع النفس ، انه التاريخ الحي للانسان . . انه الذاكرة التي لا تمحي !

ان « ظلال على النافذة » رواية تشدك اليها ، لأنها مكتوبة بصدق واقعي وفي عميق . انها شهادة أخرى من شهادات غائب طعمة فرمان .